7

روائع الأدب العالمي

الثأر للوطن

تأليف الكاتب الأميركي

جون شتينبك



الثأر للوطن

تأليف
جون شتاينبيك

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب
THE MOON IS DOWN

إسم المؤلف
جون شتاينبيك

لماذا اخترت لك هذه القصة؟

عزيزي القارئ:

عندما خطر ببالي أن أقدمَ لك في هذا العدد من "مطبوعات دار ميوزيك" قصةَ "**الثأر للوطن**"، التي تعتبر من أروعِ ما كُتب عن حركات المقاومة للاحتلال الأجنبي ، وجدت فكري يتجه من تلقاء نفسه إلى الربط بين الظروف التي كتب فيها "**جون شتاينبيك**" هذه القصة، والظروف التي اجتازتها "**مصرُ**" وقت العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي الغادر عليها، والذعر الذي نقلته البرقيات إلى كافة أرجاء العالم.. ذُعْرِ الأنذال المعتدين ، من المقاومة النبيلة التي يصليهم شواظها أبطال "**بورسعيد**"!

لقد كتب "**شتاينبيك**" هذه القصة عندما سولت الأطماع لـ"**ألمانيا**" النازية أن تعتدي على حرية الدول ، فأشعلت نار الحرب العالمية الثانية، وأرسلت قواتها لاحتلال بلاد "**النرويج**" الآمنة ، غيرَ حافلة بحيادها الذي كانت تضمنه القوانين الدولية ، ولن تتمالك نفسك من أن تتمثل "**بورسعيد**" الباسلة، وأنت تقرأ قصة البلدة النرويجية الصغيرة التي اتخذها "**شتاينبيك**" مسرحاً لوقائع قصته .. البلدة الآمنة التي احتلها جنود المظلات النازيون غَدْراً ، فإذا بشعبها المسالم يقض مضاجعهم ، وإذا الشعب الأعزل يصبح مصدر فزع وذعر للغزاة المسلحين ، وإذا القوم المغلوبون يصبحون هم المنتصرين!

ومن سخريات القدر أن "**النرويج**" في كفاحها النبيل، كانت تتطلع إلى "**إنجلترا**" كملجأ للحرية .. بل إن أبطال حركة المقاومة النرويجية كانوا يتطلعون إلى "**إنجلترا**" كما لو كانت الزعيمة التي تحمل لواءَ الدفاع عن الحرية .. ولكن القدر شاء قبل أن تنقضي أربع عشرة سنة على كفاح "**النرويج**" ، أن يكشف حقيقة "**إنجلترا**" للعالم بأسره ، فإذا "بطلة الحرية" تَنْضو ثوب البطولة الزائف عنها ، وتتنكرّ لكل المبادئ التي

أجادت أجهزة دعايتها تزييفها ، لتبدو على حقيقتها .. ذئبا كاسرا ، لايعبأ بشرف ، ولا مبادئ ، ولامُثُل عليا ، ولا قوانين دولية ، في سبيل إشباع نَهَمه الاستعماري البشع!

*****

هذه المفارقة العجيبة ، أو هذا التناقضُ العجيب بين "**إنجلترا**" في ثوب البطولة الذي تنكرّت فيه أيام الحرب العالمية الثانية لتثير العالم ضد النازية – حمايةً لأمنها وسلامتها ، وليس دفاعا عن الحرية!ـ وبين "**إنجلترا**" كما تجلّتْ على حقيقتها للعالم في العدوان الوحشي الآثم على "**بورسعيد**" .. هذا التناقض الصارخ كان من أهم العوامل التي شجعتني على أن أقدم لك هذه القصة .

وثمة عامل ثانٍ هو أنني لم أتمالكْ نفسي من الاسْتسْلام للزهو والفخر ، وأنا أقرأ قصَصَ مقاومة الشعب النرويجي للغزاةِ المعتدين – وقد صورها "**شتاينبيك**" نقلا عن أكثر المصادر دراية بها ، كما ستقرأ في المقدمة التي تلي هذه السُّطور–فأجد صور هذه المقاومة ، على نبلها وبسالتها ، تبدو باهِتة إزاء البطولة الفذّة التي تجلت في حركة المقاومة الشعبيةفي "**بورسعيد**" الخالدة!

بَقِيَ عامل ثالث .. ذلك هو الإعجاب بـ"**شتاينبيك**" نفسه ، فإن "**شتاينبيك**" في كفاحه من أجل النجاح ، ضرب أمْثلة خليقاً بكل كاتب أن يتدبرها ، ليرى كيف تتغلب الأمانة للرسالة على كل بريق للمادة!.. ولكنني لن أزيد ، لأترك لك مجال الحكم بنفسك!

وتقبل تحياتي ..

"جون شتاينبيك"

الكاتب الذي كان يخشى الشهرة خشيته للموت!

لعلّ الأقدار كانت تريد لـ"**جون شتاينبيك**" أن يُصبح قصصيا ، منذ مولده في ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ ، فقد وُلد في بلدة "**ساليناس**" بولاية "**كاليفورنيا**" في "**أمريكا**" ، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة "**مونتيري**" إحدى المقاطعات الأمريكية التي ماتزال تعيش في فطرة البداوة إلى حد بعيد . . فما تزال نفوسُ أهلها صافية ، وقلوبُهم عامرةً بالطيبة، وعقولهم ساذجة إلى الحد الذي يجعلهم يعشقون رواية القصص أو الإنصات إليها ، حول النار التي يسمُرون حولها في التلال . .

ولقد وُلد "**جون**" لأب "**ألماني**" الأصل ، وأم "أيرلندية" الأصل . . فإذا علمتَ أنه كتب هذه الرواية "**غروب القمر**" – أو "**الثأر للوطن**" كما آثرنا أن نسميها – كمساهمة في مقاومة العدوان النازي على شعوب "**أوروبا**" ، وشعب "**النرّويج**" بالذات ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فلا تعجب لتنكره للأصل الذي انحدر منه ، إذ إن الحرية التي رَضَعَها مع لبن أمه الأيرلندية– سليلة الشعب الثائر المجاهد – كانت أقوى من النَّعْرة العنصرية!

ولقد كان والد "**شتاينبيك**" هو المسؤول عن الشؤون المالية في مقاطعة "**مونتيري**" ، إذ كان مدير الإدارة المالية في حكومة المقاطعة . . أما أمه فكانت معلمة، ولعلها صاحبة الفضل في شغفه بالقراءة والكتابة . على أنه لم يكتب بوحي من دروس أمه فحسب ، وإنما استمد إلهامه من دراسته للناس ونفوسهم ، ومن اختلاطه الحقيقي العملي بالحياة ذاتها وتفاعله معها . فقد اعتاد أثناء دراسته الثانوية أن يقوم ببعض الأعمال المؤقتة في المزارع . . فعمل مساعدا لنجار ، وصبيا لنقاش، وعاملا في المصانع . . كما دفعه حبه للعلوم إلى أن يعمل مساعدا في بعض المعامل الكيميائية . .

الخفير الذي انصرف إلى تأليف الروايات!

ثم التحق بجامعة "**ستانفورد**" في سنة ١٩١٩ ، ولكنه شغف أثناء دراسته الجامعية بالتجوال في المراعي ومزارع تربية المواشي ، فكان لايحضر سوى الدرُوس التي تَرُوق له، ثم يهيم في تلك المزارع ، ويقضي أوقاتا بين أهلها . وما لبث أن ترك الجامعة في سنة١٩٢٥، دون أن يظفر بدرجة جامعية ومنذ ذلك الحين ، أصبح همّه في الحياة التّجوال والكتابة.. فرحل إلى الولايات الشرقيةمن "**أمريكا**" على إحدى سفن البضائع ، حتى إذا بلغ "**نيويورك**" ، آثر الاستقرار فيها..

وكان لابد له من مورد يتعيشُ منه في "**نيويورك**" .. المدينة الكبيرة التي لم يكن له فيها معارف أو أصدقاء .. ومن ثم عمل كمخبر صحفي فترة ، ولكنه ما لبث أن فقد عمله ، فلم يتورع أو يخجل من ممارسة بعض الأعمال التي تبدو تافهة في نظر أي شخص حظِيَ بقسط من الدراسات الجامعية ، حتى لقد مارس حرفة البناء ، واشتغل مع البنائين فترة من الزمن!

.. وما لبث بعد عامين أن عاد إلى ولاية "**كاليفورنيا**" ، فاستُؤجر لحراسة بيت في منطقة "**هاي سييراس**" الجبلية!

والظاهر أن مركزه كخفير أتاح له فسحة من الوقت ، وجوا من الاستقرار . ففي أثناء عمله في الحراسة ، وضع أولى رواياته ، وهي التي نشرت في سنة ١٩٢٩، تحت اسم "**الكأس الذهبية**" .. ومن عجب ، أن أحد الناشرين عرض عليه بعد سبع سنوات – وبعد أن ذاع اسمه – أن يعيد طبع هذه الرواية ، فكتب إلى "**ميكنتوش**" و"**أوتيس**" اللذين صارا وكيليْ أعماله ، يتصلان بالناشرين ويشرفان على مصالحه.. كتب إليهما يقول :" لست أشعر بفخر جم بهذه الرواية ، وقد كنت أوثر لو أنها لم تنشر قط.. أما وقد نشرت بالفعل ، فلا سبيل إلى حجبها .. ولابأس إذن من إعادة نشرها" !

ثمن القهوة.. من الجريمة!

وهذه ناحيةٌ في شخصية "**شتاينبيك**" قد لاتجدها لدى كثيرين من الأدباء والمؤلفين.. وأعني عزوفَه عن نشر ما لايرتاح إليه من إنتاجه ، مهما تكن حاجته إلى المال، ومهما يكن إغراء وكيليه والناشرين الذين يطمئنون إلى إقبال القراء على أي كتاب يحمل اسمه !

ومن نوادره في هذا الصدد ، أنه وضع حوالي سنة ١٩٣٢ رواية بعنوان "**اللحن الأخرس**" . وبينما كان وكيلاه يعرضانها على الناشرين ، خطر له أن يعيد قراءتها ، فما إن فعل حتى كتب إليهما يرجوهما أن يردّاها إليه ، قائلا : " إنني أشعر بخجل إذ كتبتُ شيئا كهذا!" . وكان قد حاول في تلك الأثناء أن يتمشى مع التيار الذي جرف دنيا القصة في "**أمريكا**" منذ العقد الثالث من القرن الحالي، فكتب قصة من قصص الجريمة، ودفع بها إلى وكيليه .. فلما سحب "**اللحن الأخرس**" ، كتب إليهما في الخطاب ذاته يقول: " إن الجريمة قد تصلح لو أنها اختُصرت قليلا ، ولو أنها درتْ مبلغا ضئيلا من المال ، لكان هذا أفضل من حزمة الورق التي تضمنتها .. إنه قد يساعد على دفع ثمن القهوة التي أحتسيها!" .. وفي الخطاب ذاته أيضا ، كتب يقول: " لقد اقترب موعد دفع أجرة المنزل ، وسنضطر إلى مغادرته عاجلا.. إلى حيث لاأدري !" .

عمل غير مربح لناشريه!

على أنه إذا اقتنع بوجاهة إحدى الأفكار التي يبني عليها رواياته ، لاينثني عنها حتى يجعل منها رواية ناجحة.

وقد حدث – في نفس الفترة التي ذكرناها – أن كتب رواية بعنوان "**الإله المجهول**" . ودفع بها إلى وكيليه، وكانا في بداية علاقاتهما به ، ولم يُوفَّقَا بعد في بيع شيء من إنتاجه للناشرين .. وعرض الوكيلان الرواية على عدد من دور النشر فأجمعت على

رفضها ، ومن ثـم كتبا إلى "**شتاينبيك**" يُعربان عن أسفهما ، فرد عليهما قائلا : " إن ما ذكرتماه عن فشل الكتاب في الظفر بناشر ليس بالنبأ البغيض أو المؤلم .. بل إنني سأعيد كتابة الرواية من جديد، وسنرى ما إذا كان اعتقادي في روعة الوقائع والحوادث يتمشّى مع آراء النقادوالناشرين .. على أنني لن أبذل أي جهد للاتصال بالصحفيين للترويج للقصة.. فشكرا لنصيحتكما.. ولكنني عميل غير مربح؟!

ولكن الحظ متقلب مع الزمن.. فبعد ست سنوات ، وكان اسم "**شتاينبيك**" قد بدأ يشتهر، كانت هذه الرواية – بعد أن أدخل عليها بعض التنقيحات ،والتعديلات التي ساعدت على نشرها تحت اسم "**نحو إله غير معروف**"– سببا في علو صيته ، ورواج مؤلفاته ، وزيادة دخله.. كذلك!

تجديد .. في فن الرواية

على أن بداية المجد لـ"**شتاينبيك**"– ككاتب روائي – اقترنت برواية "**مراعي السماء**"، التي حاول الكاتب أن يصور فيها الحياة في واد كانت ترفرف عليه السّعادة بأجلى آياتها ، وكان الوئامُ يسود الأسرات العشرين التي كانت تعمره .. ذلك هو وادي "**باستوراس ديل سبيلو**"، أي مراعي السماء .. نفس الاسم الذي أطلقه على الرواية ! وترجع قيمة هذه الرواية بالنسبة لمجد "**شتاينبيك**" إلى أنه اتبع فيها طريقة مبتكَرة لم يألفها الروائيون .. إذ جعل الكتاب عبارة عن مجموعة من القصص المستقلة، تصلح كل منها لأن تكون قصة قصيرة كاملة، ولكنها تربط بعضها ببعض بوحدة الشخصيات، والوسط الذي تدور فيه الحوادث ..، وتتوالى في ترتيب يجعل بعضها استئنافا لبعض – برغم استقلالها – حتى تصل أحداث الرواية إلى أوْجها !.. ولعل الحافز الذي شجع "**شتاينبيك**" على الاتجاه إلى هذه الطريقة ، هو أنه لم يعتد أن يرسم مقدما فكرةً معينة وهيكلا يتشبث بهما في علاج الحوادث ، وفي التقيد بأسلوب معين أو بطريقة معينة للعرض ، كما تفعل الغالبية العظمى من الروائيين والقصصيين!

وما إنْ ظهرت "**مراعي السماء**" – في سنة ١٩٣٢– حتى قُوبلت بحرارة وتشجيع من النقاد ، وإن لم يكن رواجها عظيما .. وإلى هذا التشجيع وتلك الحرارة ، يرجع الفضل في وصول "**شتاينبيك**" إلى أولى درجات المجد..

ينزعج من الشهرة .. إلى

درجة الموت!

ولكنه لم يرق السّلم درجة فدرجة ، إذ استطاع بروايته التالية "**تورتيلا فلات**"– أو هضبة "**تورتيلا**– أن يَطْفرَ طفرة واسعة، وقد اتبع فيها عين الطريقة المبتكرة السابقة .. طريقة تكوين الرواية من عدة قصص قصيرة . ولعل هذه الطريقة هي السر في أنك لا تجد لهذا الكاتب كثيرا من القصص القصيرة القائمة بذاتها ، فهو يشبع ميله إلى القصص القصيرة بكتابتها على شكل حلقات في رواية طويلة!.. ومما زاد "**تورتيلا فلات**" روعة ، أنه مزج فيها الفكاهة بالمأساة، والجد بالهزل ، في براعة نَمَّتْ عن نبوغ!

والواقع أن النّبوغ في "**شتاينبيك**" غريزة فطرية كان يكشف عنها شيئا فشيئا في اجتهاده ودأبه وممارسته للكتابة.. ومن ثَمَّ فقد كان إنتاجه – لاتقريظ النقاد – هو الذي أظهر عبقريته ودعم مكانته في عالم الأدب الأمريكي الحديث!

وعندما نُشرت "**تورتيلا فلات**" – في سنة ١٩٣٥– استُقبلت استقبالا مشجِّعا، حتى ليمكن اعتبارها أول رواج فعلي لـ"**شتاينبيك**" ، أو بالأحرى أول إنتاج أذاع اسمه لدى جمهور القراء عامة في بلاده ، بعد أن كانت شهرته مقتصرِة في باكورتها على طبقة أو طبقات معينَة من القراء .

والعجيب في الأمر ، أن الكاتب نفسه لم يَرْضَ عن هذه الرواية رضاءه عما سبقها ، حتى لقد كان يعتبرها "إنتاجا من الدرجة الثانية " ، وكتب لوكيليه يبدي عجبه من النجاح الذي لقِيَتْه ، قائلا:" من العجيب أن هذا الكتاب الذي أعتبره من الدرجة

الثانية، والذي كتبته لمجرد الترويح عن النفس، قد أثار كل هذه الضجة!".

والأعجب من هذا، أن النجاحَ أخافَه وأقلقه. فقد مضى يقول في ذلك الخطاب: "إنني منزعج- إلى درجة الموت- من الشّهرة.. فقد أفسدت عليّ كل إنسان عرفته!"..

وعندما طلبتْ إليه دار النشر - التي تولت نشر الكتاب- صورة له تستغلها في الإعلان، كتب يقول: "لم تلتقط لي صورة قط.. ولست أزعم أن هذا راجع إلى طبع متأصل في نفسي، أو إلى تعمد.. كل ما هنالك أنني لاأؤمن بالمزج بين الشخصية والعمل.. ولعل هذا المزجَ عادة مألوفة، ولكنني أحبُّ أن أخرجَ على هذه العادة.. فإني إِخال أن الجمهور يضيق بالتفصيلات التي تُنشر عن الكاتب!".

يكره الإعلان عن شخصيته!

وسواء أكان "**شتاينبيك**" مخطئا أو كان مُصيبا فيما خاله من ضيق القراء بما يُنشر عن الكاتب، إلا أن هذا الظن اتّخذ عنده شكل اليقين، فظل أمينا له، لايخرجُ عنه، وعندما نال أول تكريم أدبي شبه رسمي، حين اختار "نادي كتاب الشهر"- وهو من أكبر الهيئات الأدبية في "**أمريكا**" - كتابه "**فئران ورجال**"، الذي نُشر في سنة ١٩٣٧، سُئل أن يوافي النادي بشيء عن تاريخ حياته وشخصيته، فكتب لوكيليه يقول: "لعلكما تعرفان مدى بغضي للمادة التي تنشر عن شخصي، فأرجو أن تنقلا عني هذا.. والواقع أنني أوُثر من المسؤول عن النشر أن يَقصُر حديثه على الكتاب ذاته.. وجلية الأمر، أنني لايمكن أن أُفْلح في تأليف الكتب إذا فُرض علي أن أعتد بنفسي وأُفكر فيها".

وكانت الفكرة التي تشبث بها هي أنه لن يَرضى عن نفسه، إلا إذا استطاع أن يطمئن إلى أن الجمهور عرفه من إنتاجه، وليس مما يُكتب أو يُذاع عنه!.. والواقع أنه كان مصيبا في رأيه هذا.. فإن الكاتبَ الذي يُصبح شخصية عامة، يفقد الكثير من مسلكه العادي، إذ إن الخوض في سيرته وحياته لايلبث أن يوحي إليه بأنه على غير شاكلة الناس الذين يقرءون له. ومن ثم يتباعد شيئا فشيئا عن قرائه، اعتدادا منه بأنه

من المؤلفين!" .. وهذا ما حرص "**شتاينبيك**" - وما يزال إلى اليوم يحرص - على تفاديه!

ومع ذلك ، فإن رواجَ مؤلفاته لم يلبث أن غيّر من معالم حياته بالفعل ، إذ تحسنت أحواله المادية ، حتى إنه كتب لوكيليه - اللذين صارا أقرب الأصدقاء إليه - يقول: " لشد ما صارت الحياة جميلة منذ أن ابتعتُ مدفأة تشعل بالكيروسين لغرفة مكتبي .. لقد تغيرت نظرتي إلى كل شيء تغيرا شاملا .. ألا ما أبدع اليدين الدافئتين!" .

آراء أبطاله ليست من تعاليم "الصالونات"!

على أن رواية "**تورتيلا فلات**" لم تكن أولَ رواج لإنتاج "**شتاينبيك**" في ميدان النشر فحسب ، بل إنها كانت كذلك أول اتصال بينه وبين "**هوليوود**" وميدان السينما، إذ ابُتيع منه حقُ إخراجها على الستار الفضي .. وكانت هذه من أكبر المفاجآت في حياته .. فقد كان ، كما وصف نفسه ، لايذهب إلى دار السينما سوى مرة في العام عادة!

ولقد أثارت رواية "**المعركة المشكوك فيها**"- التي نُشرت في سنة ١٩٣٧- كثيرا من المتاعب قبل أن تخرج إلى واجهات المكتبات .. فقد كانت - كما وصفها "**شتاينبيك**" أثناء انهماكه في تأليفها - "**كتابا قاسيا**"، لأنه خال من أية فكرة أو موعظة أخلاقية.. وقد يبدو الحوار بين العمال - في سياقه - مما يخْدش الآذان في النوادي النسائية الراقية ، ولكن هذا ليس بالمهم ، إذ إن النساء لن يُصَدِّقْن أن مثل هذا الحوار يجري في الواقع .. ولكنني خبير بهذا الأسلوب ، وقد مللتُ أن أجرد العمال من أسلوبهم الطبيعي لأجعلهم يتكلمون بأسلوب براق!" .

وعندما أبدى الناشر شكهّ من أن يكون في الكتاب ما يُؤخذ على أنه آراء شيوعية ، أجاب "**شتاينبيك**" قائلا: " إن ما تضمنه الكتاب إنما أُخذَ عن العمال "**الإيطاليين**" و"**الأيرلنديين**"،الذين اكتسبوا آراءهم من واقع الحياة والعمل .. فإذا كانت هذه

شيوعية، فهي شيوعية من صميم الحياة، وليست تعاليم تُلَقَّن في الصالونات .. "إنهم لايؤمنون بالمذاهب والآراء والأساليب المثالية ، لأنهم إنما يفعلون ما تدفعهم إليه الظروف التي يعيشون فيها!" .. وكان أشدَّ ما آلمه بعد نشرها ، أن النقاد تناولوها من الناحية السياسية لا الأدبية .. فقد ساءه ألا يفطن النقاد إلى القيمة الروائية للكِتَابِ ، وهي التي يعتز بها الكُتَّابُ!

"النرويج" .. مسرح "الثأر للوطن"

وأتاح نجاح كتاب "**فئران ورجال**" لـ"**شتاينبيك**" فرصة القيام بأول رحلة له إلى "**أوروبا**" ، وكان مَشوقا لزيارة الدول **السكندنافية** ، إذ كانت لغاتها هي اللغات الأجنبية التي تَرجم إليها إنتاجُه لأول مرة.

على أن قلبه لم يَعْلَق بأي من الدول **السكندنافية** بقدر ما علق بـ"**النرويج**" التي جعلها – بعد خمس سنوات– مسرحا لأولى القصص التي نقدمها لك في هذا العدد من "مطبوعات دار ميوزيك" .. وهي قصة "**غروب القمر**" أو "**الثأر للوطن**" ..

وبينما كان كتابه الجديد– "**الفرس الأحمر**" – تحت الطبع ، ترك "**شتاينبيك**" وزوجته الدول **السكندنافية** إلى "**روسيا**" ، ولكنهما لم يقضيا فيها المدة التي كانا يرجوانها ، بل بادرا بالعودة قبل الموعد المحدد إلى "**أمريكا**" ، حيث شرع الكاتب في إعداد مادة كتاب جديد، نُشر فيما بعد باسم "**كروم السخط**" .. فلقد عاش "**شتاينبيك**" في المزارع والمراعي أمدا طويلا منذ صباه ، فعرف الفاقة التي كان يعيش فيها أبناء الوديان القابعة بين الجبال في "**كاليفورنيا**" ، ولمس مرارة عيشهم ، وكتب إلى وكيليه يقول : " لابد لي من أن أسعى إلى الوديان الداخلية ، فهناك خمسة آلاف أسرة تَتَضَوَّر جوعا ، إلى درجة الموت .. وإن الحكومة لتحاول أن تعينهم بالأطعمة والخدمات الطبية، ولكن الهيئات الاستغلالية الفاشية والمصارف وكبار ملاك الأراضي الزراعية ، يحاربون هذه الجهود .. أفتعلمان ما الذي يُخيفهم ؟ .. إنهم يروْن أنه إذا أُتيح لهؤلاء الناس أن يعيشوا في

معسكرات تتوفر فيها كافة الضرورات الصحية ، فإنهم لن يلبثوا أن ينتظموا .. وهذا هو الشيء الذي يقُض مضاجع كبار ملاك الأراضي والشركات الزراعية!.. لسوف أبذل قصارى جهدي من أجلهم .. ألا ما أقلّ الكتب التي تواجه مثل هذه المآسي المفجعة !" .

وقام بجولته ، وبذل قصارى جهده كما وعد ، حتى إذا عاد إلى داره ، عكف على تأليف أقوى كتاب وضعه حتى ذلك الحين .. وهو "**كروم السخط**" ، الذي نُشر في سنة ١٩٣٩!

يَنقدُ نفسَه وإنتاجَه بمرارة!

ولكن ، ما أعجبَ الأحداث التي مرّت منذ بدأ "**شتاينبيك**" أول سطر في هذا الكتاب ، وبين اليوم الذي نشر فيه الكتاب!..

فبعد أن فرغ من الكتاب ، كتب لوكيليه يقول: " إنه كتاب رديء ، ولابد من أن أتخلص منه .. فلاسبيل إلى طبعه .. وترجع رداءته إلى أنه ليس أمينا!.. حقيقة أن الوقائع التي تضمّنها حدثت كلها ، ولكن .. ولكنني لم أُوردْ من الحقيقة عنها بقدر ما أعرف!" .

ويمضي "**شتاينبيك**" في الخطاب قائلا : " لقد وضعت حتى الآن ثلاثة كتب غير أمينة ، لأنها أقل من قصارى جهدي ، وأحد هذه الكتب لم ترياه، لأنني أحرقته في اليوم الذي فرغت فيه منه . أما الثاني فهو "**قصة الجريمة**" .. وهذا هو الثالث . ولقد انسقت إلى كتابة الأول والثاني لدفع ضيق مالي شديد، أما هذا الكتاب فانسقت في كتابته إلى التزام شعرت به!..

إنني أعرف أنكما قد تبيعان من هذا الكتاب ٣٠,٠٠٠ نسخة.

وأعرف أن عددا كبيرا جدا من الناس قد يَخالون – بعد قراءة هذا الكتاب – أنهم أحبوه .. ولقد ناقشت نفسي كثيرا ، ولكنني لاأُحِب الكتاب!.. ولسوف يَتأتى عن طبعه ضرر يفوق الضرر الذي ينجم عن إعدامه .. فأنا لم أشعر قط أثناء كتابته بتلك

المتعة الدافئة العجيبة التي تعتري المرءَ عندما يكون العمل سائرا على ما يرام . لقد كان حافزي على العمل منذ البداية هو حمل الناس على أن يفهم كل منهم الآخر ، فإذا بي أنزلق في وضع هذا الكتاب إلى حمل الناس على أن يكره كل منهم الآخر ، عن طريق التفاهمِ الناقِص !.. وما لم أستطع أن أكتب أفضل من هذا ، فإني أكون قد انحدرت بدرجة كبيرة!

.. إن الكتاب يجب أن يكون حياة تعيش أمدها بأكمله .. وهذا الكتاب لايفعل ذلك!" .

ثم يضرب "**شتاينبيك**" المثل للكتّاب الذين يقفون حائرين بين المادة والأمانة الأدبية، فيقول : " إنني أكافح الفقر سنوات طويلة عديدة ، ولكنني أكون ملعونا إذا هبطْتُ عن مستواي عند أول هبة من رياح النجاح !.. إن الهبوط عن المستوى شبيه بالإقدام على السرقة للمرة الأولى، فهو عسير محفوف بالمشقة ، ولكنه في المرة الثانية أقل عناء ، ثم لايلبث أن يغدو سهلا بعد قليل .. إن هذا الكتاب تجربة في الخداع..

والخداع في كتاب هو الغش والخيانة!" .

ويختتم خطابه قائلا : " أعتقد أن هذا الكتاب سيكون درسا نافعا لي. فأنا الآن في خطر من أن أصدق الدعاية التي تدور حولي .. إنني أدرى الناس بكتابي!" .

"كروم السخط" .. حدث بارز في تاريخ النشر!

وبدلا من أن يَصدر "**كروم السخط**" ، نُشر بدلا منه – في سنة ١٩٣٨– أول كتاب تضمن قصصا قصيرة ، غير مترابطة ، في مجموعة واحدة!

وعكف "**شتاينبيك**" على "**كروم السخط**" يُعيد كتابتها من جديد، فأرهق نفسه كل الإرهاق ، وكان خليقا بالنجاح الذي ظفر به .. فقد أثارتْ الرواية ضجة هائلة في "**الولايات المتحدة**"، تحسنت على أثرها أحوال سكان الخيام في وديان "**كاليفورنيا**"!.. بل لقد اعتُبر هذا الكتابُ من الأحداث البارزة في تاريخ النشر في "**أمريكا**" . ولكنه

خلّف "**شتاينبيك**" منهوك القوى ، معلولا ، فلم يسترد قواه ونشاطه إلا بعد شهور عديدة .. ولم يستطع أن يَجري على مألوف عادته ، فبدأ كتابا جديدا قبل ظهور آخر كتاب فرغ منه!

وثمة انقلاب آخر أحدثه هذا الكتاب في حياة "**شتاينبيك**" .. فلقد دفعه إلى تيار الشهرة على الرغم منه ، حتى لقد كتب يقول عن متاعبه :" لقد أصبحت في شغل بشهرتي ككاتب ، حتى إنني لم أعُدْ أجد وقتا للكتابة.. وكأنما طرح عشرةُ آلاف شخص كلَ أعمالهم وشؤونهم، لكي ينصرفوا إلى حملي على الكلام . وقد أخذ خوفي من الوجود بين جماعَاتِ من الناس يزداد إلى درجة أنني أصبحت أرتبك إذا تحدثتُ إلى أكثر من واحد!" <

وفي تلك الأثناء ، كانت الحرب تخيّم على سماء "**شتاينبيك**" ، كما كانت تخيّم على سماء العالم. وهكذا تضافرتْ العوامل على تعطيله عن الإنتاج ، وحاول في البداية أن يُقاوم ، ففر إلى "**المكسيك**" .. إذ نمى إليه أن عالما يدع "**إدوارد ريكتيس**" أعدّ رحلة إلى هناك للدراسة وجمع المعلومات ، فشاطره الرحلة وعاد من "**المكسيك**" بمادة لكتابين.. أولهما "**القرية المنسية**"، الذي نشر في سنة ١٩٤١، والذي اتخذته السينما المكسيكية مادة لأحد أفلامها الناجحة .. أما الكتاب الآخر ، فكان لونا جديدا من الإنتاج .. كان مادة علمية – عن دراسات بيولوجية تدور حول الكائنات الحية في "**المكسيك**" – صاغها في قالب قصصي مستساغ. وقد نُشر هذا الكتابُ في سنة ١٩٤٢ .

العدوان النازيّ .. أساس فكرة "الثأر للوطن"!

واتسعَ نطاقُ الحرب ، حتى انزلقتْ "**الولايات المتحدة**" إلى المعْمَعَة ،. وعرض "**شتاينبيك**" جهوده ومواهبه على الحكومة، فاستعانت به كثير من المصالح والهيئات الحكومية ، ولكنه صُدِم حين تبينّ الهوة الواسعة التي تفصل بين الحماس القومي والروتين الحكومي.

على أنه انتهز هذه الفرصة لكي يُسَجّل كراهيته للعدوان ، وانتصاره للحرية.. ولكي يواسي "**النرويج**" - التي [illegible] في سنة ١٩٣٧ - فقد قُدرٌ له أثناء عمله في إدارة الخدمات الاستراتيجية أن يصاحب أحد الضباط المتخصصين في فنون مساعدة حركات المقاومة في الدول الأوروبية التي احتلها النازيون .. ومن الأحاديث الجدية التي دارت بينه وبين هذا الضابط ، استطاع أن يُكَوِّن فكرة قصة "**غروب القمر**" ، حتى إذا تبلورت في ذهنه ، وتجمْعتْ لديه البيانات الكافية عن حركات المقاومة وأساليبها ، عكف على كتابة هذه الرواية ، فإذا بها تلقَى نجاحا مدويا عندما نشرها في سنة ١٩٤٢ وقد شجعه هذا النجاح على أن يقتبس من الرواية نفسها مسرحية من جزأين - بنفس الاسم- ظهرت في العام ذاته!

ومع انقضاء قرابة عِقدين من الزمان على نشر هذه الرواية لأول مرة، إلا أنها تعتبر من أروع وأدق ما كُتب عن المقاومة السرية للعدوان والاحتلال الأجنبي ، حتى اليوم، وقد تُرجمت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى عدة لغات ، مما أكسبها شهرة عالمية.

الساحر اللطيف .. الخشن!

كذلك خرج "**شتاينبيك**" من أحاديثه مع أحد قادة السلاح الجوي الأمريكي بفكرة

كتاب يدور حول تدريبات وأعمال السلاح الجوي ، أسماه "**قنابل إلى الخارج**" .، على أن من المغالطة أن يُدرج هذا الكتاب في قائمة الإنتاج الأدبي لـ"**شتاينبيك**" ، لأنه في الواقع لم يكن مادة أدبية بالمعنى الصحيح ، ولا كان نابعا عن تفاعلات صادقة ، وإنما .. كان نوعا من "**المقاولة**" عَهِدَ به السلاح الجوي الأمريكي لـ"**شتاينبيك**" ، فسخّر قلمه وفكره في إنجاز هذه "**المقاولة**" .. أو بمعنى أصح ، كانت مهمة كُلف بها رسميا ، فأداها إظهارا لشعوره القومي!

على أنه خاض تجربة أخرى أثناء الحرب، إذ أتيح له في سنة ١٩٤٣ أن يرحل إلى "**أوروبا**" مع بعثة أمريكية، فقام بُمهِمّة المراسل الحربيّ لصحيفة "**الهيرالد تريبيون**" في "**إنجلترا**" وحوض البحر الأبيض المتوسط .

وفي غمرة هذا النشاط الحربيّ راوده الحنين إلى الأدب ، وإلى تأليف الروايات .. واتجه حنينُه بوجه خاص إلى جو وأسلوب وطريقة "**تورتيلا فلات**" التي ألفها قبل ذلك بعشر سنوات ، فأخذ ينساق لهذا الحنين في صمت ، ثم فاجأ وكيليه في سنة ١٩٤٤ برواية "**كناري رو**" .. كما كتب "**لؤلؤة العالم**" للسينما المكسيكية التي أخرجتْها في فيلم في سنة ١٩٤٥ . وقد حاول "**شتاينبيك**" أن يحذو في "**اللؤلؤة**" حذو الأدب الشعبي التقليدي، على أنه خرج من هذه التجربة بعزم وثيق على ألا يكتب للسينما بعد ذلك!

ولقد تتابعت مؤلفاتُ "**شتاينبيك**" بعد ذلك ، ولكنها ليست بالوفرة التي تدفّق بها إنتاجُه في المرحلة التي فصلناها هنا.. كما أنها ليست من الأهمية بمثل تلك المؤلفات الأولى لا لأنها أقل منها قيمة – من الناحية الأدبية – وإنما لأن هذه المؤلفات الأولى كانت الدعامات الأساسية في مجد "**شتاينبيك**" .. كانت الإنتاجَ الذي جعل النقاد يصفونه بأنه: " نابغة ساحر في رواية القصص.. يجمع بين العنف والعاطفة، وبين اللطف والخشونة ، وبين الإزعاج والجمال " .. فهو يُجيد وصف كل لون ، ويمزج الألوان بعضها ببعض في قصصه ببراعة وعبقرية!

الفصل الأول

ما إن حلتْ الساعةُ الحادية عشرة إلا ربع حتى كان كل شيء قد انتهى ، فقد تم احتلال البلدة ، ومُنيَ المدافعون عنها بالهزيمة ، ووَضَعتْ الحرب أوزارها ، إذ كان الغازي قد أعدّ العدة لهذه الحملة بنفس العناية التي كان يبذلها للحملات الأكبر منها!

وكان مُوَزع البريد والشرطي قد خرجا لصيد السمك- في صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد- في قارب السيد "**كوريل**"، إذ كان صاحب المتجر المشهور قد أعارهما هذا القارب الأنيق ذا الشراع ليَقْضيا فيه يومهما . وما إن توغل موزعُ البريد والشرطي بضعة أميال في عَرْض البحر، حتى شاهدا ناقلة الجنود الصغيرة ، الداكنة اللون، تمر بهما في هدوء.. ولم يكن ثمة شك في أن هذا الأمر يعنيهما بوصفهما من موظفي المدينة، فبادرا إلى العودة . وما إن وصلا إلى الميناء ، حتى كانت الكتيبة قد استولت على البلدة في الواقع ، إلى حد أن موزع البريد والشرطي لم يستطيعا دخول مكتبيهما في مبنى البلدية، ولما أصرا على أن هذا من حقهما ، أُخِذا كأسيريْ حرب، وأُلْقِيَ بهما في سجن البلدة!

وكان الجنود المحليون الاثنا عشر غائبين جميعا في صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد ، إذ إن السيد "**كوريل**"، صاحب المتجر المشهور ، كان قد قدم الغداء ، و"الأهداف"، والخراطيش ، والجوائز ، هدية منه في مسابقة للرماية أقيمت في مرج جميل كان يمتلكه بين الجبال على مسيرة ستة أميال من البلدة . وكان الجنود المحليون من الشباب ذَوِي العزائم المتراخية! ومع أنهم أسرعوا في خُطَى حثيثة ، عائدين إلى البلدة ، بمجرد أن سمعوا أزيز الطائرات ، وشاهدوا على البعد هبوط جنود المظلات ، إلا أنهم لم يصلوا حتى كان الغزاة قد نصبوا المدافع الرشاشة على جانبي الطريق . ولم يكن لهؤلاء الجنود سوى خبرة ضئيلة بالحروب ، كما أنهم لم يكونوا قد عرفوا الهزيمة من قبل ، فبدءوا بإطلاق النار من بنادقهم وأجابتهم المدافع الرشاشة ، فإن هي إلا لحظة ، حتى سقط ستة منهم صرعى، وأصيب ثلاثة منهم بجراح خطيرة جعلتهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة ، ثم فر الثلاثة الباقون إلى الجبال يحملون بنادقهم!

وما إن حانت السّاعةُ العاشرةُ والنصف حتى كانت فرقة الغزاة الموسيقية تعزف ألحانا عاطفية شجيّة في ميدان البلدة ، بينما وقف أهلها مشدوهين ، وقد نطقتْ عيونهم بالدهشة، وأخذوا يُنْصِتون إلى الموسيقى ويُحَدِّقون النظر في الرجال ذوي الخَوْذات الرمادية الذين كانوا يَحْملون البنادق السريعة الطلقات .

وفي الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين، كان الجنود الستة الذين سقطوا صرعى قد دُفِنُوا ، وطُويت المظلات ، واتخذت الكتيبة الغازية مقامها في مستودع السيد "**كوريل**" بجانب رصيف الميناء ، وقد زودت رفوفه بالأسرة والبطاطين التي تكفي أفرادها .

وفي الساعة الحادية عشرة إلا ربعا تلقَّى "أوردن" – العمدة المسن – طلبا رسميا ليسمح للكولونيل" "**لانسر**" ، من فرقة الغزاة ، بمقابلته ، وقد حُددتْ المقابلة في الساعة الحادية عشرة تماما بقصر العمدة ذي خمسِ الغرف .

وكانت غرفة الاستقبال في القصر آيةً في البهاء ، إذ اجتمعت فيها كل أسباب الراحة، وتناثرت مقاعدها المذهبة– المكسوة بأغطية "بياضات" بالية – في غير ترتيب ، كأنها خدم يزيدون كثيرا عن حاجة العمل في بيت ولايجدون ما يفعلون !.. وكانت ثمة مدفأة مقوسة من الرخام اشتملت على موقد استعَرتْ فيه نار هادئة لاتصعُد لهبا، وصورة رُسِمت باليد تمثل حامل الفحم وعلى رف المدفأة استقرت ساعة من الخزف المجعّد، تحيط بها آنيتان ضخمتان للزهور ، وامتلأتْ جوانبهما برسوم لملائكة على وشك السقوط !.. وكان ورق الجدران أحمر داكنا ، وقد اشتمل على أشكال ذهبية ، بينما بدا الإطار الخشبي – الممتد في أسفل الجدارن– نظيفا بهيجا . أما الصّور التي عُلِّقَتْ إلى الحائط ، فكان معظمها يمثل مناظرَ رائعة لبطولة الكلاب الكبيرة في إنقاذ أطفال حَاقَ بهم الخطر . فما كان الماءَ ولا النارُ ولا الزلازلُ لتنالَ من أي طفل طالما كان إلى جواره كلبُ كبير يحرسه!

وجلس إلى جوار المدفأة الطبيب الشيخ الدكتور "**وينتر**" . وكان رجلا مُلْتَحيا ، يتسّم بسلامة الطويَّة ودَمَاثة الخلق.. وكان مؤرخ البلدة . إلى جانب كونه طبيبها ،

فكان يرقب ما حوله وقد أخذت منه الدهشة مأخذها ، وراح يُدِير إبهاميه – الواحد حول الآخر – وهو يضع يديه في حجره. وكان الدكتور "**وينتر**" بَادي البساطة ، وإن كان لايُدْرِك عمق غوْره سوى من أُوتي ما أوتيه الطبيبُ الشيخ من بعد الغَوْر.. وما لبث أن رفع بصره إلى "**جوزيف**" – خادم العمدة– ليرى ما إذا كان قد لاحظ ما كان يفعله من عجائب باللّعب بإبهاميه. ثم سأله: " : هل بلغت الساعة الحادية عشرة؟" . فأجاب "**جوزيف**" وهو شارد الذهن : " أجل ياسيدي فقد حدَّدتْ الرّسالة السّاعة الحادية عشرة" .

– وهل قرأتَ الرسالة؟

– كلا ياسيدي ، فقد قرأها لي صاحب السعادة!

وأخذ "**جوزيف**" يطوف بالمقاعد المذهَّبة ليرى ما إذا كانت قد انتقلتْ من موضعها منذ رتبّها لآخر مرة ، وكان من عادة "**جوزيف**" أن يزجُرَ الأثاثَ مُتّهما بعض القطع بالتمرد ، أو بالفوضى ، أو بالقذارة إذا ما كانت مُتْرِبة! وفي العالم الذي يقودُ فيه العمدةُ "**أوردن**" الرجال، كان "**جوزيف**" هو قائد الأثاث والأواني الفضية والصِّحَاف ، وكان رجلا متقدما في السن ، نحيفا هزيلا ، تعلو محَيَّاه سِيمَاء الجد، وكانت حياته مُعَقدة في ظاهرها ، بسيطة في جوهرها .. على أنه لم يكن يدرك بساطته هذه سوى رجل بعيدِ الغور.

ولم يرَ "**جوزيف**" ما يدعو إلى العجب فيما كان يفعله الدكتور "**وينتر**" من إدارة إبهاميه، بل الواقع أن هذه الحركة كانت مدعاةً لإثارة أعصابه .. فقد أوحت إليه هذه الحركة بأن حدثا بالغ الشأن كان وشيك الحدوث ، ويُنْبئ ببوادره وجود الجنود الأجانب في البلدة ، وقتل بعض رجال الجيش المحلي ووقوع البعض الآخر منهم في الأسر .. وكان لابد لـ"**جوزيف**" – إن عاجلا أو آجلا – من أن يستقرّ على رأي فيما يتصل بهذا كله!.. وما كان ليجب أن يوصف بالخفة والطيش ، ولا أن يلهو ويعبث بإبهاميه ، ولا أن يُنْصت لهذه الثرثرة التي كان يخالها منبعثة من الأثاث !

*****

وأزاح الدكتور "**وينتر**" مقعده بضع بوصات عن مكانه المعين ، فانتظر "**جوزيف**" – على أحرّ من الجمر – اللحظة التي يستطيع أن يعيد فيها المقعد إلى مكانه الأول!.. وما لبث الطبيب أن عاد يقول: " الساعة الحادية عشرة ، وسيأتون هم أيضا إلى هنا. إنهم لقوم أوتوا عقولا في دقة الساعة يا"**جوزيف**" !.

وأجاب "**جوزيف**" دون أن يُنْصت : " أجل ياسيدي" .

فكرر الطبيب قوله : " قومٌ لهم عقولٌ في دِقَّة الساعة!" .

وقال "**جوزيف**" : " أجل ياسيدي " .

فأردف الطبيب وكأنه ماضٍ في حديثه : " أجل في دقة الساعة والآلات!" .

– أجل ياسيدي.

– إنهم يُسْرعون الخطى إلى مصيرهم ، وكان هذا المصير متعجِّلا لاينتظرهم . إنهم ليدفعون عجلة الدنيا الدّوارة بأكتافهم ، وكأنهم هم الذين يُسيّرونها!

وأجاب "**جوزيف**" قائلا: " أصبت تماما ياسيدي". إذ كان قد بدأ يسأم قوله: " أجل ياسيدي" !

ولم يكن "**جوزيف**" ليوافق على هذا اللون من الحديث ، لأنه لم يكن يساعده على أن يستقر على رأي في شيء مما كان يدور حوله !.. ولو أن "**جوزيف**" قال للطاهية في أي وقت من بقية ذلك اليوم: " إنهم لقوم أُوتُوا عقولا في دقة الساعة يا "**آنـي**". لما استطاع أن يجعل لحديثه أي معنى ، لأن "**آنـي**" كانت خليقة بأن تسأله : " مَن ؟" . ثم: " لماذا؟" . حتى إذا عجز عن إجابتها قالت : " هذا هِرَاء يا"**جوزيف**" " !.. فلقد حاول "**جوزيف**" في مناسبات سابقة أن ينقل ملاحظات الدكتور "**وينتر**" إلى الطابق الأسفل، فكانت النتيجة هِيَ هي في كل مرة، إذ كانت "**آني**" تكتشف دائما أن هذه الملاحظات هراء وهَذْر!

ورفع الدكتور "**وينتر**" بصره عن إبهاميه وأخذ يراقب "**جوزيف**" وهو يرتب المقاعد، ثم سأله قائلا : " ماذا يفعل العمدة؟" .

– إنه يرتدي ملابسه لاستقبال الكولونيل ياسيدي!

– دون أن تساعده؟.. إنه لايحُسن ارتداء ملابسه إذا تُرك وشأنه!

– بل إن سيدتي تساعده ، فهي تريد أن يظهر في أحس مظهر له !

ثم أردف يقول وقد كستْ حُمْرة الخجل خديه قليلا :

"إنها تقص الشعر الذي يظهر في داخل أذنيه ياسيدي..

إِنه يشعر بدَغْدغة من لمس المقص ، ولذلك لايسمح لي سيدي بقصه!" .

فأجاب الدكتور "**وينتر**" بقوله : " طبعا.. إن لمسات المقص تُدَغْدغ!" .

واسترسل "**جوزيف**" يقول :"إن سيدتي تُصر على أن تَقُص هي هذا الشعر" .

وضحك الدكتور "**وينتر**" على حين بغتة ، ثم انتصب واقفا ومدّ يديه إلى النار ، ودار "**جوزيف**" بمهارة حتى صار خلفه ، ثم أعاد المقعد إلى المكان الذي يجب أن يُوضَع فيه!

وقال الدكتور "**وينتر**" : " إننا لغاية في العجب ، فإن بلادنا على وشك السقوط ، وقد تم غزو بلدتنا ، والعمدة يتأهب لاستقبال الغازي ، ومع ذلك فإن السيدة تمسك العمدة من عنقه وهو يناضلها ، لتقص له شعر أذنيه!" .

وأجاب "**جوزيف**" قائلا : " لقد بدأ شعره يتخذ سِمَة الشعر الكَثّ الأشعث ، وكذلك حاجباه .. وإن صاحب السعادة ليُزعجه قصٌّ شعر حاجبيه أكثر مما يزعجه قص شعر أذنيه ، وهو يقول: إن العملية تؤلمه ، ويُخَالجني الشك فيما إذا كانت سيدتي مستطيعة أن تقص له شعر حاجبيه!

فقال الدكتور "**وينتر**" ." إنها ستحاول" .

– إنها تريده أن يظهر في أحسن مظهر ياسيدي!

*****

ولمحا إذ ذاك وجها – تعلوه خوذة – يحدق خلال الكُوَّة الزجاجية التي تتوسط الباب الداخلي للدار ، ثم دوّت على ذلك الباب طرقات ، فكأنما انساب من الغرفة شيءٌ من

الضوء الدافئ ، لتحل محله عَتْمة خفيفة! وتطلع الدكتور "**وينتر**" إلى الساعة ثم قال: "لقد جاءوا مبكرين .. افتح لهم الباب يا"**جوزيف**" ! " .

وذهب "**جوزيف**" إلى الباب وفتحه ، فدخل جندي يرتدي معطفا طويلا، وقد وضع خوذة على رأسه ، وحمل بندقية سريعة الطلقات على كتفه، وألقى الجندي نظرة عاجلة فيما حوله ، ثم انتحى جانبا ليفسح الطريق لضابط كان يقف خلفه على عتبة الباب . وكان الضابط في الزي العسكري المألوف ، وليس ثمة ما ينِمَ عن مرتبته سوى شارةٍ على كتفيه.

ودَلَف الضابط إلى الداخل ، فنظر إلى الدكتور "**وينتر**" .. وكان أشبه بصورة لسيد إنجليزي ،بَالَغَ الرَّسَّام في رَسْمِها..

إذ كان له وجه أحمر مترهّل ، وأنف طويل ولكنه مقبول، وقد بدا عليه أنه كان يضيق ذرعا بزيه ، شأنه في هذا شأن معظم الضباط البريطانيين ! ومكث لحظة لدى الباب يُحَملق في الدكتور "**وينتر**" ، ثم سأله قائلا: " هل أنت العمدة "**أوردن**" ياسيدي؟" .

فابتسم الدكتور "**وينتر**" وأجاب قائلا: " كلا ، كلا ، لست أنا العمدة!"

– أفأنت إذن من رجال الحكومة؟

– كلا .. بل إنني طبيب البلدة وصديق العمدة!

فسأله الضابط : " وأين العمدة "**أوردن**" ؟" .

– إنه يرتدي ملابسه لاستقبالك ، . هل أنت الكولونيل ؟

– كلا.. بل أنا الكابتن "**بنتيك**" !

وانحنى ، فرد الدكتور "**وينتر**" تحيته بانحناءة خفيفة.

واسترسل الكابتن "**بنتيك**" يقول ، وكأنه أحس بخجل مما كان لديه من حديث :

" إن أوامرنا العسكرية ياسيدي تَقْتضينا البحثَ عن الأسلحة في أية غرفة يوشك أن يدخلها القائد العام . ونحن لانقصد بهذا إساءة أو امتهانا ياسيدي!" . ثم نادى من فوق كتفه : " أيها الجاويش" !"

فهرع الجاويش إلى "**جوزيف**" ، ومرَّ بيديه فوق جيوبه ، وقال : " لاشيء ياسيدي"
ثم قال الكابتن "**بنتيك**" للدكتور "**وينتر**" أرجو ألا تؤاخذانا!" .

واتجه الجاويش إلى الدكتور "**وينتر**" فتحسَّسَ جيوبه ، وتوقفت يداه عند جيب السترة الداخلي ، وسرعان ما دس يده في الجيب وأخرج علبة صغيرة مسطحة من الجلد الأسود حملها إلى الكابتن "**بنتيك**" . وفتح الكابتن "**بنتيك**" العلبة فوجدها تشتمل على بعض الأدوات الطبية البسيطة : مشرطين وبعض الإبر الجراحية، وبعض المشابك ، وإبرة لحقنة تحت الجلد فأغلق العلبة ثانية وردها إلى الدكتور "**وينتر**" فقال هذا :

– إنني طبيب أعمل في الريف كما ترى ، وقد اضطررْتُ مرة إلى استئصال الزائدة الدودية باستعمال سكيّن من سكاكين المطبخ ، ولذلك فإنني أحرص منذ ذلك الحين على أن أحمل في جيبي هذه الأدوات!

وسأله الكابتن" **بنتيك**" :" أعتقد أنه توجد هنا بعض الأسلحة !" . وفتح دفترا مُجَلدا صغيرا كان يحمله في جيبه .

فأجاب الدكتور "**وينتر**" قائلا :" إنك لدقيق" .

– أجل ، فإن عميلنا المحلي قَضَى في العمل هنا بعض الوقت!

وقال الدكتور "**وينتر**" :" ما أظنك ترضى بأن تخبرني عمن يكون هذا الرجل؟" .

وأجابه "**بنتيك**" قائلا :" بل إنه أنجز مُهِمَّته تماما الآن. ولاأحسب أن في إفشاء اسمه أي ضرر . . إن اسمه "**كوريل**" !" .

فقال الدكتور "**وينتر**" وقد استبدَّتْ به الدّهشةُ :" **جورج كوريل**" ؟ . . إن هذا ليبدو مستحيلا ! فله أَيادٍ بيضاء على هذه البلدة ، بل إنه منَحَ بعض الجوائز لمسابقة في الرماية في الجبل هذا الصباح " . وما إن تفوَّهَ بهذه العبارة حتى بدا في عينيه وميض نمّ عن أنه أدرك حقيقة ما حدث، فانطبقتْ شفتاه رويدا ولكنه ما لبث أن قال :" لقد فهِمْتُ! . . لهذا ، إذن، أقام مسابقة الرماية . أجل فهمت! ولكن. . "**جورج كوريل**" بالذات! . . إن هذا ليبدو مستحيلا !" .

وفُتِح الباب الذي يقع إلى اليسار ، فدخل العمدة "**أوردن**" . وكان يدسّ خِنْصره في أذنه اليمنى ، وقد ارتدى سترته الرسمية ، وتدلَّتْ من عنقه قلادة العمودية.. وكان ذا شارب أبيض كبير انتفش فوق شفته العليا، وحاجبين أقل منه كثافة فوق عينيه . وكان قد سوَّى شعره الأبيض بالفرشاة منذ برهة وجيزة ، ولكن بعض شعيرات رأسه بدأت في التحرر مُحَاولة أن تنتصب !.. وكان قد قضى في منصبه زمنا طويلاحتى أصبح في نظر أهل البلدة رمزا للعمودية ،.. بل إن الكبار منهم كانوا لايتمالكون أن يتمثلوا شكل العمدة" **أوردن**" إذا ما وقعتْ أبصارهم على كلمة "**عمدة**" ! فقد كان هو ومنصبه شيئا واحدا .. إذ أكْسبه المنصب الاحترام بينما أضفى هو على المنصب الدفء والحرارة!

وظهرت ربة القصر خلف العمدة . وكانت ضئيلةَ الجسم، مُجَعّدة الوجه ، تبدو الشراسَةُ على مُحَيَّاها .. فقد كانت تعتبر أنها خلقَتْ هذا الرجل ، بل إنها هي التي ابتكرتْه ابتكارا!

ولو أن الأمر كان بيدها، لتولت صُنعه من جديد!.. ومع أنها لم تستطع طِوال حياتها معه أن تفهم نفسيته سوى مرة أو اثنتين ، إلا أنهااستوعبتْ ما عرفته تمام الاستيعاب، وأصبحت تدركه عن خبرة دقيقة ، فلم يكن يفوتها عزوفه عن الطعام أحيانا ، وما كان يحس به من ألم أو ينتابه من دناءة !

على أنها لم تُدْرك قط أية فكرة أو أُمْنية أو رغبة راودتْهُ يوما.. ومع ذلك فقد لقيت منه ما أسعدها في كثير من المناسبات!

✽✽✽✽✽

وبرزت السيدة من وراء العمدة ، فأخذتْ بيده، وانتزعت خِنْصره من أذنه الموجوعة – كما لو كان طفلا تنتزِعُ أمه إبهَامه من فمه !– ثم قالت له: " لا أصدق لحظة أن أذنك تُؤلمك كل هذا الألم الذي تزعمه !" . والتفتت إلى دكتور "**وينتر**" وقالت: " لم يدعْني أُصْلح من شأن حاجبيه!" .

فأجاب العمدة "**أوردن**" قائلا: " إن هذه العملية تؤلمني!" .

– حسنا جدا ، إذا كنت تريد أن تبدو في هذا المظهر، فلا حيلة لي ! " .

وأخذت تُسوّي ربطة عنقه التي لم تكن في حاجة إلى تسوية ، ثم قالت : " يسعدني أنك هنا يادكتور ، كم سيأتي فيما تظن؟" . ثم تطلعتْ فرأت الكابتن "**بنتيك**" ، فقالت : " آه .. الكولونيل " ؟" .

فأجابها الكابتن" **بنتيك**" قائلا : " كلا ياسيدتي ، إنما أُعِد العدة لاستقبال الكولونيل . .أيها الجاويش" ! " .

وهَرَع الجاويش الذي كان يُقلّب الوسادات ويفتش خلف الصور، فاقترب من العمدة "**أوردن**" ومر بيديه على جيوبه، بينما قال الكابتن "**بنتيك**" :"عفوا ياسيدي ، ولكنها الأوامر! " .

.. ثم رمق الدفتر الذي كان في يده مرة أخرى وقال: " أعتقد أن لديك هنا بعض الأسلحة النارية ياصاحب السعادة قطعتان فيما أظن؟" .

فأجابه العمدة "**أوردن**" قائلا: " أسلحة نارية ؟.. لعلك تقصد البندقيتين .. أجل عندي بندقية رش وبندقية صيد ، ثم أردف يقول في لهجة غلب عليها الضعف : " لم أَعُد أصيد كثيرا الآن .. إنني أفكر دائما في الخروج للصّيد ، ثم يبدأ الموسم فلا أخرج.. لم يعد الصيد يطيب لي كما كان يطيب لي من قبل! " .

وألحف الكابتن "**بنتيك**" في السؤال قائلا: " وأين تُوجَد هاتان البندقيتان ياصاحب السعادة؟" . فتحسّس العمدة خده محاولا أن يتذكر : " أعتقد.. " ، ثم التفت إلى زوجته متسائلا: " ألم تكونا خلف ذلك الدولاب بغرفة النوم مع عصيّ السير؟" .

وأجابته السيدة قائلة :"أجل ، وكل قطعة من قطع الملابس الموضوعة في ذلك الدولاب تفوح منها الآن رائحة الزيت! ليتكَ وضعتَهُمَا في مكان آخر! " .

ونادى الكابتن" **بنتيك**" يقول: " أيها الجاويش!" فأسرع الجاويش إلى غرفة النوم.. بينما قال الكابتن: " إنني لآسف فهو واجب ثقيل!" .. وما لبث الجاويش أن عاد وهو يحمل بندقية رش ذات ماسورتين ، وبندقية صيد جميلة تعلق على الكتف ، فأسندهما إلى جوار الباب الخارجي.

وقال الكابتن "**بنتيك**" : " بهذا تنتهي مهمتي .. شكرا لك يا صاحب السعادة ، وشكرا ياسيدتي " . ثم استدار في انحناءة خفيفة للدكتور "**وينتر**" وقال :؛ شكرا يادكتور ، إن الكولونيل لن يلبث أن يَفِد ، طاب صباحكم!" .. واتجه إلى الباب الخارجيّ وفي أعقابه الجاويش يحمل البندقيتين بإحدى يديه ، ويعلق بندقيته السريعة الطلقات على كتفه الأيمن.

وقالت السيدة :"ظننْتُ أنه الكولونيل، وإنه لشاب وسيم!" .

فقال الدكتور "**وينتر**" في تهكم واستخفاف : " كلا، ولكنه كان يحمي الكولونيل!" .

وكانت السيدة تحدث نفسها قائلة: " تُرَى كم من الضباط سيأتون ؟" ، ثم نظرتْ إلى "**جوزيف**" فرأت أنه يتسمَّعُ الحديث في غير خجل أو حياء ، فهزت له رأسها وقطّبتْ حاجبيها.

وإذ ذاك عاد لفوره إلى ما كان يؤديه من أعمال صغيرة ، وشرع ينفض الغبار عن قطع الأثاث كلها.

وتساءلت السيدة: " ترُى كم منهم سيأتي ؟" .. فجذب الدكتور"**وينتر**" مقعدا بعنف ، وجلس ثانية وهو يقول: " لست أدري" .

فأجابت السيدة بقولها: " حسنا" ، ثم عبست في وجه "**جوزيف**" وأردفت تقول: " لقد كنانتحدث في الأمر .. ترى هل نقدم لهم الشاي أم الشراب؟ .. وإذا فعلنا فلست أدري كم سيكون عددهم ، وإذا لم نقدم لهم شيئا فماذا عسانا نصنع؟ .

وهز الدكتور "**وينتر**"رأسه مبتسما وقال :

– لست أدري فلم يغز بلادنَا أحد ، ولم نغز بلاد أحد منذ زمن طويل ، ومن ثم فلست أعرف ما الذي يليق بنا أن نفعله!" .

وعاد العمدة "**أوردن**" بأصبعه إلى أذنه التي كانت تضايقه وقال : –"حسنا ، لا أظن أنه يليق بنا أن نُقدِّمَ لهم شيئا فلا أعتقد أن هذا سيرُوقُ لقومنا .. إنني لاأحب أن أشرب شيئا معهم وإن لم أدر سببا لذلك!"

واستنجدت السيدة بالطبيب عندئذ قائلة له:

-ألم يكن الناس فيما مضى – أقصد القادة – يُحَيي كل منهم الآخر بشرب كأس من الشراب؟".

فأومأ الدكتور "**وينتر**" برأسه وهو يقول:" أجل ، كانوا يفعلون هذا" ثم هز رأسه ببطء وقال :" ربما كانت الحال تختلف الآن ، فقد كان مَسْلَك الملوك والأمراء في الحروب كمسلك السادة الإنجليز في الصيد .. إذا ما اطمأنوا إلى موت الثعلب ، واجتمعوا حول مائدة الإِفطار بعد الصيد! ولكن لعل العمدة "**أوردن**" على حق، فقد لايرضى الشعب عن تناوله الشراب مع الغازي".

وقالت السيدة :" إن الشعب يُنْصت إلى الموسيقى .. لقد قالت لي "**آني**" هذا .. فإذا كان أهل البلدة يفعلون هذا فلماذا لانُحَيي نحن العادات التي اصطلحَتْ عليها الحضارة؟!".

وأَمْعن العمدة النظر فيها برهة ، ثم قال لها في لهجة حادة –"أَسْتَميحك عفوا ياسيدتي إذا كنا لانُقدم الشراب ، فإن الشعب تتملكهُ الحيرْةُ الآن .. لقد عاش في سلام طويل حتى إنه لايصدق أنه في حالة حرب الآن ، ولن يلبث أن يدرك الحقيقة فتزولُ هذه الحيرة التي تتملكه ، إنهم لم ينتخبوني ليظلوا في حيرة من أمرهم !.. لا، ليس من رأيي أن نُقيم حفلة إفطار بعد الصيد .. ألم يصيدوا ستة من رجالنا هذا الصباح ؟.. إن الناس لايخوضون غِمَار الحروب للرياضة!".

وانحنتْ السيدة انحناءَةً خفيفة .. كان من عادة زوجها في بعض المناسبات أن يتخِذَ صفة العمدة ، وأن يملأ مركزه حقا، وقد تعلمت ألا تخلط بين العمدة وبين زوجها!

*****

ونظر العمدة "**أوردن**" إلى ساعته ، بينما أقبل "**جوزيف**" يحمل قدحا صغيرا من القهوة "السادة" ، فتناوله منه وهو شارد الذهن، وقال له وهو يرتشف منه :" شكرا لك"، ثم التفت إلى الدكتور "**وينتر**" وهو يقول معتذرا :" يجب أن يكون رأيي

واضحا، يجب أن .. أعرفْتَ كم عدد فرقة الغُزَاة؟" .

فأجابه الطبيب بقوله : " ليسوا كثيرين ، ولاأعتقد أن عددهم يزيد على مائتين وخمسين ، ولكنهم جميعا يحملون تلك البنادق السريعة الطلقات !" .

ورشف العمدة رشفة أخرى من قدحه ، وبدا حديثا جديدا ، إذ قال : -"وماذا حدث في باقِي أنحاءِ البلاد؟" ..

فرفع الطبيب كتفيه ثم خفضهما ثانية .

واسترسل العمدة يقول في لهجة اليائس : " ألم تكن ثَمَّةَ مُقَاومة في أية جهة من الجهات؟" .

وعاد الطبيب يرفع كتفيه وهو يقول: " لاأعلم .. فقد قُطعتْ الأسلاك أو استولى عليها الغزاة ، وانقطعت الأخبار" .

- وشبابنا ؟ وجنودنا؟

فأجاب الطبيب قائلا : " لست أعرف عنهم شيئا" .وقطع "**جوزيف**" عليهما الحديث: " سمعْتُ .. أقصد "**آني**" سمعَتْ.. "

- ماذا يا "جوزيف" ؟

- لقد قُتِل ستةُ رجال ياسيدي بالمدافع الرشاشة وسمعَتْ "**آني**" أن ثلاثة آخرين جُرحوا ووقعوا في الأسر.

- ولكن عدد الجنود كان اثني عشر.

- سمعت "**آني**" أن ثلاثة ولَّوْا الأدبار!

والتفت العمدة بشدة وهو يسأل : " من أولئك الثلاثة الذين هربوا؟" .

- لست أدري ، فإن "**آني**" لم تسمَعْ عن هذا شيئا .

وأخذت السيدة تمر بأصبعها على المنضدة لتتحقق من أنه لايعْلَقُ بها شيءٌ من الغبار، ثم قالت : " عليك أن تلزمَ الجرَسَ يا "**جوزيف**" عندما يأتون ، فقد نحتاج إلى بعض أشياء بسيطة .. وعليك أن ترتدي سُتْرتك الأخرى يا "**جوزيف**" .. السُّترةُ ذاتُ الأزرار ، ثم فكرت لحظة واستطردت تقول:

–وعندما تنجز ما يطلب إليك إنْجازه يا "**جـوزيف**" ، يجب أن تُبارح الغرفة ، فإنه لما يُسِيء إلى سمعتك وقوفك دون عمل تُنْصت إلى الحديث.. إن هذا من شيمَةِ أهل الريف وحدهم!" .

– وأجاب "**جوزيف**" قائلا : " سمعا وطاعة ياسيدتي " .

– لن نُقَدم الشراب يا "**جوزيف**" ، ولكن حَرِيٌّ بك أن تضع بعض السجائر في هذه العلبة الفضية الصغيرة ، ولا تحكَّ عودُ الثقاب على حذائك لتُشْعل سيجارة الكولونيل بل حكه على علبة الثقاب!" .

– سمعا وطاعة ياسيدتي .

وفك العمدة "**أوردن**" أزرار سُتْرته ، فأخرج ساعته ونظر فيها ، ثم أعادها إلى جيبه وأحكم أزرار سترته ثانية . ولكنه أخطأ فوضع الزر الثاني في العروة الأولى، فاتجهتْ إليه السيدة وأصلحت من وضع سترته.

وتساءل الدكتور "**وينتر**" : " كم الساعة؟" .

– الحادية عشرة إلا خمس دقائق.

– إنهم قوم في دقة الساعة !.. سيكونون هنا في الموعد الذي حددوه ، أتريد مني أن أرحل؟

فلاح الفزع على العمدة "**أوردن**" وقال : " ترحل ؟ كلا.. ، بل ابْقَ !" ، ثم ضحك وأردف في لهجة غلب عليها الاعتذار : " إنني أشعر بشيء من الخوف .. لا ليس الخوف وإنما هو الانفعال ينالُ مني مَناله!" . ثم استطرد يقول في عجز ويأس : " لم يغْزنا أحد منذ زمن طويل!.. " ، وتوقف عن الكلام مُنْصتا ، فقد كان الهواء يحمل من بعيد صوت الفرقة الموسيقية وهي تعزف لحنا عسكريا . وأرهفوا جميعا أسماعهم صوْبَ مصدر الصوت في إصغاء تام!

*****

وما لبثت السيدة أن قالت : " ها هم أولاء قادمون أرجو ألا يكون عددهم كبيرا جدا،

ولعلهم لايأتون جميعا دفعة واحدة فتضيق بهم الغرفة ، وهي ليست غاية في الاتساع" .

فقال الدكتور "**وينتر**" ولهجته تَنِم عن التهكم :" ....أتفضل سيدتي قاعة المرايا في قصر"**فرساي**" ؟" .، فعضت على شفتيها، ونظرتْ حولها وهي تتخيل وضْعَ الغزاة ، ثم قالت ؛ "إنها لغرفة صغيرة جدا " . وارتفع صوت الموسيقى ، ثم أخذ يَخْفُت .. وطرقت البابَ الخارجي يدٌ حرصت على أن تكون رقيقة ، فقالت السيدة:" ترى من يكون هذا ؟ قل للطارق يا"**جوزيف**" أن يعود فيما بعد، فنحن مشغولون جدا" .وعاد الطرْقُ من جديد ، فذهب "**جوزيف**" إلى الباب وفتحه في تحفظ ثم فتحه أكثر من ذي قبل ، فظهر جندي في لباس رمادي وقد علت الخوذة رأسه وكسا القفاز يديه!.. وقال الجندي :"أحمل إليكم تحيات الكولونيل "**لانسر**"، وإن الكولونيل ليلتمس مقابلة صاحب السعادة" .

وإذ ذاك فَتَح "**جوزيف**" الباب على مِصْراعيْه فدخل الجندي لابس الخوذة ، وسار إلى الغرفة فألقى نظرة عاجلة في أرجائها، ثم انتحى جانبا ، ونادى معلنا:" الكولونيل" **لانسر**" !" .

ودخل شخص آخر يلبس الخوذة أيضا، وتَنِمّ الشاراتُ التي على كتفيه عن أنه "الكولونيل" المرتَقَب . ثم أقبل خلفه رجل يميل إلى القصر ، ويرتدي حلّة سوداء على غرار رجال الأعمال . وكان الكولونيل رجلا متوسط العمر، أشيب الشعر، صَعْب المِرَاس، تبدو على ملامحه علامات التعب . وكانت له كتفا الجندي العريضتان ، ولكن عينيه لم تكونا كعيون العسكريين.. ذات النظرات الفارغة! أما الرجل الذي جاء معه فكان أصلع الرأس ، أحمر الخدين ، له عينان سوداوان صغيرتان، وفم يَنِم عن الشهوة العارمة !

وخلع الكولونيل "**لانسر**" خوذته ، وقال وهو ينحني انحناءة سريعة:" ياصاحب السعادة!" ، ثم انحنى للسيدة قائلا:" "سيدتي !" ، وقال :" أغلق الباب من فضلك أيها الجندي " . فأسرع "**جوزيف**" إلى غلق الباب، وهو يرمُقُ الجندي وكأنه يزهو بهذا النصر الصغير.. فقد كان إغلاق الباب من مهامه هو ، لا من مهام "الجندي " ! وتطلع الكولونيل" **لانسر**" إلى الطبيب متسائلا ، فقال العمدة "**أوردن**" : –"هذا هو الدكتور

"**وينتر**" .

فسأله الكولونيل: " أهو موظف؟" .

- إنه طبيب ياسيدي ، ولعلني لاأخطئ جادة الصواب إذا قلت إنه مؤرخنا المحلي .

فانحنى "**لانسر**" انحناءَةً خفيفة وقال: " إنني لاأقصد أن أكون وقحا يادكتور "**وينتر**" ، ولكن ربما أُضيفت إلى تاريخكم صفحة . . " .

فابتسم الدكتور "**وينتر**" وقال : " ربما أضيفَتْ إليه صفحات كثيرة" .

والتفت الكولونيل "**لانسر**" قليلا إلى رفيقه ، وقال : " أعتقد أنكم تعرفون السيد "**كوريل**" ؟" .

فأجاب العمدة: "**جورج كوريل**"؟ . . طبعا أعرفه، كيف أنت يا "**جورج**"؟" .

فقاطعه الدكتور "**وينتر**" في حِدّة ، وقال له في لهجة طغت عليها الصبغة الرسمية:" ياصاحب السعادة ، إن صديقنا "**جورج كوريل**" أعد هذه البلدة للغزو . . إن "**جورج كوريل**" صاحب الأيادي البيضاء علينا أرسل جنودنا إلى الجبال . . إن "**جورج كوريل**" - ضيف الشرف في مآدب عشائنا "- كتب قائمة بكل ما في البلدة من أسلحة نارية . . هذا هو صديقنا "**جورج كوريل**"؟" .

فقال "**كوريل**" في لهجة شاع فيها الغضب : " إنني أعمل في سبيل ما أؤمن به، وهذا شيء شريف!" .

وفغر "**أوردن**" فمه قليلا ، إذ اشتد به الذُّهُول ، وأخذ يقلب النظر يائسا بين "**وينتر**" و"**كوريل**" ، ثم قال : " إن هذا ليس صحيحا يا "**جورج**" . . إن هذا لايمكن أن يكون صحيحا !

. . لقد جلسْتَ إلى مائدتي وشربت شراب "البورت" معي بل إنك ساعدتني في وضع مشروع المستشفى . . إن هذا لايمكن أن يكون صحيحا!" .

ورمق "**كوريل**" بنظرة نافذة ، فرد إليه "**كوريل**" نظرته بنظرات ملؤها الحقد والعداوة، ثم ساد بينهما صمْتٌ طويل . وأخذت ملامح العمدة تستحيل رويدا رويدا

إلى ملامح صارمة قاسية اتخذت السمة الرسمية ، وتصلَّبَ جسمه كله ثم التفت إلى الكولونيل "**لانسر**" وقال: " لا أريد أن أتحدَّثَ في حضرة هذا السيد" .

وقال "**كوريل**" : " إن من حقي أن أكون هنا !" إنني جندي كسائر أولئك الجنود ، وإن كنت لاأرتدي الزي العسكري " .

وكرر العمدة قوله : " لا أريد أن أتحدث في حضرة هذا السيد" .

فقال الكولونيل "**لانسر**" : " هلاّ تركتَنَا الآن يا سيد "**كوريل**" ؟" .

وقال "**كوريل**" : إن من حقي أن أكون هنا !" .

وكرر "**لانسر**" في حدة: " هلا تركتنا الآن يا سيد "**كوريل**" ؟ أو تراك أعلى منيّ رتبة؟" .

- كلا ياسيدي.

فقال الكولونيل "**لانسر**" : " إذن أرجوك أن تنصرف يا سيد "**كوريل**"" .

ونظر "**كوريل**" إلى العمدة نظرة الغاضب الحانِق ، ثم استدار وخرج لايَلْوي على شيء ، وضحك الدكتور "**وينتر**" وهو يقول: " هذه مادة كاملة لفقرة فيما سأكتبه من التاريخ، فرمقه الكولونيل"**لانسر**" شزَرَاً ، ولكنه لم يَنْبس ببنت شفة .. وفي تلك اللحظة ، فُتِح البابُ الأيمن وأطلت منه "**آني**" الحمراء العينين ، ذات الشعر الذي يشبه القش .. وكان وجهها يفيض غضبا وهي تقول: "هناك جنود عند الباب الخلفي ياسيدتي .. وليس لهم من عمل سوى الوقوف هناك!" .

فأجاب الكولونيل "**لانسر**" : " إنهم لن يدخلوا ، إذ إن وقوفهم هناك من الإجراءات العسكرية" .

وقالت السيدة ببرود : " إذا كان لديك ما تقولين يا "**آني**" ، فدعي "**جوزيف**" يحمل رسالتك" .

فأجابت "**آني**" قائلة: " كل الذي أعلمه أنهم قد يحاولون الدخول ، فقد شَمُّوا عبير القهوة" .

– وصاحت السيدة محْنَقَة : " **آني** " ! .

فقالت الخادمة : " سمعا ياسيدتي " . ثم غادرت الغرفة . وقال "الكولونيل" : " هل لي أن أجلس ؟ " ، ثم أردف يقول : " لقد قضينا وقتا طويلا دون أن يَغْمض لنا جَفْن " .

وكأنما أيقظت هذه الكلمات العمدة من سُبات عميق ، فقال : – "أجل طبعا .. اجلس ! " .

وتطلع الكولونيل إلى السيدة ، فجلست ، بينما ألقى هو بنفسه متهالكا على أحد المقاعد ، وظل العمدة واقفا وهو شارد البال ، وكأنه يحلم !

وبدأ الكولونيل حديثه قائلا : " نريد ألا يعوق سبيلَنا للتفاهم عائقٌ فأنت ترى ياسيدي أن هذه أقرب إلى أن تكون مغامرة تجارية ، منها إلى أي شيء آخر .. نحن في حاجة إلى منجم الفحم الموجود هنا ، وفي حاجة إلى مصايد الأسماك . وسنبذل قُصارى جهدنا حتى نمضِي في علاقاتنا مع الأهالي بأقل احْتِكاك ممكن " .

فقال العمدة : " لم تصلني أية أخبار ، فماذا حدث في باقي أنحاء بلادنا ؟ " .

فأجاب الكولونيل قائلا : " لقد استولينا عليها كلها .. لقد أحكمنا تدبير خطتنا " .

– ألم تكن هناك مقاومة في أي مكان ؟

فنظر إليه الكولونيل في رثاء وهو يقول : " كم كنتُ أتمنى ألا تكون هناك مقاومة ! .. أجل ، كانت ثمَّةَ مُقَاومة ، إلا أنه لم يَنْجُم عنها سوى إراقةِ الدماء .. فقد أحكمنا تدبير خطتنا تماما " .

ولكن "**أوردن**" كان يُلِح في سؤاله : "ولكن كانت هناك مقاومة ؟ " .

– أجل ، ولكن المقاومة كانت ضربا من الحماقة ، فقد قضينا عليها هناك كما قضينا عليها هنا في الحال .. أجل ، لقد كانت المقاومة من الأعمال التي تتسم بالحماقة وتبعث على الحزن والأسى !

وانتقل إلى الدكتور "**وينتر**" شيء من لهفة العمدة وقلقه فقال :

– " أجل ، كانت من الحماقة ، ولكنهم قاوموا ! " .

فأجاب الكولونيل "**لانسر**" قائلا : " لم يقاوم إلا قلة قضينا عليها .. والشعب الآن

هادئ وادع ، في مجموعه !" .

وقال الدكتور "**وينتر**" : " إن الشعب لم يقف بعد على ما حدث" .

فأجاب "**لانسر**" بقوله: " لقد أخذوا يدركون ما حدث ، ولن يعودوا إلى حماقتهم!" . ثم تَنَحْنح وأصبح صوته أكثر وضوحا، وهو يستطرد: " والآن ياسيدي ، يجب أن أبدأ مهمتي ، فإن التعب قد نال مني مناله ، ولكنني مضطر إلى أن أُنجز إجراءاتي قبل أن أسْلِم جَفني للكرى" . ثم مال إلى الأمام في مقعده وقال : " إنني مهندس أكثر مني جندي وهذه المغامرة كلها أقرب إلى الأعمال الهندسية منها إلي الغزو فإن الفحم يجب أن يُسْتخرج من الأرض ويُشحن ، ولدينا الفنيون ، ولكن الأهالي يجب أن يستمروا في العمل في المنجم .

أهذا واضح؟ لانريد أن نُكرَه على استخدام القوة والعنف " فأجابه "**أوردن**" قائلا: " أجل هذا واضح تماما، ولكن هَبْ أن الناس لايريدون العمل في المنجم؟" .

فقال الكولونيل: " أرجو أن يكونوا راغبين في العمل ، لأن هذا فرض عليهم ، فالفحم لازم لنا" .

– وإذا عزفوا عن العمل ؟

– هذا فرض عليهم .. وأرى أن الشعب منظم ، رتيب يَنْأى بنفسه عن المتاعب !

وانتظر جواب العمدة ، ولكن العمدة لم يُحِر جوابا ، فسأله الكولونيل: " أليس الأمر كما أقول ياسيدي ؟" .. فتشاغل العمدة بالعبث بسلسلة ساعته ثم قال : " لست أدري ياسيدي .. إنه شعب منظم رتيب في ظل حكومته ، ولكني لاأعلم كيف يكون في ظل حكومتكم ، فهذا أمر لم تسبق لنا فيه تجربة كما تعلم ، إذ إننا أنشأنا حكومتنا منذ أكثر من أربعمائة عام" .

فأجاب الكولونيل بسرعة: " نحن نعرف هذا ، ولذلك سَنُبْقي على حكومتكم ، وستظل أنتَ العمدة : تُصْدر الأوامر، وتعاقب وتكافئ ، وبهذه الوسيلة لن يكونوا مصدر تعب لنا!" .

ونظر العمدة إلى الدكتور "**وينتر**" وسأله ،قائلا : " ما رأيك؟" .. فأجاب الدكتور

"**وينتـر**" بقوله : " لستُ أدري ، وإنه ليكون طريفا أن نرقب النتيجة ، على أنني أتوقع المتاعب ، فقد يكون هذا الشعب مُرًّا، صلب العود، لاتلين له قناة! " .

وقال العمدة "**أوردن**" : " ولا أنا أدري ! " . ثم التفتَ إلى الكولونيل يقول: " سيدي، إنني واحد من هذا الشعب ، إلا أنني لاأدري ما عساه يفعل . ولعلك أنت تدري ، أو لعله هو يقدم على شيء يختلف تماما عما تعرفه أنت أو نعرفه نحن، فبعض الناس يرتضون الزعماء الذين يفرضون عليهم ويطيعون أوامرهم ، ولكن قومي قد انتخبوني .. لقد رفعوني وهم مستطيعون أن يُسْقطوني ، ولعلهم يفعلون هذا إذا ظنوا أنني قد ضَالَعتك .. كل ما أملك أن أقوله هو أنني لاأدري ! " .

فقال الكولونيل : " إنك لتؤدي لهم خدمة لو جعلتهم يحافظون على النظام" .

– خدمة؟!

– أجل خدمة ، فإن من واجبك حمايتهم من الأذى ، وإن الخطر ليُحْدِق بهم إذا هم تمردوا ، إذ لابد لنا من أن نحصل على الفحم ، وقادتنا يُبينّون لنا طريق الحصول عليه ، بل يأمروننا بالحصول عليه فقط .. ولكن عليك أنت أن تحمي قومك ! .. يجب أن تحملهم على أداء العمل ، وبذلك تحفظ عليهم سلامتهم.

فسأله العمدة "**أوردن**" : " ولكن هب أنهم لايريدون لأنفسهم السلامة؟! " .

– إذن فعليك أنت أن تُفَكر نيابة عنهم!

فأجاب في شيء من الزهو: " إن قومي لايحبون أن يفكر إنسان عنهم ، ولعلهم يختلفون في هذا عن قومك إنني لفي حيرة ، ولكنني واثق مما أقول!" .

ودَلَف "**جوزيف**" إلي الغرفة إذ ذاك ووقف منحنيا إلى الأمام وقد استبدتْ به الرغبة في الكلام، فقالت السيدة: " ما الخبر يا "**جوزيف**" ؟.. أحضر علبة السجائر الفضية" .

فأجاب "**جوزيف**" قائلا :

– " عفوا يا سيدتي ، عفوا يا صاحب السعادة" .

وسأله العمدة : " ماذا تريد ؟.. فأجاب قائلا: " إنها "**آني**" .. لقد بدأ الغضب يسيطر عليها ياسيدي!" .

وتساءلت السيدة: " ماذا جرى؟ " .

– إن "**آني**" لايروقُ لها الجنود الذين يرابطون عند الباب الخلفي ! .

فسأله الكولونيل: " أهم يسببون شيئا من المتاعب؟ " .

فأجاب "**جوزيف**" قائلا: " إنهم يتلَصَّصُون خلال الباب على "**آني**" ، وهي تكره هذا! " .

فقال الكولونيل: " إنهم ينفذون الأوامر الصادرة إليهم، دون أن يضروا أحدا " .

فأجاب "**جوزيف**" بقوله : " حسنا ، ولكن "**آني**" تكره أن يُحَملق فيها أحد " .

وقالت السيدة : " **جوزيف** ، قل لـ"**آني**" أن تَلْزم الحذر! " .

فأجاب "**جوزيف**" قائلا: " سمعا وطاعة ياسيدتي " ، ثم غادر الغرفة.

*****

وخفض الكولونيل عينيه إِعْياء وتعبا ، ثم قال : " ثمة أمر آخر يا صاحب السعادة . . هل من الممكن أن أقيم مع أركان حربي هنا؟ . . ففكر العمدة "**أوردن**" لحظة ثم قال : " إن المنزل صغير ، وثمة منازل أكبر منه وأكثر استعدادا لتوفير الراحة! " .

وعاد "**جوزيف**" في تلك الأثناء يحمل علبة السجائر الفضية ففتحها وقدمها إلى الكولونيل . وتناول الكولونيل سيجارة، فأشعلها له "**جوزيف**" في شيء كثير من التكلف ، وزَفَر الكولونيل الدخان من أعماق صدره ، ثم قال : " ليس هذا هو بيت القصيد ، بل لقد تبين لنا أن إقامة أركان الحرب في نفس البيت الذي يقيم فيه أصحاب السلطة المحلية ، أدعى لهدوء البال والطمأنينة " .

فقال "**أوردن**" : تقصد أن الناس سيشعرون بأن ثمَّةَ تعاوناً بين الاثنين ؟ " .

– أجل ، أعتقد أن هذا هو المقصود!

فنظر العمدة "**أوردن**" في يأس إلى الدكتور "**وينتر**" مستنجدا به ، ولم يستطع "**وينتر**" أن يُنجِده بأكثر من ابتسامة مريرة .

وما لبث "**أوردن**" أن قال في لهجة رقيقة: " **هل من المباح لي رفض هذا الشرف؟** " .

فأجابه الكولونيل قائلا: " إنني لآسف ، ولكنك لاتستطيع ، فتلك هي أوامر قائدي" .

فقال "**أوردن** : إن الشعب لن يرتاح إلى هذا!" .

– دائما الشعب !.. لقد أصبح الشعب أَعْزل .. لم يعد للشعب حول ولاقوة !

فهز العمدة "**أوردن**" رأسه وهو يقول : " إنك لاتعرفهم ياسيدي " .

وطرق أسماعَهم من خلال الباب صوتُ امرأة غاضبة. ثم صوت ارتطام ، وصرخة رجل.. وأقبل "**جوزيف**" على الغرفة مهرولا ، وقال:

–" لقد رَمَتْهم بالماء المغلي .. لقد بلغ بها الغضب ذروته !" .

وسمِعَتْ الأوامرُ تَتْرى من خلال الباب ، وصوت وقع الأقدام، ثم نهض الكولونيل "**لانسر**" متثاقلا، وتساءل قائلا: " أليس لك سلطانٌ على خدمك ياسيدي؟" .

فابتسم العمدة "**أوردن**"وقال: " لي سلطان ضئيل عليهم.. إنها طاهية بارعة عندما تكون سعيدة!؛. ثم سأل "**جوزيف**" " هل أصيب أحد بأذى ؟" .

– لقد كان الماء يَغْلي ياسيدي!

وقال الكولونيل"**لانسر**" :" إنما نريد أن نُنْجز مهمتنا ، وهي مهمة هندسية ، فعليك أن تؤدب طاهيتك!" .

فأجابه "**أوردن**" : لاأستطيع هذا وإلا غادرت بيتي ورحلت!" .

– إننا في حالة طوارئ ، فلا يمكنها أن ترحل.

وهنا قال الدكتور "**وينتر**" :" إذن فستستمر في إلقاء الماء!" .

وفتح الباب ، فإذا بجندي يقف في فراغه ، وهو يقول متسائلا :

–" هل أقبض على هذه المرأة ياسيدي؟" .

فسأله "**لانسر**" : هل أصِيب أحد بأذى ؟" .

– أجل ياسيدي ، فقد أُصِيبَ البعض بحروق ، ونال أحد الجنود عضة .. إنها الآن في أيدينا ياسيدي.

ولاحت الحيرة على "**لانسر**" ، ثم قال :" أطلقوا سراحها، واذهبوا بعيدا عن

الباب!" . . فقال الجندي : " سمعا وطاعة ياسيدي " . ثم أغلق الباب .

وقـال "**لانسـر**" : " كان في استطاعتي الأمرُ بإعدامها رميا بالرصاص ، وكان في استطاعتي حبسُهَا!" .

فقال "**أوردن**" : " إنك إذ ذَاكَ تحرمنا من الطاهية !" . .

فأجاب الكولونيل : " إننا مأمورون بأن نحسن معاملة قومك" .

وما لبثتْ السيدة أن قالت : " عفوا ياسيدي ، سأذهب لأرى ما إذا كان قد نال "**آني**" شيءٌ من الأذى على يد الجنود!" ، ثم انصرفتْ ، فنهض "**لانسـر**" وقال : " قلت لك : إنني مُتْعَب جدا ياسيدي ، لابد من أن أحظى بقسط من النوم، فأرجو أن تتعاون معنا لمصلحة الجميع!" . وإذ لم يُجِب "**أوردن**" ، أردف "**لانسر**" يقول مرة أخرى : " لمصلحة الجميع . . فهل أنت فاعل؟" .

فـأجـاب "**أوردن**" بقوله : " هذه بلدة صغيرة . . لست أدري . . إن القوم تَتَمَلَّكَهُم الحيرة ، كما تَتَمَلَّكَنِي أنا" .

– ولكنْ هلاَّ حاولتَ المعاونة؟

فهـز "**أوردن**" رأسه وهو يقول : " لست أدري . ربما استطعت أن أعرف ما ينبغي أن أفعله ، إذا استقر رأي القوم على ما يحسن بهم عمله!" .

– ولكنك صاحب السلطان!

فـابتـسم "**أوردن**" وقال : " لن تصدق هذا ، ولكنّها الحقيقة . . إن السلطان في يد البلدة ذَاتِهـا . ولست أدري كـيف ولماذا ، ولكن هذا هو الواقع . . وهذا مـعناه أننا لانستطيع التصرف بالسرعة التي تتصرفون أنتم بها ، ولكن ما إن نضع خطة للسير عليها ، حتى نعمل كلنا معا . . إنني في حيرة، لأنني لاأعرف بعد ما ينبغي عمله !" .

فقال "**لانسـر**" وهو يكاد يسقط إعياء : " أرجو أن نستطيع العمل معا حتى يَسْهل الأمر بالنسبة لكل إنسان ، وأرجو أن نستطيع الوثوق بك ، فإنني لاأحب أن أفكر في الوسائل التي يلجأ إليها العسكريون لحفظ النظام !" .

ولاذ العمـدة "**أوردن**" بالصمت ، فعاد "**لانسر**" يُكرر : " أرجو أن نستطيع الوثوق

بك والركون إليك!".

ووضع "**أوردن**" أصبعه في أذنه وهز يده وهو يقول: " لست أدري ".. ودخلت السيدة في هذه اللحظة قائلة: " لقد استَبَدَّ الغضب بـ"**آني**" وهي عند الجيران تحادث "**كريستين**".. و"**كريستين**" غاضبة أيضا".. فقال العمدة: " إن "**كريستين**" طاهية بارعة تفوقُ "**آني**" نفسها!".

الفصل الثاني

اتخذ أركان حرب الكولونيل :"**لانسر**" مَقَامهم في الطابق الأعلى من قصر العمدة الصغير. وكانوا خمسة عدا الكولونيل". منهم الماجور "**هنتر**" .. وهو رجلُ صغير يشغل الحساب والأرقام بآلة. وكان "وحدة" يُرْكن إليها ، ولكنه كان يرى بقية الناس وحدات لايُرْكن إليها، أو لاتصلح للبقاء!.. وكان الماجور "**هنتر**" مهندسا ، ولولا الحرب لما فكر أحد في أن يُولِيه قيادةَ الرجال!.. ذلك لأن الماجور "**هنتر**" كان يصف رجاله صفوفا كأنهم الأرقام ، يجمعهم ويطرحهم ويضربهم كان أقرب إلى عالَمِ الحساب منه إلى رجل العلوم الرياضية ، ومن ثم لم يستسغ يوما ما كان يزعمه المتَبَحِّرون فيها من أن لها سحرا وموسيقى ونشوة روحية . ولقد يختلف الناس في الطول أو الوزن أو اللون ، كما يختلف رقم ٦عن٨، ولكنهم قلَّ أن يختلفوا في شيء آخر . على أن "**هنتر**" لم يكن يفطن إلى ذلك .. فقد تزوّج عدة مرات ، ومع ذلك فإنه لم يدر يوما السرَّ في أن أعصاب زوجاته كانت تثور قبل أن يهجرنه!

أما الكابتن "**بنتيك**"، فكان رجل أسرة .. يحب الكلاب والأطفال ذوي الوجوه الوردية ، وحفلات عيد الميلاد ، ولقد كان أكبر سنّاً من أن يكون "**يوزباشي**" ، ولكنه كان مُنْعدم الطموح إلى درجة تثير العجب ، مما جعله يتخلف في تلك الرّتبة . وكان قبل الحرب شديد الإعجاب بأعيان الريف الإنجليز ، فكان يرتدي الأزياء الإنجليزية، ويُؤْوي الكلاب الإنجليزية ، ويدخّن في غليونه خليطا مخصوصا من التبغ يرسل إليه من "**لندن**" ! كما أنه كان مشتركا في تلك المجلات الريفية التي تبحث في الفلاحة والتي تدْأب على الجِدال في المزايا النسبية لكلاب الصيد الإنجليزية وكلاب "**جوردون**" .. بل إنه كان يقضي إجازاته كلها في مقاطعة "**ساسكس**" الإنجليزية ، ويستطيب أن يأخذه الناس – في "**بودابست**" أو "**باريس**" – على أنه إنجليزي . ومع أن الحرب اضطرته إلى تغيير كل هذه المظاهر ، إلا أنه كان قد دخن الغليون كثيرا ، وحمل العصا طويلا ، حتى بات من المتعذر عليه أن يستغني عنهما فجأة ..ولقد كتب مرة– منذ خمس سنوات –

خطاباً إلى صحيفة "**التايمس**" عن صبغ حشائش الأرض في "**ميدلاند**" . ووقع الخطاب باسم السيد "**أدموند تويتشل**" ، فنشرت "**التايمس**" خطابه هذا!

وإذا كان الكابتن "**بنتيك**" أكبرَ سنا من أن يكون يوزباشي، فإن الكابتن "**لوفت**" كان أصغر من أن يكون يوزباشي ، وإن حرص على أن يبدو في رتبته كأحسن ما يظهر "اليوزباشية" في رتبتهم ، فكانت حركاته وسكناته كلها تُوحِي بأنه "يوزباشي" مثالي . ولم تكن في وقته لحظة غير عسكرية ! وقد دفعه الطموح إلى الرقي ، فأخذ يصعد سُلَّم الدرجات العسكرية تِباعا ، وهو يرتفع في يسر كأنه القشدة حين تعلو اللبن ! . .

ولقد كان يضرب أحد عقبيه بالآخر في براعة الراقص الرشيق ، كما كان يعرف كل ضرب من ضروب الآداب العسكرية ، حتى بات قادة الجيش يَخْشَوْنه، لأنه كان يعرفُ عن مَسْلك الجندي أكثر مما يعرفون، وكان الكابتن "**لوفت**" يعتقد – بل يؤمن – بأن الجندي هو أرقى ما تطورت إليه حياةُ الحيوان . ولو أنه كان على شيء من الإيمان بوجود الله، لكان كل ما يتخيله هو أن الله خلقه وأعده ليكون قائدا قد تقدمت به السن وتوجته أكاليل الشرف، وقد اعتزل الخدمة بعد أن اشتعل رأسه شيبا، وأخذ يعيش على ذكريات المعارك التي خاضها ، ويضع أكَاليل الزهور على قبور ملازميه عدة مرات في السنة! . . وكان الكابتن "**لوفت**" يعتقد أن النساء جميعا يَتَهافتن على حب الزي الرسمي ، ولم يكن يرى أي عجب في ذلك . . ومن ثم كان يحلم بأنه إذا سارت الأمور سيرها الطبيعي ، فلن يلبث أن يُصبِح لواء في سن الخامسة والأربعين من عمره ، فتنشر الصحف والمجلات صورته تحيط به نساء مسترجلات طويلات، شَحُبتْ وجوههن ، وارتدين قبعات مطرزة أنيقة !

أما الملازمان "**براكل**" و"**توندر**" ، فكانا في طور التمرين. . لم يكونا أكثر من ملازمين يتدربان على فنون السياسة الحالية ويؤمنان بأن نظام الحكم الجديد ابتكره عبقري ، وبلغ من العظمة بحيث لم يكونا في حاجة إلى أن يكلفا نفسيهما مؤونة التحقق من نتائجه! . . وكانت العاطفة تملك قيادهما ، فألفا الدموع وسَوْرات الغضب وكان الملازم "**براكل**" يحمل خُصْلَة من الشعر ألصقها في داخل الغلاف الخلفي من

ساعته الجيبية ، وقد لفها في قطعة من الحرير الأزرق . وكان الشعر يخرج دائما من غِلاَلته ويعوق بَنْدول الساعة عن العمل ، ولذلك فقد كان يحمل ساعة يد ليعرف بها الوقت .

ولقد كان "**براكل**" في الأصل راقصا أجيرا ، مرحا بطبعه،إلا أنه كان قادرا على أن يَتَجهّم كما يفعل القائد ، وأن يُطِيل التفكير والتأمل كما يفعل القائد أيضا ! .. وكان يكره الفن المائع المنحل ، حتى لقد أتلف بيديه بعض اللوحات التي رُسمت على القماش . وكان يعمد – أثناء سهره في الملاهي أحيانا– إلى رَسْم رفاقه بالقلم الرصاص في صور كاريكاتورية كانت من البراعة بحيث قيل له كثيرا : إنه كان يجب أن ينشأ فنانا .

وكانت لـ"**براكل**" بِضْعُ شقيقات شقراوات كان فخورا جدا بهن ، حتى إنه أثار ضجة ذات مرة عندما خُيِّل إليه أن الحديث قد نال من سمعتهن . وانزعجتْ الشقيقات بعض الشيء بسبب هذا الحادث ، لأنهن خشين أن يعمدَ شخص ما إلى إثباتِ الواقعة التي تَناولَتْها الإهانة، ولم يكن هذا بالأمر المتعذر ! ..

وكان الملازم "**براكل**" يقضي وقتَ فراغه كله – تقريبا – في نسج الخيال حول إِغْراء أخت الملازم "**توندر**" الشقراء وهي فتاة بدينة كانت تحب أن يكون إغراؤها على أيدي الرجال الأكبر منه سنا ، إذ إنهم ما كانوا يعبثون بشعرها على النحو الذي يعبث به الملازم "**براكل**" !

أما الملازم "**توندر**" فكان شاعرا ، حزينا ، متشائما ، يَحْلم بالحب المثالي الكامل الذي يتدفق من قلوب الشبان المثقفين إلى الفتياتِ الفقيرات ! .. وكان شابا أسمر اللون، يَفيضُ بالعاطفة ، كما كان خصب الخيال ، واسع التجربة .، وكان يتمتم أحيانا بأشعار لامعنى لها ، إلى نساء سمراوات من نسج خياله .. وَيتُوق للموت في ميدان القتال ، ويتخيل والِديْه وهما يَبْكِيانه ، وقائدَهُ الشجاع وقد استبد به الحزن أمام الشاب وهو يَحْتَضر . وكثيرا ما كان يتخيل مشهد موته، فيتمثل الشمس محْتَقَنة اللون غَاربة ، تنعكس أشعتها على مهمات عسكرية محطمة ، وقد وقف جنوده حوله سكوتا وقد

طأطئوا رؤوسهم .. بل إنه أعد الكلمات التي يَجْمل به أن يقولها وهو يحتضر !

✽✽✽✽✽

هؤلاء كانوا أركان الحرب.. يخوض كل منهم غمار الحرب كأنها لعبة من ألعاب الصبية . وكان رأي الماجور "**هنتر**" في الحرب أنها عملية حسابية يجب إيجاد حلٌ لها ، حتى يستطيعَ العودةَ إلى جوار مدفأته ، أما رَأْيُ الكابتن "**لوفت**" فكان يتمثل في أن الجيش هو المستقبل اللائق بشاب نشأ على أحسن ما يَشِب عليه الشباب ، في حين أن الملازمين "**براكل**" و"**توندر**" كانا يتصوران الحرب كأنها حلم لاينطوي على شيء من الحقيقة . ولقد كانت الحرب التي خاضوها حتى اليوم لعبة من اللعب . فالأسلحة بديعة الأشكال ، والخطة التي أعدوها – ضد أعداء بلا أسلحة أو خطط – خطةٌ رائعة ، ومن ثَمَّ لم يُهْزمَوا في موقعة واحدة ، ولم تنزل بهم إلا خسائر قليلة .، وكانوا – كأي ناس غيرهم – عرضة لأن يبدوا من الجبن أو الشجاعة ما يقتضيه الضغط الذي ينصب عليهم ، فما كان بينهم من يعرف حقيقة الحرب وكُنْهَها سوى الكولونيل "**لانسر**" . فلقد قضى "**لانسر**" في **بلچيكا**" و"**فرنسا**" عشرين عاما ، وحاول ألا يفكر فيما قُدّر له أن يعرفه من أن الحرب خيانة وحقد وأنها خطط مُشَوشَة لقادة تعوزهم الكفاية ، وعذاب وقتل ومرض وكَلاَل . وإلى أن ينتهي كل هذا – بأن تضع الحرب أوزارها – لايطرأ على العالم أي تبدل اللهم إلا زيادة التعب وخلق أحقاد جديدة . وكان "**لانسر**" يُحدِّث نفسه بأنه جندي صدرت إليه تعليمات يجب أن يقوم على تنفيذها ، فلم يكن من المفروض أن يناقش هذه التعليمات أو يفكِّرَ فيها ، وإنما كان عليه أن يُنفِذَها فقط!.. وكان يحاول أن يطرد الذكريات المريرة التي خَلَّفتْها الحرب السابقة ، وهو موقِن في قرارة نفسه من أن هذه الحرب على غِرَار تلك .. كان يُحاول أن يُقنع نفسه خمسين مرة في اليوم بأن هذه الحرب ستختلف عن الحرب الأخرى .. كل الاختلاف !

ومن المعتاد في الطوابير العسكرية ، وفي زحمة الجماهير ومباريات كرة القدم ، والحروب ، أن تصبح المعالم مُبْهَمة غير واضحة ، وتغدو الأمور الملموسة سَرابا ، فتُخيم

على العقل غَشاوة تَطْمِس المرئيات . إذ إن التوترَ والإثارة والملل والكَلاَلَ والحركة .. كل هذه تندمج في حلم واحد كبير مُشَوَّش غير واضح المعالم ، فإذا ما انقضى ، كان من الصعب عليك أن تذكر ماذا كانت عليه الحال عندما قُتلت الناس أو أصدرت الأوامر بقتلهم .. فإذا أنبأك الذين لم يَحضروا القتال بما وقع من أحداث ، قلت وقد التبس عليك الأمر : " أجل، أعتقد أن هذا هو ما جرى! " .

وقد شغل أركان الحرب ثلاث غرف في الطابق الأعلى من قصر العمدة، فصفوا في غرفة النوم أسرتهم وبطاطينهم ومهماتهم،وجعلوا من الغرفة المجاورة لهاتين الغرفتين – والتي تقع فوق غرفة الاستقبال – ناديا . ولكن أسباب الراحة لم تكن متوفرة في هذا النادي.. كان ثمةَ عددٌ من المقاعد ومنضدة ، وكانوا يكتبون في هذه الغرفة ويقرءون خطاباتهم، كما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون القهوة ويضعون الخطط ويستريحون . وقد عُلقت على الجدران – بين النوافذ – صوَرُ البقر والبحيرات والبيوت الريفية الصغيرة . وكانوا يستطيعون أن يُشرِفوا من النوافذ على البلدة حتى الميناء، وعلى الأرصفة التي ترسو عندها سفن الشحن ، والأرصفة التي تجنح إليها سفن الفحم لتُشحَن ثم تُقلع إلى عرض البحر .

كانوا يستطيعون أن يروا البلدة الصغيرة وهي تَنثني حول الميدان حتى تبلغ الميناء، كما كان في وُسعهم أن يُشاهِدوا قوارب الصيد وهي راسية في الخليج وقد طوت قلوعها.. بل لقد كان في وسعهم أن يَشموا رائحة السمك وهو يجفف على الساحل ، إذ كان النسيم يحملها إليهم خلال النافذة.

وكانت في وسط الغرفة منضدة كبيرة جلس إلى جوارها الماجور"**هنتر**" ، وقد وضع لوحة الرسم الهندسي على ركبتيه ، مُسندا حافتها إلى المنضدة ، وراح يرسُم مشروع خط حديدي جديد لتخزين العربات بالمحطة ، مستعينا بالمسطرة "حرف ت" والمثلث ، ولكن اللوحة لم تكن ثابتة في مكانها ، فأخذت تتحرك ، مما أثار غضب الماجور ، فالتفت ونادى قائلا: "**براكل**" ! "، ثم : " أيها الملازم "**براكل**" ! " .

وفُتِحَ بابُ غرفة النوم ، وخرج الملازم وقد غطى معجون الحلاقة نصف وجهه، بينما

أمسك بالفرشاة في يده ، وقال :

- "نعم؟" . . فهز الماجور "**هنتر**" لوحة الرسم وهو يقول : " ألم تأت ركيزة لوحتي مع أمتعتنا ؟" . . فأجاب "**براكل**" بقوله : " لست أدري ياسيدي ، فإنني لم أبحث عنها" .

- هلا بحثتَ عنها الآن؟ يكفي أنني أحمل نفسي على العمل في هذا الضوء، وأنني مضطر إلى رسم هذا المشروع من جديد قبل تحبيره!

وأجاب "**براكل**" : " سأبحث عنها بمجرد فراغي من إزالة لحيتي! " . ولكن "**هنتر**" صاح في غضب : " إن شريط التخزين الذي أرسمه يفوق طلعتك أهمية . . ابحث تحت الأمتعة المتراكمة هناك عن حقيبة من المشمَّع تشبه في شكلها حقيبة الجولف! " .

*****

واختفى "**براكل**" في غرفة النوم، بينما فُتح البابُ الذي يَقع إلى اليمين، وأقبل الكابتن "**لوفت**" وهو يَلبِس خوذته ، ويحمل نظارة الميدان وسلاحا، وعدة علب جلدية صغيرة إما معلقة في ذراعيه أومشدودة إلى عنقه . وما إن دخل حتى أخذ يتخلص من كل ما يحمل من مهمات .

ثم قال : " لاشك أن "**بنتيك**" هذا مجنونٌ ، فقد شاهدته يخرج إلى نوبته في الطرقات بالقبعة الخفيفة التي يرتديها الجنود في أوقات الراحة! " . . ووضع نظارة الميدان على المنضدة ، وخلع خوذته ثم علبة القناع الواقي من الغازات ، فما لبثت المهمات أن تكدستْ على المائدة. ، وإذ ذاك قال "**هنتر**" :لاتترك هذه المهمات ، فإنني أريد أن أشتغل هنا .

ولم لايرتدي "**بنتيك**" قبعةً خفيفة؟ . . إن ارتداءَه إياها لم يُحدِث أي اضطراب ، كما أن هذه الخوذات الفولاذية تضايقني ، إذ إنها ثقيلة وتحول دون الرؤية " . . فأجاب "**لوفت**" وهو يتكلف الجد : " إن خلع الخوذات أمر له تأثير سيئ على الناس هنا، فيجب أن نَحتفظ بطابعنا العسكري، وأن نكون دائما على أُهْبة الاستعداد ، وألا نتهاون لحظة . . فإذا لم نفعل ، كنا كمن يدعو إلى إثارة الاضطراب ! " .

وسأله "**هنتر**" : " ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟" .. فشد "**لوفت**" قامته قليلا ، وزم شفتيه كما لو كان واثقا مما يقول.

وكان الكل يَتوُقون إلى أن يُفْحِموا "**لوفت**" – إن عاجلا أو آجلا لفرط اعتداده بما كان يقول. وأجاب "**لوفت**" على سؤال "**هنتر**" بقوله : " إنها ليست مسألة اعتقاد ، وإنما كنت أردد ما ورد في كتاب "**س-١٢**" – عن مسلك الجنود في البلاد المحتلة ، وهو كتاب بذل فيه كاتبه جهدا مشكورا!" ثم شرع يقول : " يجب عليك أن ..." ، ولكنه ما عَتَم أن قال: "عليكم جميعا أن تقرءوا "**س- ١٢**" بعناية بالغة " .

فأجابه "**هنتر**" بقوله: تُرى هل زار مؤلف هذا الكتاب الأراضي المحتلة مرة؟ إن شعب هذه البلاد شعب هادئ ، ويبدو أنه شعب مُمْتَثل طَيِّع يَتصف بالطيبة والصلاح!" .. ودخل "**براكل**" الغرفة ، وما زال نصف وجهه يُغطيه صابون الحلاقة ، وكان يحمل حقيبة كالكيس الطويل ، داكنة اللون.

وجاء في أثره الملازم "**تونلدر**". فقال :"**براكل**" يسأل "**هنتر**" "أهذه هي؟" .

– أجل . هل لك أن تفكها وتقيمها على سيقانها!

فانهمك "**براكل**" و"**تونلدر**" في إخراج الحامل من الحقيبة وإقامته على سيقانه الثلاثة. وبعد أن استوثقا من متانته ، وضعاه بجوار "**هنتر**" ، وثبت الماجور اللوحة على الحامل ، ثم هزها إلى اليمين وإلى اليسار، واستقر خلفها آخر الأمر وهو يُهَمْهِم ويُدَمْدم.. وإذ ذاك قال الكابتن "**لوفت**" :" أتعرف أن الصابون على وجهك أيها الملازم؟" . فأجاب "**براكل**" قائلا :" نعم ياسيدي ، كنت أحلق عندما طَلب مني الماجور أن آتي له بالحامل" .. فقال "**لوفت**" :" إذن ، يَجمل بك أن تُزيله . فقد يراك الكولونيل" .

– إنه لن يهتم للأمر ، فهو لايأبه بمسائل كهذه !

وكان "**تونلدر**" خلف "**هنتر**" يُراقبه وهو يَرسم ، فقال "**لوفت**" :" إنه قد لايحفل بمثل هذه الأمور، ولكن المنظر لايسر العين!" . فأخرج "**براكل**" منديلا ومسح ما علق

بخده من الصابون ، بينما أشار "**توندر**" إلى رسم صغير في ركن لوحة الماجور، قائلا :" هذا جسر جميل يا"ماجور"، ولكن أين بالله سنقيمه ؟" .

ونظر "**هنتر**" إلى الرسم ، ثم التفت إلى "**توندر**" الواقف خلفه ، وقال:" هه ؟.. ليس هذا جسرا سنقيمُه . إن رسم مشروعنا في أعلى اللوحة!" .

– إذن ما حاجتك إلى الجسر ؟

وبدا شيءٌ من الحيرة على "**هنتر**" وهو يجيبه قائلا :" لقد أقمتُ في الساحة الخلفية لداري خطا مثاليا لسكة حديدية ،وكنت أريدُ قنطرة على جدول ماء يعترض طريقه ، وقد أتيت بالخط حتى حافة الجدول ، ولكنني لم أتمكن بعد من بناء هذا الجسر فوقه ، ففكرتُ في تصميم مشروعه وأنا هنا بعيد عن الوطن " .

وأخرج الملازم "**براكل**" من جيبه صفحة مطوية مطبوعة بـ"**الروتوغرافور**" ، فنشرها بين يديه وأخذ ينظر فيها .. وكانت صورة لفتاة أبرزُ ما فيها ساقاها وثوبُها وأهدابها .. كانت شقراءَ ناضجة ، ترتدي جوربين أسودين يَفْضحان ما تحتهما ، وصِدَارا يكشف عن نحرها . وكانت الشقراء تختلس النظر من فوق مروحة من "الدانتلا" السوداء . ورفع الملازم الصورة وهو يقول:" أليست بديعة؟" . فتأمل الملازم "**توندر**" الصورة بنظرة الفاحص المدقق ، وقال :" إنها لاتعجبني " .

– وما الذي لايعجبك فيها؟

فأجاب "**توندر**" قائلا:" لاتُعْجبني وحسب . وما الذي تُريده من صورتها؟" .. فقال "**براكل**": " أريد صورتَها لأنها تعجبني ، وأراهن أنها تعجبك أنت أيضا" .. ولكن "**توندر**" قال في إصرار :" بل هي لاتعجبني " . فسأله "**براكل**" قائلا :" أتعْنِي أنك لاتُواعِدها إذا استطعت إلى ذلك سبيلا؟" .

فقال "**توندر**" : "كلا" .

وإذ ذاك قال "**براكل**" :" إنك حقا لمجنون " . ثم سار إلى إحدى الستائر، وأردف قائلا:" سأُعَلِّقها هنا وأتركك تتأملها برهة" . وثبت الصورة بدبوس في الستارة.

وكان الكابتن "**لوفت**" يجمع مهماته بين ذراعيه في تلك اللحظة ، فقال :" لا أعتقد

أن منظرها هنا مما يليق أيها الملازم، فيَحْسُن أن ترفعها إذ لن يكون لها تأثير حسن على الشعب هنا !" .

ورفع "**هنتر**" عينيه على لوحته وسأل :" من تلك التي لن يكون لها تأثير حسن؟" ، ثم تَتَبّع عيونهم إلى الصورة وقال :

-" من هذه ؟" .. فأجاب "**براكل**" :" إنها ممثلة " .. وتأملها "**هنتر**" بعناية وسأله :" هل تعرفها ؟" . فقال "**توندر**" : " إنها أفّاقة!" . وهنا قال "**هنتر**" :

-"إذن فأنت تعرفها ؟" .

وكان "**براكل**" يتفرس في وجه "**توندر**" ، فقال :" كيف عرفت أنها أفاقة؟" . فأجاب الملازم:" إنّ مظهرها يدل على أنها أفاقة" .

- هل تعرفها؟

- كلا، ولاأريد أن أعرفها !

وشرع "**براكل**" يقول :" إذن كيف عرفتَ ؟"، ولكن "**لوفت**" قطع عليه الحديث قائلا:" يَحْسُن بك أن ترفع الصورة من هنا . علِّقها فوق سريرك إذا شئتَ ، ولكن هذه الغرفة تعتبر رسمية!" .

فنظر إليه "**براكل**" متمردا.. وكان على وشك الرد عليه عندما قال الكابتن "**لوفت**" :" هذا أمر أيها الملازم!" ، فطوى "**براكل**" المسكين ورقته ووضعها في جيبه ثانية .

*****

وحاول "**براكل**" أن يُغَير مجرى الحديث ، فقال في ابتهاج مُتَكلّف :" إن في هذه البلدة فتيات جميلات ، وما إن نستقر وتَسيِّر أمورنا على ما نحب حتى أتعرف إلى بعضهن!" .. فأجابه "**لوفت**" قائلا :" يحسن بك أن تقرأ"س-١٢" ، ففيه فصل يعالج الشؤون الجنسية !" .. ثم خرج يحمل نظارته ومهماته ، وكان الملازم "**توندر**" ما يزال واقفا خلف الماجور"**هنتر**" يشاهد رسمه ، فقال :" من البراعة حقا أن تأتي سيارات

الفحم من المناجم إلى السفينة رأسا !" .

وخفّف "**هنتر**" من تركيز ذهنه في عمله رويدا ، ثم قال:" يجب أن نسرع في إنجاز مهمتنا .. يجب أن ننقل الفحم سريعا! .. إنها لمهمة كبيرة ، وكم أنا شاكر للناس هنا هدوءَهم وتعقلهم !" .. وكان"**لوفت**" قد عاد إلى الغرفة دون مهماته ، ووقف بجوار النافذة يُطِل على الميناء ومنجم الفحم، فقال :" إنهم هادئون عاقلون لأننا هادئون عاقلون... أعتقد أننا نستحق التقدير على هذا ، ولذلك ما فَتِئْتُ أصر على أهمية المسلك ، وقد عالجه ذلك المؤلف في كتابه ببراعة" .

وهنا فُتِح الباب ، ودخل الكولونيل"**لانسر**" وهو يخلع معطفه ، فحياه أركان حربه التحية العسكرية .. ولم تكن تحية صارمة عنيفة ، ولكنها كانت كافية .. فقال "**لانسر**" :" هل لك يا "كابتن" **لوفت**" أن تنزل لتحل محل "**بنتيك**" ؟ إنه يشعر بتوعك ويقول: إنه مصاب بدوار !" .. فأجاب "**لوفت**" :" سمعا وطاعة ياسيدي ، ولكن هل لي أن أذكر لك ياسيدي أنني إنما فرغت من نوبتي توا؟" .. وتأمله الكولونيل بنظرة فاحصة .

وقال :" أرجو ألا يكون هناك حائل يحول دون ذهابك ياكابتن" .

– كلا ياسيدي البتة ، وإنما ذكرت ما ذكرت حتى يُدَوّن في صفحتي !

وتنفس "**لانسر**" الصُّعَداء ثم ضحك قائلا:" أتحب أن يُذكر اسمك في التقارير؟" .

فقال "**لوفت**" :" لابأس من هذا ياسيدي !" . واستطرد "**لانسر**" يقول:" وعندما يتكرر ذكر اسمك بما فيه الكفاية ، سَيَزْدان صدرك بوسام صغير" .

– إن الأوسمة معالمُ الحياة العسكرية ياسيدي.

وتنهد "**لانسر**" قائلا:" أجل ، أعتقد هذا ، ولكنها لن تكون المعالم التي تُخَلَّد في ذاكرتكَ يا"كابتن" .. فسأله "**لوفت**" مستفسرا :" سيدي؟" .

– لعلك تُدْركُ ما أعني .. فيما بعد!

وعاد الكابتن يتزوّد بمهماته من جديد في سرعة وعجلة ، وقال :" إنني ذاهب ياسيدي" . ثم خرج . وسُمِع وقعُ أقدامه على الدرج الخشبي ، وهو يهبط فراقبه

"**براكل**" في شيء من المرح ، وقال في هدوء :" ها هو ذا جندي مَطْبُوع!"

فرفع "**هنتر**" عينيه وتلاعب بالقلم الرصاص وهو يقول:" بل حمار مطبوع!" .

فأجاب "**لانسر**" بقوله:" كلا، إنه جندي يسلك في الجندية الطريق الذي يسلكه كثيرون من الناس ليُصبِحوا من الساسة .. ولن ينقضي وقت طويل حتى يكون عضوا في هيئة أركان الحرب العليا ، وسينظر إلى الحرب من عل، وهكذا يحبها دائما" .

وقال الملازم "**براكل**" :" متى تنتهي الحرب فيما نَحْسِب ياسيدي؟.

– تنتهي ؟ تنتهي ؟ ماذا تعني؟

واستطرد الملازم "**براكل**" يقول:" متى نُحْرز النصر؟" ..

فهز "**لانسر**" رأسه قائلا :" لست أدري ، فمازال العدو على قيد الحياة!" .. وأردف "**براكل**" بقوله:" ولكننا سنوقعُ به الهزيمة " . فقال "**لانسر**" :" حقا؟" .

– ألن نحْرِزَ النصر؟

– بل سَنُحرِزه ، فهذا دَيْدَنُنا على الدوام !

وقال "**براكل**" في لهجة كلها انفعال:" حسنا ، إذا أحرزنا النصر في تاريخ قريب من عيد الميلاد ، أفتظن أنهم يسمحون لنا ببعض الإجازات؟" . فأجاب "**لانسر**" قائلا:" لست أدري ، فإن مثل هذه الأوامر يجب أن تَصْدُر من الوطن. أتريد العودة إلى الوطن لقضاء عيد الميلاد ؟" .

– إنني لأتوقُ لهذا بالفعل !

فقال "**لانسر**":" ربما تحقَّقَ لك هذا " . وكرر قوله:" ربما تحقَّقَ لك هذا " .. فتساءل الملازم "**تـونـدر**" :" هل سننسحب من هذه البلاد ياسيدي بعد أن تضع الحرب أوزارها؟؛.

وإذ ذاك أجاب الكولونيل قائلا :" لستُ أدري ، ولكن فِيَم هذا السؤال؟" .. فقال "**تـونـدر**" : إنها بلاد ظريفة وشعبها شعب ظريف ، بل إن رجالنا – أقصدُ بعضَهم – قد يفكرون في الاستقرار هنا !" .

وسأله "**لانسر**" مداعبا : " لعلكَ رأيت مكانا أعجبك ؟" .

فأجاب "**توندر**" : " ثمة مزارعُ جميلة هنا ، ولو أن أربعا أو خمسا منها قد ضُمَّت معا لأصبح المكان من أحسن الأماكن للاستقرار فيما أعتقد ! " . فسأله "**لانسر**" : " ألم ترثْ أرضا عن أسرتك ؟" .

– لم يعد لنا أرض يا سيدي ، فقد ذهب بها التضخم النقدي !

وأدرك "**لانسر**" التعب من محادثة هؤلاء الزملاء فقال : " حسنا مازالت أمامنا حرب نخوضُ غِمارها ، ومازال هناك فحم يجب علينا استخراجُهُ ، أتعتقد أننا نستطيع الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها قبل أن نُصلح من شأن هذه المزارع ؟ إن مثل هذه الأوامر يجب أن تصدر من السلطات العليا . اسأل في ذلك الكابتن "**لوفت**" ، فيحدثك الحديث الوافي ! " ثم تغيرت ملامحه وقال : " سيصل الفولاذ إلى هنا غدا يا "**هنتر**" ويمكنك البدء بمد خطوطك الحديدية هذا الأسبوع ! " .

*****

وطرق الباب طارق . ثم أطل رأسُ أحد الحراس من الباب وقال : " إن السيد "**كوريل**" يريد مقابلتك ياسيدي" ، فقال الكولونيل : " أدخله ! " .. ثم تحول إلى الآخرين وقال : " إنه الرجل الذي قام بالعمل التمهيدي هنا ، وربما لاقيْنا بعض المتاعب منه ! " .

وتساءل "**توندر**" : هل أدى عملا مهما ؟ " . فقال الكولونيل : " أجل ، لقد أدى لنا مهمة كبيرة ، ولهذا لن يكون محبوبا من الشعب هنا ، ولست أدري هل سنحبه نحن أم لا ! " .. فقال "**توندر**" : " إنه جَدِير بالتقدير ولاشك " . فقال "**لانسر**" : " أجل ، ولكن.. هل تظن أنه لن يُطالِب بالجزاء قبل أن نُجْزِيَه من تلقاء أنفسنا؟" .

ودخل "**كوريل**" وهو يَفْرُك يديه ، وقد بدت عليه روح الزمالة والنوايا الطيبة . وكان مايزال مرتديا زي رجال الأعمال الأسود اللون ، وإن بدت حول رأسه ضَمَادة بيضاء اختلطتْ أطرافها بشعره ، وقد ثبتت في وضعها بشريط لصق على شكل الصليب . وتقدم إلى وسط الغرفة ، ثم قال : "صباح الخير يا كولونيل. كان من الواجب أن أزورك

أمس بعد الحوادث التي وقعت ، ولكنني قدرت كثرة مشاغلك" . فقال الكولونيل : -"عم صباحا!" ، ثم أشار بيده إلى الحاضرين ، وقال : " هؤلاء ضباط هيئة أركان حربي يا سيد "**كوريل**" .. فقال "**كوريل**" : " إنهم فتية بارعون ، فقد أدوا مهمة عظيمة ، عملت أنا من ناحيتي على تمهيدها لهم" .

وحنى "**هنتر**" رأسه على مكتبه ، وتناول قلم حبر غمسه في المحبرة، ثم بدأ في تحبير اللوحة التي رسمها .. وقال "**لانسر**" لـ"**كوريل**" : " إنك قمتَ بعمل جليل ، وإن كنتُ قد تمنيتُ لو أنك لم تَقْتُل أولئك الأشخاص الستة. ليت جنودهم لم يعودوا إلى البلدة." .. ففتح "**كوريل**" يديه وقال باستخفاف : " إن قتل ستة رجال يُعَد خسارة تافهة بالنسبة لبلدة بهذا الحجم ، وفيها منجم للفحم كذلك!" .. فقال "**لانسر**" بحدة : " لست أنكر القتل إذا كان يُؤدي إلى الغاية ، ولكن من الخير أحيانا ألا نلجأ إليه!" .

وأخذ "**كوريل**" يتفحّص الضباط ، ثم قال وهو يشير بعينه إليهم : -"هل يمكننا أن نتحدث على حدة يا"كولونيل؟" . فقال "**لانسر**" : " أجل، إذا كنت تريد ذلك" .. ثم طلب من الملازم "**براكل**" والملازم "**توندر**" أن يذهبا إلى غرفتهما ، ثم قال لـ"**كوريل**" :

-"إن الماجور"**هنتر**" يعمل الآن، وهو لايسمع شيئا حينما يكون منهمكا في العمل" .

ورفع "**هنتر**" رأسه عن لوحته ، وابتسم بهدوء ، ثم عاود العمل ، بينما ترك الضابطان الشابان الغرفة ، فلما بارحاها، قال "**لانسر**" لـ"**كوريل**" : -" حسنا ، ها نحن قد خَلَوْنا إلى أنفسنا فتفضل بالجلوس" .

وجلس "**كوريل**" إلى المائدة وهو يقول: " شكرا ياسيدي" .

فحدّق "**لانسر**" في الضمادة التي على رأس الرجل ، وقال بفتور : -أتراهم شرعوا في اغتيالك بهذه السرعة؟؛.

فتحسس "**كوريل**" الضمادة بأصابعه وقال :"أتقصد هذه؟

– آه ، إنها من أثر حجر سقط من رَبْوة صباح اليوم!.

– أواثق أنت أنه لم يُلْقَ عليكَ عمدا؟

– ماذا تعني بهذا؟.. إن الشعب هنا لايَعْرف العنف ولم ير حربا منذ مائة عام . وقد نسي القتال وكل ما يتصل به!

– إنك عشت بينهم ، فخليق بك أن تكون على معرفة بهم!

ثم اقترب الكولونيل من "**كوريل**" وقال :

" ولكن إذا كنتَ في أمان حقيقة فلابد أن يكون هذا الشعب مختلفا عن غيره من شعوب العالم بأسره ! إنني لاأُلْقِي الكلام على عَوَاهنه، فقد سبق أن اشتركتُ في احتلال أقطار، فذهبت إلى "**بلچيكا**" . منذ عشرين عاما ، وكذلك "**فرنسا**" .. ثم هز رأسه ، وكأنه يريد أن ينزع منه هذه الفكرة .، وما لبث أن استطرد يقول : " إنك أديتَ مهمة طيبة تستحق عليها الشكر، وقد أشرتُ إلى عملك في تقريري " .

– شكرا لك ياسيدي ، لقد بذلتُ ما في وسعي .

وقال "**لانسر**" بشيء من الملل : " حسنا ياسيدي ، ماذا نفعل الآن؟.. هل تريد العودة إلى العاصمة؟ يمكننا أن ننقلك بإحدى سفن نقل الفحم ، إذا كنت في عجلة من أمرك ، أو بمدمرة إذا أردت التريث قليلا!" .

– ولكني لاأريد العودة، إذ إني أفضل البقاء هنا .

وفكر "**لانسر**" برهة ثم قال : " إنك تعلم أنه ليس تحت إمرتي جنود كثيرون ، ولهذا لايمكنني أن أوفر لك الحراسة المناسبة" .

– ولكنني لاأريد حرسًا ، وقد قلت لك : إن الناس هنا لايعرفون العنف!

فوجه "**لانسر**" نظره إلى الضمادة ، كما رفع "**هنتر**" رأسه وقال : " خير لك أن تضع خوذة على رأسك!" .. ثم عاد إلى عمله !

✽✽✽✽✽

وانحنى "**كوريل**" قليلا في مقعده وقال : " لقد أردتُ أن أحدثكَ ياكولونيل بصفة

خاصة ، إذ أظن أن في وسعي أن أسدي يدا في الإدارة المدنية" . فدار "**لانسر**" على عقبيه . وسار نحو النافذة وتطلع منها ، ثم عاد وقال بهدوء :

– فِيَم تفكر ؟" .

– لابد أن هناك سُلْطةً مدنية يمكنكَ إسنادُها إليّ . . فإني أعتقد أن هذا هو الوقت الذي قد يتخلى فيه العمدة "**أوردن**" عن منصبه و . . حسنا ! . . إذا توليت أنا هذا المنصب . فسوف يصبح عمل العمدة مُنْسجِما كل الانسجام مع الإدارة العسكرية !

وبدا كأن عيني "**لانسر**" قد اتسَعَتا واشتدبريقُهما ، ثم تقدم نحو "**كوريل**" وقال بحدة : " هل ذكرتَ هذا في تقريرك ؟" .

– أجل . لقد ذكرتُه بطبيعة الحال، في تحليلي للموقف !

– هل تحدثت مع أي شخص من أهل البلدة منذ وصولنا إليها؟

– لا ، فالناس مايزالون مَشْدوهين إلى حد ما ، لأنهم لم يكونوا يتوقعون ما حدث !

وغُصَّ حلقُه وهو يزدرد لعابهَ، ثم تابع حديثه قائلا : "لا ياسيدي ، إنهم قطعا لم يتوقعوا أن تتطور الأحوال بهذا الشكل !" .

– أي أنك لاتعرف في الواقع ما يدور في أذهانهم!

– إنهم كما قلت : مأخوذون . . إنهم . . إنهم في شبه حلم!

– أتراك لاتعرف ما يظنُّونَه فيك؟

– إن لي أصدقاءً عديدين هنا . بل إنني أعرف كلَّ الناس !

– هل اشترى أحدُُ شيئا من متجرك في هذا الصباح؟

– إن الأعمال راكدة بطبيعة الحال ، وليس هناك من يشتري شيئا!

وخفتْ حدة "**لانسر**" فجأة ، ثم تقدم نحو مقعد وجلس ، ووضع ساقا على ساق ، وقال بهدوء : " إن الخدمةَ التي أدَّيْتَها هي في الواقع مهمة شاقة تحتاج إلى الشجاعة ، ويجب أن تكون مكافأتك عظيمة !" .

– شكرا ياسيدي .

– ولكنهم سوف يكرهونك على مر الأيام!

– أستطيع احتمال هذا ياسيدي ، إنهم العدو!

وتردد "**لانسر**" برهة طويلة قبل أن يَتحَدّث ثم قال بلطف : إنك لن تكسب .. حتى احترامنا نحن!" .. فقفز "**كوريل**" عن مقعده ثائرا ، وقال : –"إن هذا يُناقض كلمات الزعيم الذي قال إن جميع أنواع العمل مشرفة على السواء !" .. ولكن "**لانسر**" قال في هدوء: " وددتُ لو أن الزعيم يعرف ، وأن يَتمَكّنَ من قراءة أفكار الجنود !" .. ثم أضاف في لهجة تكاد تكون مقرونة بالعطف :" يجب أن تكافأ مكافأة عظيمة!" .

وسكت "**لانسر**" برهة ، ثم جمع نفسه وقال :" والآن يتعينُ أن نحدد الأمور .. فأنا المسؤول عن كل شيء هنا ، ومهمتي هي استخراج الفحم من المناجم ، ولكي أصل إلى هذه الغاية ، يجب أن أحافظ على الأمن والنظام .. ولكي أفعل هذا يجب أن أعرف مايدور في عقول هذا الشعب ، ولامَعْدى لي عن أن أتوقع الثورة .. هل فهمتَ ؟" .

– حسنا ، إن في وسعي أن أهتدي إلى ما تودُّ معرفته ياسيدي ، وسوف أكون عظيم النفع كعمدة للبلدة !

فهز "**لانسر**" رأسه وقال :" ليس لديَّ أوامر بهذا الشأن ، ولهذا فلا مَعْدَى لي عن أن أحكم على الأمور بنفسي ، وأعتقد أنك سوف لاتعرف بعد الآن شيئا عما يدور في هذه البلدة ، وأظن أنه ما من إنسان سيتحدث معك ، ولن تجد أحدا يقترب منك ، إلا الذين يعيشون على المال .. أي الذين لايمكنهم أن يعيشوا إلا على المال وحده ! وأرى أنك ستكون في خطر كبير إذا تجردتَ من الحراسة ، ولسوف يسرني أن تعود إلى العاصمة ، لكي تكافأ أيضا على عملك الكبير!" .

– ولكن مكاني هنا ياسيدي ، وقد حدَّدْتُ مركزي ، وكتبتُ عن كل هذا في تقريري!

فاستطرد "**لانسر**" يقول وكأنه لم يسمع كلام "**كوريل**" :" إن "**أوردن**" أكثر من عمدة هنا .. إنه الشعب !.. وهو يعرف ما يفعله الشعب وما يفكر فيهَ ، دون أية حاجة للسؤال عن هذا ، لأنه يفكر فيما يفكر فيه هذا الشعب ، ويكفي أن أراقبه لأعرفَ كل شيء عن الشعب، ولهذا يجب أن يبقى .. هذا هو رأيي !" .

- إن عملي ياسيدي جدير بما هو خير من الإبعاد .

- إن هذا صحيح في الواقع ، ولكنك أصبحتَ أكثر ضررا للعمل الأكبر ، وإذا لم تكن مكروها الآن ، فلن تلبث أن تصبح كذلك ، وستكون أول من يُقْتل في أية ثورة صغيرة، ولهذا أعتقد أنني سأقترح إعادتك إلى العاصمة ؟" .

فقال "**كوريل**" بحدة : " ستسمح لي طبعا بانتظار الرد على التقرير الذي أرسلته إلى العاصمة؟" . .

- سأفعل هذا بطبيعة الحال، ولكني سأوصي بإعادتك حرصا على سلامتك . وإذا أردتَ الصراحة يا سيد "**كوريل** أقول لكَ: إنه لم تعد لك قيمةٌ هنا ! ولعله من الخير لك أن ترحل الآن إلى بلدة أخرى في قطر آخر ، وربما أتيح لك هناك أن تتولى السلطة في بلدة أكبر، وقد تسند إليك مهمةُ إدارة مدينة لابلدة ، وتتاح لك مسؤوليةٌ أكبر ، وسلطة أعظم ، وسوف تتهيأ لك الفرصة لكسب ثقة جديدة في ميدان جديد، وربما تعين علي أن أقدم خير توصية بشأنك تقديرا لخدماتك الجليلة التي أديتَها هنا!

وشعَّتْ عينا "**كوريل**" ببريق الامتنان ، وقال :" شكرا لك ياسيدي ، لقد قمتَ بمجهود شاق ، وقد تكون على حق في أقوالك ، ولكني أرجو أن تسمح لي بالبقاء هنا حتى أتلقى ردا من العاصمة!" .

فقال "**لانسر**" في حزم وقد ضاقت عيناه واخشوشن صوته :

-" ضع خوذة على رأسك ، والتزم دارك ، ولاتخرج في الليل.

ولعل أهم الأمور جميعها هو ألا تشرب شيئا مُسْكِراً، ولاتثق بأية امرأة أو أي رجل ، هل فهمت هذا ؟" .

فنظر "**كوريل**" إلى الكولونيل مشفقا وقال:" لا إخَالك تفهم الموقف . . إن لي منزلا صغيرا تخدمني فيه فتاة قروية لطيفة ، أعتقد أنها تُكِنُّ لي شيئا من الود، وهؤلاء الناس قوم مسالمون . وإني لأعرف ذلك!" . . فقال "**لانسر**" :

- " ليس هناك قوم مسالمون ، فمتى تراك تفهم ذلك؟ . . ألا تستطيع أن تدرك أن هذا الشعب ليس صديقا لنا؟! . . إننا غزونا هذه البلاد ، وقد هيأت لنا أنتَ ذلك بما

يعتبرونه غدرا وخيانة!" .

واحمر وجه "**لانسر**" ، وارتفع صوته وهو يقول :

" ألا يمكنك أن تفهمَ أننا في حرب مع هذا الشعب؟" .

فقال "**كوريل**" بشيء من الاستخْذاء: " لقد هَزَمناه!" . وإذ ذاك هبَّ الكولونيل واقفا وطوح ذراعيه في يأس ، فرفع "**هنتر**" رأسه عن لوحته ، ووضع يده عليها حتى لاتهتز ، ثم قال : " مهلا ياسيدي ! إنني أُحَبِّر الرسم ، ولا أود أن أعيد تحبيره من جديد !" . فنظر إليه "**لانسر**" وقال :

-"آسف!" . ثم استطرد وكأنه معلم يُلْقي درسا على فريق من الطلبة: " إن الهزيمة عَرَضٌ وقتي لايدوم ! وقد سبق لنا أن تذوقنا الهزيمة ، وهأنتذا تجدنا الآن نغزو .. أعني أن الهزيمة ليست ذات قيمة ، ألا تفهم هذا ؟ أتعرف ما يتهامسون به خلف الأبواب الموصدة ؟" .. فقال "**كوريل**" : -"أوتعرفه أنت؟" .

- لا ، ولكنني أستطيع التخمين!

فقال "**كوريل**" ساخرا :

" أتراك خائفا يا كولونيل؟ هل يخاف قائد الاحتلال ؟" .. وهنا جلس "**لانسر**" وهو يقول:

-" ربما كان الأمر كذلك!" .. ثم أضاف قائلا بشيء من الاشمئزاز : " لقد سئمتُ أولئك الذين لم يسبق لهم أن اشتركوا في حرب ، ويَدَّعون أنهم يعرفون كل شيء عنها!" .. وأمسك ذقنه بيده ثم قال : " إنني أتذكر سيدة كانت في "**بروكسل**" .. سيدة ضئيلة الجسم ، متقدمة السن، ذات وجه صبوح وشعر أبيض .. لم يكن طولها يزيد على متر ونصف المتر وكانت لها يدان رقيقتان ، تستطيع أن ترى عروقها بارزة من تحت جلدهما في لون يكاد يكون أسود!.. وكانت تغطي رأسها الأشيب بوشاح أسود اللون . وقد اعتادت أن تُغَني لنا أناشيدنا القومية في صوت حلو مُرتعش!" .. وأنزل الكولونيل يده من تحت ذقنه ، وخفتَ صوتُه وهو يتحدث، فبدا كما لو كان نائما: " ولم نكن نعلم أن لها ابنا نُفِّذ فيه حكمُ الإعدام .. وقد اضطُرِرنا في النهاية إلى قتلها

رميا بالرصاص،بعد أن قتلتْ اثني عشر جنديا من رجالنا بدبوس طويل من النوع الذي يستخدم في تثبيت القبعات على الرأس ! وما زلت أحتفظ بهذا الدبوس في داري .. إنه طويل مدبب السن ، تعلوه حِلْية تشبه الطائر ، ذات لون أحمر وأزرق" .

فقال "**كوريل**" :" ولكنكم أعْدمْتُموها .أليس كذلك؟" .

– أجل .. لقد أعدمناها رميا بالرصاص طبعا.

فسأله "**كوريل**" :" وهل توقفتْ حوادث الاغتيال بعد ذلك؟" .

– لا ، لم تتوقف ، وإنما ظلت مستمرة . وعندما انسحبنا عَمَدَ الناس إلى عزل المتخلفين من جنودنا ، وأحرقوا بعضهم وفقئوا أعين آخرين .. بل إنهم صَلبوا بعضا منهم!

فصاح "**كوريل**" بصوت عال :

" هذه أشياء ينبغي ألا تُقال ياسيدي الكولونيل!" .

– "بل إنها أشياء يجب ذكرها !

– ما كان ينبغي أن تتولى القيادة ما دمت خائفا!

فقال "**لانسر**" بلطف :" هأنتذا ترى أنني أعرف كيف أقاتل ، وما دام المرء يعرف ذلك فليس له أن يرتكب أخطاء سخيفة!" .

– هل تتحدث بهذا الأسلوب مع صغار ضباطك؟

فهز رأسه وقال :" لا ، لأنهم لن يُصَدقوني !"

– فلم إذن تحدثني به ؟

– لأن مهمتَكَ قد انتهتْ يا سيد "**كوريل**" ، وإني لأذكر أنه حدث ذات مرة أن...

*****

وقطع عليه حديثه صوتُ أقدام تصعد السلم مسرعة، ثم فتح الباب في عنف ، وظهر حارس ، اندفع من ورائه الكابتن "**لوفت**" بوجه مكتئب في صرامة الرجل العسكري وقال:

" هناك اضطرابات ُيا سيدي! " .

– اضطرابات ؟!

– آسف إذ أراني مضطرا لإبلاغكم بأن الكابتن "**بنتيك**" قد قُتِل!

– آه .. "**بنتيك**" !

وسمع صوت وقع أقدام على الدَّرَج، ثم دخل رجلان يحملان مِحَفّة عليها شخص مُغَطى بالبطاطين ، فقال "**لانسر**" أمتأكد أنت من أنه مات؟" .

فأجاب "**لوفت**" في جزم :" أجل ياسيدي، إنني متأكد من ذلك كل التأكد !"

وجاء الضباط الآخرون من غرفة النوم ، وقد ظهرت عليهم آيات الفزع ووقفوا مشدوهين ينظرون إلى زميلهم المسَجَّى على المحفة وقد فغروا أفواههم ، وقال "**لانسر**" : ضعوا المحفة هناك!" وأشار نحو الجدار بجانب النوافذ . وعندما خرج الحاملان – اللذان كانا يرفعان المحفة – ركع "**لانسر**" ورفع طرف البطانية ، ولكنه لم يلبث أن رده بسرعة ، وقال وهو مايزال جاثيا على الأرض :" من فعل هذا ؟" .

فقال "**لوفت**" :" أحدُ عمال المناجم " .

– ولماذا ؟

– لقد كنتُ هناك ياسيدي وشاهدت الحادث.

– أدل إلي بتقريرك إذن ! قل ما رأيت!.. ماذا بك يارجل ؟.. قل وأسرع .. لعنة الله عليك!

فاستجمع "**لوفت**" أنفاسه وقال بلهجة رسمية :

–" لقد ذهبتُ لأحل محل الكابتن "**بنتيك**" كما أمرني سيدي الكولونيل، وعندما أوشك الكابتن" **بنتيك**" على الرحيل عائدا إلى هنا ، لاقيتُ بعضَ المتاعب من عامل عنيد أراد ترك العمل، وصاح بأقوال معناها أنه رجل حر ، فلما أمرته بمواصلة العمل ، هاجمني بمعول ، فحاول الكابتن "**بنتيك**" التدخل" .. ثم أشار "**لوفت**" نحو الجثة، فحنى "**لانسر**" رأسه ببطء وهو مايزال ُجاثيا على ركبتيه ، وقال:" لقد كان "**بنتيك**"

رجلا غريبَ الأطوار ، وكان يحب الإنجليز وكل ما يمت إليهم بصلة ، ولا أعتقد أنه كان يحب القتال!.. هل قبضتَ على الجاني ؟".. فقال "**لوفت**" : "أجل ياسيدي" . وإذ ذاك نهض "**لانسر**" في تؤدة ، قال وكأنه يُحدث نفسه : " إذن ، فقد تجدد القتال مرة أخرى!..

سنُعْدِم هذا الرجل، وبهذا نخلق لنا عشرين عدوا جديدا!..إنه الشيء الوحيد الذي نعرفه .. إنها الوسيلة الوحيدة التي نملكها !" .

فقال "**براكل**" : ماذا قلتَ ياسيدي ؟".. فأجاب "**لانسر**" : " لاشيءَ .. لاشيءعلى الإطلاق .، إنما كنت أفكر ، وهذا كل ما في الأمر !".. ثم تحول إلى "**لوفت**" وقال : " أرجو أن تُبلَغّ العمدة "**أوردن**" تحياتي ، وتطلب إليه أن يأتي لمقابلتي في الحال لأمر غاية في الأهمية" .

ورفع "**هنتر**" رأسه ، ثم جفف قلمه بدقة وتؤدة ، ووضعه في علبة مكسوة بالمخمل.

الفصل الثالث

كان الناس يمشون في شوارع البلدة وعلى ملامحهم أماراتُ الكآبةِ والعبوس ، وقد اختفى من أعينهم بعض بريق الدهشة التي اعترتهم عندما باغتَهَم العدو بغزو بلدتهم، على أن لهيب الغضب حل مَحَلّ الدهشة . . فكان العمال في منجم الفحم يَدْفعون العربات أمامهم وقد تجهّمتْ أساريرُهم. . بينما وقف صغار التجار وراء مناضد البيع في متاجرهم متأهبين لخدمة العملاء ، دون أن يسعى إليهم أحد. . كان كل إنسان يفكر في الحرب، ويفكر في نفسه ويفكر في الماضي الذي تغيرَّ فجأة!

وفي قاعة الاستقبال بدار العمدة "**أوردن**" ، كانت الأنوار مضاءة ، والنار مشتعلة للتدفئة ، بينما كان الجو في الخارج مظلما شيئا ما و مُثْقَلا بالرطوبة ، وكانت القاعة نفسها قد تعرضت لبعض التغيير، فإذا المقاعد المكسوة بالقماش المزركش قد دُفعتْ إلى الوراء – لصق الجدران – وأزيُحَت الموآئد الصغيرة من وسط الغرفة . . وعند الباب ظهر "**جوزيف**" و"**آني**" وهما يناضلان في إدخال مائدة كبيرة مربعة ، أَمَالاها على أحد جوانبها . . وكان "**جوزيف**" قد دخل القاعة ، بينما ظلت "**آني**" – بوجهها الأحمر – خارجها . . وأخذ "**جوزيف**" يحاول جاهدا أن يُدْخل سيقان المائدة خلال الباب .

وكانت "**آني**" غاضبة . . بل إنها كانت تبدو على الدوام غاضبة ، فلم يتحسّن طبعها برغم وجود الجنود ، واحتلال البلدة . . فإن هذا المظهر – الذي ظل أعواما يعد من العيوب والنقائص – أصبح الآن عاطفة وطنية ، أكسبت "**آني**" بعضَ الشهرة في الناحية القومية ، لاسيما بعد أن قذفتْ جنود الاحتلال بالماء الساخن ، وكانت في الواقع خليقَة بأن تُلْقِي بهذا الماء الساخن في وجه أي شخص يقترب من مطبخها – في الأوقات العادية– ولكنها مع هذا أصبحت بطلة! ولما كان الغضب بداية نجاحها فقد مضت تزيد من مظاهر غضبها ، حتى أصبح هذا الغضب طابعها الدائم ، وبهذا أخذَت تخرج من نجاح لتدخل في آخر، وقال "**جوزيف**" عندما حُشرت المائدة في المدخل : –"لاتدفعي . . تمهلي قليلا! " .

– إنني متمهلة!

وترك "**جوزيف**" المائدة ووقف بعيدا يدرس وضعها ، بينما وقفت "**آني**" مكتوفة اليدين تنظر إليه في غضب ، ثم أمسك "**جوزيف**" بساق المائدة ، وقال :" لا تدفعيها! .. لاتدفعيها بشدة" . وبشيء من الجهد تمكن بمفرده من إدخال المائدة ، فتبعته "**آني**" مكتوفة الذراعين ، حتى إذا صارت المائدة في داخل الغرفة ، طَلَب إلى "**آني**" أن تُسَاعده في إقامتها على سيقانها ونقلها إلى منتصف القاعة ، فقالت "**آني**" :" لو أن صاحب السعادة العمدة لم يأمرْني لما فعلت ما فعلت الآن !

أي حق لهم في نقل الموائد ؟" .. فقال "**جوزيف**" "وبأي حق جاءوا إلى هنا؟" .

– لاحق لهم على الإطلاق!

– أجل ، لا حق لهم، ولكنهم يفعلون هذا بفضل مدافعهم ومظلاتهم يا "**آني**" !

– ليس لهم أي حق في كل هذا . ولكن ماذا يريدون مع هذا من نقل مائدة إلى هنا؟.. إن هذه ليست قاعة طعام!

ونقل "**جوزيف**" مقعدا إلى جوار المائدة ، ثم وضعه بدقه كبيرة في الوضع المناسب! وقال :" إنهم سيعقدون محاكمة، وسيُحاكمون "**ألكسندر موردن**" .

– زوج "**مولي موردن**" ؟

– أجل ، زوج "**مولي موردن**" !

– ألأنه ضرب ذلك المخلوق بالمِعْول ؟

– أجل!

– ولكنه رجل لطيف ، ولا حق لهم في محاكمته !.. لقد أهدى "**مولي**" ثوباجميلا أحمر اللون في عيد ميلادها ، قل لي ، بأي حق يحاكمون "**ألكسندر**" ؟

– لأنه قتل ذلك الشخص.

– وهب أنه فعل ذلك ،فأي وزرٍ في الأمر ؟.. لقد كان ذلك المخلوق يُصدر الأوامر "**ألكسندر**" بأن يعمل هذا وذاك .

و"**ألكسندر**" لايُحبُّ أن يَتَلقى أوامرَ من أحد.. فقد كان يوما ما "**شيخ**" البلدة، وكذلك كان والده!.. وإن "**مولي موردن**" لتجيد صنع الفطائر اللذيذة، وإن كانت حلاوتها تزيد على المألوف!.. وماذا تراهم سيفعلون بـ"**ألكسندر**"؟

– سيعدمونه رميا بالرصاص!

– إنهم لايستطيعون أن يفعلوا ذلك!

– أحضري المقاعد يا "**آني**". إن في إمكانهم أن يفعلوا ذلك، وسيفعلونه!

فَلَوّحت "**آني**" بأصبعها في وجهه بعنف وهي تقول في غضب:

– "تذكر كلماتي هذه! إن الناس لن يَرْضَوا بأن يصاب "**ألكسندر**" بأذى، لأنهم يحبون "**ألكسندر**"! هل سبق له أن مَسَّ أحدا بأذى؟.. أجب عن هذا!".

– لا، لم يسبق له أن فعل شيئا كهذا – إذن فالأمر واضح.. وإذا هم قتلوا "**ألكسندر**"، فسوف يُجَن الناس، وسأجن أنا أيضا، ولن أوافق على هذا، ولن أحتمله!

– وماذا ستفعلين؟

– ماذا؟ سأقتل بعضَهم بنفسي!

– وعندئذ يَعْدِمونك!

– ليفعلوا ذلك!.. اسمع يا "**جوزيف**"، إن الأمور قد تَتَطَور وتذهب إلى مدى بعيد.. ألا يكفيهم أن يذرعوا الشوارع في جميع ساعات الليل وهم يقتلون الناس؟!

ووضع "**جوزيف**" مقعدا عند رأس المائدة، ثم تغيرت حاله فجأة، فبدا كمن يُضْمر سرا خطيرا.. إذ نادى "**آني**" بصوت يقْربُ من الهمس فتريثت قليلا، وقد أوجست من لهجته، ثم اقتربت، فسألها: "هل تصونين سرا؟". فحَدَجَتْهُ بشيء من العجب، إذ إنها ما عرفته يوما يحتفظ بسر، وقالت: "أجل. فما هو هذا السر؟".

– لقد هرب "**وليم ديل**" و"**والتر دوجل**" في الليلة الماضية.

– هربا؟ إلى أين؟

– سافرا إلى "**إنجلترا**" في سفينة!

وزفرت "**آني**" بسرور وسألته : " وهل يعرف الجميع هذا؟" .

– لا ، ليس كل الناس .. أو على الأصح الجميع يعرفونه ما عدا .. وأشار بأصبعه إلى الطابق العُلْوي ، فقالت "**آني**" " ومتى سافرا ؟ ولماذا لم أسمع أنا عن هذا؟" .

– لقد كنتِ مشغولة.. هل تعرفين ذلك الشخص "**كوريل**" ؟

– أجل..

فاقترب منها "**جوزيف**" وقال: " ما أظنُّه سيعيش طويلا: " .

– ماذا تعني؟

– الجميع يقولون ذلك!

فتنهدت "**آني**" مغتبطة وقالت: " آهـ.. ها!" .. وما لبث "**جوزيف**" أن عاد يقول مبديا رأيه : " إن الناس أخذوا يتقاربون فهم لايَقْبلون الهزيمة ، وسوف تقع أمور .. فافتحي عينيك يا"**آني**" ، إذ إنك لن تلبثي أن تجدي أمورا كثيرة في وسعك أن تؤديها! " .

وما موقف سعادة العمدة ؟ ماذا تراه فاعلا؟

– لاأحد يعرف ، فهو لايقول شيئا.

–لايمكن أن يكون مناهضاً لنا!

– إنه لم يقل شيئا من هذا.

ودار مقبض الباب القائم إلى اليسار، ثم انفتح البابُ ودخل العمدة"**أوردن**" وهو يسير بتؤدة ، وقد ظهرت عليه علامات التعب وكبر السن ، ودخل وراءه الدكتور "**وينتر**" فقال "**أوردن**" : هذا تنظيم حسن يا"**جوزيف**" .. أشكرك يا "**آني**" .. إن المنظر عامة يبدو على خير ما يرام!" .. وخرج الخادمان ، حتى إذا أصبحا خارجِ الغرفة ، استدار "**جوزيف**" ونظر خلال بابها برهة قبل أن يُغْلقه.

*****

وسـار العـمـدة "**أوردن**" إلى المدفأة ، فوقف وظهره إليها، بينما سحب الدكتور "**وينتر**" المقعد الموضوع عند رأسِ المائدة وجلس عليه وما لبث "**أوردن**" أن قال :

–" لست أدري إلى متى يطولُ بقائي في هذا المنصب؟.. إن الشعب لايثق بي تماما.. وهذه أيضا حال العدو . ولستُ أدري إن كان في هذا أيٌّ خيرا" .. فقال "**وينتر**" :

–"ولا أدري . ولكنك تثق بنفسك .. أليس كذلك؟.. إنك لاتشعر بأي قلق إزاء مسلكك ؟!" .

– قلق ؟ لا . إنني العمدة ، ولكني مع هذا لاأفهم أمورا عديدة .. فلستُ أعرف مثلا لماذا يَعْقدون المحاكمة هنا؟..

إنهم سُيَحاكِمون "**ألكسندر موردن**" هنا بتهمة القتل .. هل تتذكر "**موردن**" ؟. إنه زوج تلك الفتاة الرقيقة "**مولي**" !

– إنني أذكرها ، فهي الفتاة التي كانت تتولى تدريس قواعد اللغة في المدرسة. أجل إنني أذكرها جيدا، فهي جميلة وتكره أن تضع "النظارة" على عينيها حينما تُضْطر إلى استعمالها!.. أظن أن "**ألكسندر**" قتل ضابطا .. حسنا، ولكنهم لم يُجْروا أي تحقيق معه!

فقال "**أوردن**" بمرارة:" لم يُحِّققْ معه أحد. ولكن لماذا يحاكمونه ؟ لماذا لم يعدموه رميا بالرصاص ؟ إنها ليست مسألة شك أو يقين ، ولاظلم أو عدل .. لا ، ليس الأمر كذلك هنا ، فلماذا يُصِرُّون على أن يحاكموه، وأن يحاكموه هنا في داري بالذات؟" .

– أظن أن الغرض هو المظهر فقط ، وأعتقد أن لهم هدفا من وراء ذلك. إنك إذا بحثت في الموضوع من الناحية الشكلية عرفت السر.. والناس يَقْنعون أحيانا بالشكليات. لقد كان لدينا جيش – أعني جنودا مُزَوَّدين بالبنادق – ولكنه لم يكن جيشا بالمعنى الحقيقي ، وإنما كان مظهرا للجيش .. كذلك سيُقيم الغزاةُ محاكمة على أمل أن يُقْنعوا الناس بأنهم أمناء على العدالة .. وإنك لتعلم أن "**ألكسندر**" قتل الكابتن!

– أجل . . إنني أعرف ذلك.

فاستطرد الدكتور "**وينتر**" قائلا : " فإذا تم ذلك في منزلك الذي يَنْتَظِر الناس منه العدالة . . " .

وقطع حديثه ، إذ فُتِح البابُ القائم إلى اليمين ، وولجت سيدة شابة في نحو الثلاثين من العمر ، جميلةُ الطلعة ، تُمْسك "نظارة" في يدها . وكان زيُّها بسيطا ونظيفا . . أما هي فكانت منفعلة ، مهتاجة ، بادرت إلى الحديث في لهجة سريعة، قائلة:

–" لقد أبلغتْني "**آني**" أن في استطاعتي الدخول رأسا ياسيدي!" . . فقال العمدة:

– " لابد أنك "**مولي موردن**"؟" .

– أجل ياسيدي، أنا "**مولي**" . إنهم يقولون :"إن "**ألكسندر**" سيُحاكَم ويُعْدَم!

فحنى "**أوردن**" رأسه ، وثبت نظره في الأرض برهة، بينما تابعت "**مولي**" حديثها قائلة:

–" إنهم يقولون :"إنك أنت الذي سيُصْدِر الحكم عليه ،وأن كلماتك هي التي ستَقْضِي عليه !" .

فأجفل "**أوردن**" ، ورفع رأسه قائلا: ما هذا ؟. . من يقول هذا؟" .

– الناس في البلدة!

وانتصبت قامتها، وهي تتساءل في رجاء مُقْتَرِن بالحزم:

–" إنك لن تفعل هذا !< . أليس كذلك ياسيدي؟" .

وقال الدكتور "**وينتر**" :" إنه لسر عظيم !. . إنه سر حَيَّر الحكام في جميع ربوع العالم. . ألا وهو : كيف يعرف الناس خوافي الأمور . . وهذا ما يُحَيِّر الغزاة الآن ، كما قيل لي . فقد أصبحوا لايدرون كيف تتسرب الأنباء برغم الرقابة، وكيف تَشُقّ حقائقُ الأشياء طريقها إلى الناس برغم كل شيء. .

إنه لسر عظيم في الواقع!" .

ورفعت الفتاة نظرها وقد بدت مذعورة – إذ ساد الظلام القاعة فجأة – وقالت:

– إنها سحابة . سحابة تُنذر بسقوط الجليد ، وإن كان موعده مايزال مبكرا" . .

فسار الدكتور "**وينتر**" نحو النافذة ، وتطلع إلى السماء ثم قال :

– إنها سحابة كبيرة ، ولعلها تمرُّ بسلام!" .. وأضاء العمدة "**أوردن**" مصباحا كهربائيا، ولكن ضوءه لم يَقْو على الظلام ، فأطفأه مرة أخرى وقال :

– إن الإضاءةَ في النهار تُشيع الوحشة!" .

واقتربت "**مولي**" منه وقالت:

– إن "**ألكسندر**" لم يقصدْ اغتيال ذلك الرجل ، وإنما هو شخص حاد الطباع فقط ، ومع هذا لم يسبق له أن خرق القانون . إنه رجل محترم!" .

فألقى "**أوردن**" يده على كتفها وقال :

– إنني عرفتُ "**ألكسندر**" مذ كان صبيا صغيرا ، وكنت أعرف والده وجده ، فقد كان جده يَصِيد الدببة في الزمن الغابر . هل تعرفين ذلك؟" .

فتجاهلت "**مولي**" سؤاله هذا وقالت:

–إذن فأنت لن تَحْكُمَ على "**ألكسندر**"؟" .

– لا . كيف أستطيع الحكم عليه؟!

– إن الناس يقولون : " إنك ستفعلُ هذا لمصلحة الأمن !

فوقف "**أوردن**" خلف أحد المقاعد وأمسك ظهره بيديه وقال: " هل يرغب الناس في الأمن يا "**مولي**؟" .

– لست أعلم .. إنهم يريدون الحرية!

– حسنا ، وهل يعرفون كيف يصلون إليها؟.. هل يعرفون الوسيلة التي يستخدمونها ضد عدو مسلح؟

– لا . لا أعتقد هذا!

– إنك فتاة ذكية يا "**مولي**" . أتعرفين ذلك؟

– لا ياسيدي ، ولكنني أعتقد أن الناس يشعرون بأنهم سيُغلبون على أمرهم إذا ظلوا مُتَرَاخين، وهم يريدون أن يُظْهروا لهؤلاء الجنود أنهم لايغلبون على أمرهم!

وقال الدكتور "**وينتر**" : " إن الفرصة لم تسنح لهم كي يقاتلوا .. وما كان قتالا أن يقفوا أمام المدافع الرشاشة" .

بينما قال "**أوردن**" : " عندما يُتاح لك أن تعرفي ما يريدون عمله ، فهل تخبرينني به يا"**مولي**" ؟" .. فتطلعت إليه الفتاة مرتابة، وقالت : -"نعم!" .

- بل أنت تَعْنين لا .. لأنك لاتثقين بي!

- ولكن ما الذي سيَحْدث لـ"**ألكسندر**" ؟

- لن أحكم عليه ، لأنه لم يرتكب جريمة ضد شعبنا!

وظهر التردد على "**مولي**" ، ثم قالت:

- هل.. سيَقْتُلون "**ألكسندر**"؟" .. فرمقها "**أوردن**" متأثرا وقال :" يا طفلتي العزيزة! يالك من طفلة ! .. فشدتْ قامتها منتصبة وقالت:

-" شكرا" .. واقترب "**أوردن**" منها ، فقالت في ضعف :"لاتمسَّني.. أرجوك ، لاتلمسني !" .. فسقطت يده إلى جواره.

ووقفت الفتاة برهة جامدة كالتمثال ، ثم استدارت بعنف واتجهت نحو الباب وخرجت ، وما إن أغلقت الباب ، حتى فُتح ثانية ، وأقبل "**جوزيف**" قائلا:

- معذرة ياسيدي .. إن الكولونيل يريد أن يقابلك ، لقد قلت له : إنك مشغول ، لأنني عرفتُ أنها كانت هنا .. وسيدتي أيضا تريد مقابلتك" .

- فلتدخل زوجتي.

..... فخرج "**جوزيف**" ، وأقبلتْ زوجة العمدة على الفور وأنشأت تقول :

- إنني لاأعْرِف كيف سأديرُ البيت ، فإن فيه عددا من الناس فوق ما يحتمل ، و"**آني**" تبدو غاضبة طول الوقت" .

ولكن "**أوردن**" هتف بها:" صه!" فتطلعتْ إليه في دهشة وقالت: -"لاأعرف ماذا.."

- صه ! أريد منك يا"**سارة**" أن تذهبي إلى دار "**ألكسندر موردن**" .. هل

تفهمين؟.. أريد منك أن تَبْقَيْ مع "**مولي موردن**" طالما كانت بحاجة إليك.. لاتتحدثي ، وإنما ابقَيْ معها فقط !

فقالت الزوجة :" إن لدي مئاتٍ من المهام.."

– بل أريد منك يا "**سارة**" أن تبقي مع "**مولي موردن**" ولا تتركيها بمفردها .. واذهبي الآن !

وبدأت تفهم الموقف ، فقالت :" حسنا .. أجل ، سأذهب .. متى ستنتهي هذه المسألة؟" .

– لا أعلم وسوف أرسل لك "**آني**" عندما يحين الوقت .

فطبعتْ على خده قبلة وخرجت ، وإذ ذاك مشى "**أوردن**" إلى الباب ونادى "**جوزيف**" ، وقال له :" إنني مستعد الآن لمقابلة الكولونيل" .

*****

وأقبل "**لانسر**" وقد ارتدى زيا جديدا ، وتدلَّتْ من حزامه مدية صغيرة مزودة بالنقوش ، وعندما رأى "**أوردن**" قال:" صباح الخير ياسيدي هل يمكنني أن أتحدث إليك حديثا غير رسمي ؟" .. ووجه نظره نحو الدكتور "**وينتر**" ثم أضاف:" إنني أود أن أتحدث معك على انفراد" .

فسار "**وينتر**" متجها نحو الباب ، فما إن بلغه ، حتى ناداه "**أوردن**" وقال له :" هل ستحضر هذا المساء ؟" .

– وهل لديك عمل لي ؟

– لا ، لا .. إنما أود ألا أكون وحيدا!

– إذن فسأحضر !

– بهذه المناسبة يادكتور .. هل تظن أن "**مولي**" بخير؟

– أعتقد ذلك ، وإن كانت حالتها قريبة من "الهستريا" ، ولكنها من سُلاَلة قوية ، إذ إنها تنحدر من أسرة "**كندرلي**" كما تعرف .

– آه . لقد نسيت ذلك. أجل ، إنها من صلب "**كندرلي**" ، أليس كذلك؟

وخرج الدكتور "**وينتر**" وأَغْلَقَ الباب وراءه بلُطف ، وكان "**لانسر**" يقف متريثا في أدب ، ثم أخذ يراقب الباب وهو يُغْلَق ، وألقى نظرة على المائدة والمقاعد المحيطة بها ، وقال :" لاأستطيع ياسيدي أن أبلغك مدى أسفي لهذا الأمر ، وكنت أَتَمَنىً ألا يحدث". فانحنى "**أوردن**" ، بينما استأنف "**لانسر**" حديثه قائلا:" إنني أحبك ياسيدي وأحترمك ، ولكن لدي مهمة لابد من أن أؤديها ، وأنت بالتأكيد تقدر ذلك".

ولم يُجِبْ "**أوردن**"، وإنما أخذ يَنْظُر إلى عَيْنَيْ "**لانسر**" ويتفحصهما، واستطرد هذا قائلا:" إننا لانعمل من تلقاء أنفسنا!"(وكان "**لانسر**" يَتَوَقّفُ بين كل عبارة مترقبا ردا، ولكنه لم يظفر بهذا الرد ، فاسترسل يقول :" إن هناك نُظُما وُضِعتْ لنا ، ويتعين علينا اتباعها. إنها نظم وضعت في العاصمة . . إنك لتعرف أن هذاالرجل قَتَل ضابطا".

وأخيرا جاء رد "**أوردن**" ، إذ قال:" فلماذا لم تُعْدموه إذ ذاكَ. . لقد كان الوقت مناسبا لذلك!". . فهز "**لانسر**" رأسه وقال :" لن يُغَيرَ من الموقف شيئا أنا أوافقك على رأيك. . ولكنك تعرف مثلما أعرف أنا أن المقصود من العقاب هو ردع الناس ومنعُهم من اقتراف جرائم أخرى وما دام الغرض من العقوبة هو زَجْرُ الآخرين ، لذلك وجب أن تكون علنية، بل يجب أيضا أن تَتَّخذ مظهرا يؤثر على النفوس !".

ووضع أصبعه في حزامه ، وأخذ يعبث بمديته ، فاستدار "**أوردن**" واتجه إلى النافذة ، وأخذ يُطل منها ، ويتطلع إلى السماء المظلمة ، ثم قال :" لسوف يتساقَطُ الجليد الليلة".

– أنت تعلم يا سيد "**أوردن**" أن أوامرنا قاسية ، لاهوادةَ فيها ، إذن لابد لنا من أن نحصل على الفحم ، فإذا لم يحافظ شعبكم على النظام ويخضع للأوامر ، تحتم علينا أن نُعيد النظام بالقوة!

واشتد صوته وهو يقول :" سنُضْطَر إلى قتل الناس إذا اقتضانا الأمر . . فإذا شئتَ إنقاذ شعبك من الأذى ، وجب عليك أن تساعدنا في حفظ الأمن ، وقد رأت حكومتي أنه من الحكمة أن تَصْدر العقوبة من سُلْطَة محلية ، لأن هذا يساعد على استقرار

الأمن!" .

فقال "**أوردن**" بصوت خافت : " إذن فالناس يعرفون !..

إن هذا أيضا سر من الأسرار ! " ، ثم ارتفع صوتُه قليلا وهو يقول : -"أتريد مني أن أصدر حكما بالإعدام على "**ألكسندر موردن**" بعد محاكمته هنا ؟!" .

- أجل، وبذلك تُحقَن دماء كثيرة قد تُراق في المستقبل .

✲✲✲✲✲

واتَّجه "**أوردن**" إلى المائدة ، فسَحَبَ المقعد الكبير الموضوع عند رأسها وجلس عليه. وظهر فجأة بمظهر القاضي ، بينما كان "**لانسر**" يقف أمامه وكأنه المتَّهم! وأخذ العمدة ينقرُ على المائدة بأصابعه وهو يقول : " إنك وحكومتك لاتفهمان الناس .. إن حكومتك وشعبك هما الوحيدان في العالم اللذان ظلا قرونا يَمَنَّيان بهزيمة بعد أخرى ، لأنكم لاتفهمون الناس!" .. وتريث "**أوردن**" قليلا ثم تابع كلامه قائلا:

- إن هذا المبدأَ الذي تُشيرُ به ليس عمليا؛ لأني : عمدة ، فليس من حقي أن أصدر حكما بالإعدام ، وليس بين هذا الشعب من له هذا الحق، ولو أنني أصدرتُ حكما بالإعدام لَخَرَقْتُ القانون كما تخرقه أنت !

- أَخُرِق القانون ؟

- إنكم قتلتم ستة أشخاص عندما جئتم إلى هنا ، وقانونكم يُدِينكم جميعا بالقتل! .. ولكن لماذا ندخل في حديث سخيف عن القانون ياكولونيل ؟.. ليس هناك قانون بيننا وبينكم !

إنها الحرب! ألاَ تعلم أنكم ستُضْطرون إلى قتلنا جميعا ، وإِلا قتلناكم نحن في الوقت المناسب؟!.. إنكم قضيتم على القانون بدخولكم بلدتنا.. وقد حل محله الآن قانون آخر .. ألا تعرفُ ذلك؟

فقال "**لانسر**" : " أتسمحُ لي بالجلوس ؟" .

- ولماذا تسألني؟.. إنها أكذوبة أخرى .. ففي إمكانك أن تجعلَني أنهض عن هذا

المقعد ، إذا أنت شئت!

– لا .. إنني في الواقع ، سواء صدَّقتَ ذلك أو لم تُصَدِّقْه ، أحترمكَ وأحترم منصبك!

وَوَضَعَ جبينَهُ على يده برهة ثم قال: " هأنتذا ترى نوع تفكيري .. إنني ياسيدي شخص في سن مُعَيّنة ، وله ذكريات معينة ، ولكن تفكيري هذا ليس ذا قيمة ، ربما اتفقتُ معك في الرأي ، ولكن هذا لايُغَيِّر من الأمر شيئا. إن للطرازِ العسكري والسياسي الذي أعمل به اتجاهاتٍ وقواعدَ لاتَتَغَيَّر! " .

– وقد ثبتَ خطأ هذه الاتجاهات والقواعد في كل حالة فردية منذ بَدْءِ الخليقة!

فضحك "**لانسر**" بمرارة وقال : " إنني كفرد لي ذكريات معينة .. فقد أَتَّفِقُ معك في الرأي ، بل قد أُضيف إلى رأيك هذا القول: " إن أحدَ اتجاهات العقلية والطراز العسكري هو انعدام القدرة على التعلم ، والعجز عن إدراك شيء غير القتل .. فهذه مهمة العقلية العسكرية .. ولكني لستُ عبدا للذكريات! .. يجب إعدام عامل المنجم علنا ، لأن النظرية تَقْضي بأن الآخرين سيكفون عندئذ عن قتل جنودنا ؟" .

فقال "**أوردن**" : إذن ، فليستْ بنا حاجة إلى مزيدٍ من الحديث في هذا الأمر" .

– لا ، بل يجبُ أن نتكلم .. نريد منك أن تساعدَنا ..

فجلس "**أوردن**" في هدوء ، وأخلد إلى الصمت بُرْهَة ، ثم قال : –"سأصارحكَ بما سوف أفعله .. كم جنديا كانوا يطلقون المدافع الرشاشة التي قتلتْ جنودنا؟؛.

– لم يكونوا أكثر من عشرين على ما أظن !

– حسنا ، إذا أنت أعدمتُهم ، فأنني سأحكمُ على "**موردن**" !

– ما أظنك جادا في ذلك؟

– بل إنني جاد كل الجد!

– هذا ما لايمكن عمله كما تعلم..

– إنني أعرف ذلك، ولكن ما تطلبُهُ مني لايُمْكِنُ تنفيذُه.

فقال "**لانسر**" :" أعتقد أنني فهمتُ الآن ، والظاهر أن "**كوريل**" سيصبح عمدة

برغم كل شيء!" .. ثم رفع رأسه بسرعة وقال: " هل ستحضر المحاكمة؟" .

- أجل .

ونظر "**لانسر**" إليه في ابتسامة حزينة وقال : " أرانا قد أَخَذْنا على عاتقنا مهمة عسيرة .. أليس كذلك؟" .

- أجل . إنها المهمة الوحيدة المستحيل أداؤُها في هذه الدنيا.. الشيء الوحيد الذي لايمكن عمله!

- وما هي تلك المهمة؟

- محاولة القضاء على روح الإنسان ومعنوياته إلى الأبد!

وحنى "**أوردن**" رأسه قليلا على المائدة ، وقال دون أن يرفع بصره : -"لقد بدأ الجليد يتساقط دون أن ينتظر هبوط الليل.. وإني لأحب رائحة الجليد الحلوة الباردة!" .

الفصل الرابع

وما إن حانت الساعة الحادية عشرة حتى كان الجليد يسقط بغزارة وفي نُدَف كبيرة رِخْوة، وتعذرت رؤية السماء تماما. وأخذ الناس يسرعون الخُطى وسط الجليد المتساقط.

وتكدس الجليد في مداخل الأبواب ، وعلى التمثال المقام في الميدان العام، وعلى الخطوط الحديدية الممتدة من المنجم إلى الميناء .. وكذلك تكدَّسَ الجليد فأخذت العربات الصغيرة تَنْزلق عليه وهي تُدفَع باليد . وخيمت على المدينة ظُلمةٌ أشد حلكة من الغيوم نفسها ، وغشيَتْ المدينة كآبة شديدة وضَغينة أخذت تزداد تأججا واضطراما. ولم يكن الناس يمكثون في الشوارع طويلا ، بل يَدْلُفون من الأبواب ، ثم تُوصد الأبواب خلفهم . وكان يبدو أن ثمة عيونا ترقب ما يجري من وراء الستائر. وعندما كان العسكريون يمرون في الطريق، أو عندما كانت "الداورية" تجتاز الشارع الرئيسي ، كانت العيون التي تتطلع إلى تلك "الدوارية" عيونا باردة غَشِيتْها الكآبة والحزن . وكان الناس يَؤُمون المتاجر يشترون منها الأشياء الصغيرة اللازمة لغذائهم ، كما كانوا يطلبون السلع فيحصلون عليها ويدفعون ثمنها دون أن يُبَادلوا البائع تحية الصباح.

وكانت الأنوار مضاءة في غرفة الاستقبال بالقصر الصغير، وقد أخذتْ تنعكس على الجليد المتساقط خارجَ النافذة.. وكانت المحكمة مُنعقدة !.. وجلس "**لانسر**" على رأس المائدة ،وإلى يمينه "**هنتر**" .

ثم "**تونـدر**" ، وفي الطرف البعيد جلس الكابتن "**لوفت**" وأمامه رزمة صغيرة من الأوراق، بينما جلس العمدة "**أوردن**" إلى يسار الكولونيل في الناحية المقابلة ، وإلى جواره "**براكل**" الذي كان مُنْهَمِكا في الكتابة في دفتر أمامه، ووقف إلى جوار المائدة حارسان ثبت كل منهما "سكينا" في بندقيته، ووضع الخوذة على رأسه ، فكانا كتِمْثالين صغيرين من الخشبِ.. وكان يقفُ بينهما " **ألكس موردن**" ، وهو شاب ضخم له جبهة عريضة مُنْخَفِضة وعينان غائرتان وأنف طويل حاد وذقن ينبئ بقوة العزم وفم عريض ينطق بالشّهْوَة.. وكان عريض المنكبين صغير الردفين، وقد أخذ يقبض

يديه- المكَبّلَتين بالحديد والمبسوطتين أمامه – ويبسطهما ، وكان يرتدي بنطلونا أسود وقميصا أزرق فُتِحَ صدرُه ، وسترة سوداء لمعت من كثرة ما ارتداها !

وشرع الكابتن "**لوفت**" يقرأ من الورقة التي أمامه: " .. وعندما صدر إليه الأمر بالعودة إلى العمل ، رفض الإذعان، فلما تكرر صدور الأمر إليه ، هاجم الكابتن "**لوفت**" بالمِعْوَل الذي كان يحمله ، فتعرض له الكابتن "**بنتيك**" بجسمه .. " .

وسَعُل العمدة "**أوردن**" ، فلما توقف "**لوفت**" عن القراءة ، قال العمدة : " اجلس يا "**ألكس**" . فليأتِ أحدكما أيها الحارسان بمقعد له، فالتفت الحارس وجذب إليه مقعدا دون مناقشة .

وقال "**لوفت**" : " من المعتاد أن يقف السجين " .

فأجابه العمدة قائلا: " دَعْه يجلس ، ولن يعرف هذا إلا نحن ، واكتب إنه كان واقفا! " .

فقال "**لوفت**" : " ليس من المعتاد أن نزور التقارير" .

فكرر "**أوردن**" "اجلس يا **ألكس**" .

وجلس الشاب الكبير . وراحت يداه المصفدتان بالأغلال تتحركان في قلق في حجره .

وبدا "**لوفت**" يقول: " إن هذا لمناقِضٌ لكل .. " .

وقال "الكولونيل: " دعه يجلس" .

فتنحنح الكابتن "**لوفت**" ، واستأنف القراءة: " .. وتعرض له الكابتن "**بنتيك**" بجسمه فتلقىّ ضربة على رأسه هشّمت جمجمته " . ثم أردف "**لوفت**" قائلا : " وقد أرُفق بهذا تقريرٌ طبي . أتريد أن أقرأه ؟" . فأجاب "**لانسر**" : " لا حاجةَ بكَ لذلك . أسرعْ على قدر إمكانك! " .. وعاد "**لوفت**" إلى القراءة : " .. وقد شَهد بهذه الوقائع بعضُ جنودنا ، وأُرفقَت بهذا أقوالهم . وإن المحكمة العسكرية لتجد السجين مدانا بتهمة القتل المتعمَّد ، وتُوصِي بالحكم عليه بالموت! " .. وتطلعّ "**لوفت**" إلى الكولونيل

وسأله : " أتريد أن أقرأ أقوال الجنود؟" .

فتنهّد "**لانسر**" وهو يقول: " كلا" ، ثم التفت إلى "**ألكس**" وقال: "إنك لاتُنكر أنك قَتَلْت الكابتن!" .

وابتسم "**ألكس**" ابتسامة حزينة وقال : " لقد ضربتُه، ولاأعلم أنني قتلتُه !" .. فقال "**أوردن**" : " أحسنت يا "**ألكس**" .. وتبادلاً النظرات شأن الصديقين!

وقال "**لوفت**" : أتريد القولَ : إن أحدا غيرك قتله؟؛.. فأجاب "**ألكس**" بقوله: " لستُ أدري ، وإنما أنا ضربتُهُ ، ثم ضَرَبني شخص ما !" .

وقال الكولونيل "**لانسر**" : " هل لديكَ ماتقوله في تعليل الحادث؟.. لاأستطيع أن أفكرَ في شيء قد يغير من الحكم، ولكننا على استعداد لأن نُنْصِتَ إليك!" .

وقال "**لوفت**" : " أتشرفّ بأن أوجه النظر إلى أنه ما كان يحق للكولونيل أن يقول هذا، فإن كلامه ينطوي على أن المحكمة لم تكن نزيهة!" .. وضحك "**أوردن**" ضحكةً شاع فيها الجفاء، فنظر إليه الكولونيل وعلى شفتيه طيف ابتسامة ، وكرر قوله للمتهم : " هل لديك تعليل؟" .

ورفع "**ألكس**" يده يريد أن يُومِئ بها ، فارتفعتْ معها يَدُه الأخرى . وإذ ذاك بدت الحيرةُ عليه ، فاضْطُرّ إلى إعادة يديه حيث كانتا في حجره، وقال : " لقد استبدَّ بي الغضب عندئذ ، فإنني حادّ الطبع .. لقد أمرني بالعمل ، وأنا رجل حر ، فجُنّ جنوني وضربتُه ، وأعتقد أن ضربتي كانت شديدة، ولم يكن هو الرجل الذي قصدتُه !" ، ثم أشار إلى "**لوفت**" وقال: " هذا هو الرجل الذي كنتُ أريد ضربه!" .

فقال "**لانسر**" : " لا يعنينا من الذي كنَت تقصده بضربتك ، فإن أي رجل في محلك كان يفعل ما فعلتَ ، ولكن هل أنت نادم على ما بدر منك؟ ، ثم خاطب الجالسين إلى المنضدة بقوله : " من الأفضل أن يتضمنَ المحضرُ أَسَفَهُ على ما ارتكب !" .

وسأله "**ألكس**" قائلا: " أسفي؟ كلا! لستُ آسفا ، فقد أمرني بالذهاب إلى العمل .. أمرني أنا الرجل الحر!.. لقد كنت شيخاً من شيوخ البلد ، وقد أمرني بالذهاب إلى

العمل!".

- وإذا كان الحكم بالإعدام، أفلا تأسفُ عندئذ؟

وطأطأ "ألكس" رأسه، وحاول جاهدا أن يستوعب الفكرة، ثم قال: -" كلا.. أتعني أن أرتكب ما ارتكبتُ مرة أخرى؟"..

- هذا ما أعنيه!

ففكر "ألكس" مليا، ثم قال: "كلا، لاأحسبني آسفا!".

فقال "لانسر": اكتبْ في المحضر أن السجين كان غاية في الندم. إن الحكم ظاهر من تلقاء نفسه!.. أتفهمني؟"، ثم التفت إلى "ألكس" وهو يقول: " ليس للمحكمة سبيل آخر تسلكه، وقد تبين للمحكمة أنك مذنب فقضتْ عليك بالإعدام رميا بالرصاص في الحال، ولا أجد ما يدعو لأن أطيل عليك عذابَكَ، أثمّة شيء نسِيتَه ياكابتن "لوفت"؟".

فقال "أوردن": "لقد نسِيتَنِي!"، ثم نهض ودفع كرسيه إلى الوراء وسار إلى "ألكس"، فانتصب "ألكس" واقفا في احترام، على ما ألف منذ زمن بعيد، وقال العمدة: " أنا العمدةُ الذي اخْتَرتُموه يا "ألكس"!".

- أعرف هذا ياسيدي.

- إن هؤلاء القوم غزاة يا"ألكس". لقد استولوا على بلادنا بمفاجأتهم لنا، وبالخديعةِ والعنف!

فقال الكابتن "لوفت". "يجب ألا يُسْمح له بأن يقول هذا القول ياسيدي"..

فأجابه "لانسر": " صه! من الأفضل أن نسمعه.. أتريد أن يَهْمِس به من خلفنا؟".

واستمر "أوردن" في حديثه كأن أحدا لم يقاطعه: " عندما جاءوا وقعتْ الحيْرة بالشعب، وبي أنا أيضا.. لم نكن نعلم ماذا نفعل، واستعصى علينا التفكير، ثم جاء عملك فكان أول عمل علني.. وكان غَضَبُكَ الخاص بداية الغضب العام!..إنني أعلم ما يقال عنيّ في البلدة من أنني ضَالِعٌ مع هؤلاء القوم، وبوسعي أن أكشف للبلد عن

الحقيقة ، ولكنك أنتَ . . أنت ستَلْقَى حتفك ، ولهذا أحب أن تعلم الآن !" .

وطأطأ "**ألكس**" رأسه ثم رفعه وقال : " إنني أعلم ياسيدي" . . وهنا قال "**لانسر**" لأحد ضباطه : " هل فرقةُ إطلاق النار مستعدة؟" .

– إنها في الخارج ياسيدي .

– ومن قائدها ؟

– الملازم "**توندر**" ياسيدي .

فرفع "**توندر**" رأسه وقد بدت الصّرامةُ على وجهه ، وحَبَسَ أنفاسه! . . وقال "**أوردن**" في رقة: " هل أنت خائف يا "**ألكس**" ؟" .

فأجاب "**ألكس**" قائلا : " أجل ياسيدي " .

– لا أستطيعُ أن أُوصِيك بألا تخافَ ، فإنني لو كنت في موضعك لخفتُ أنا أيضا ، وكذلك كان يفعل هؤلاء الشبان . . آلهة الحرب!

وقال "**لانسر**" لـ"**توندر**" : " استدع فرقتك " ، فانْتَصَبَ "**توندر**" واقفا ، وذهب إلى الباب، وقال : " إن الفرقة هنا ياسيدي" .

ثم فتح الباب على مصراعيه، فظهر الرجال ذوو الخوذات . . وإذ ذاك قال "**أوردن**" : اذهب يا "**ألكس**" . . اذهب وأنت تعلم أن هؤلاء الرجال لن يجدوا الراحة . . لن يجدوا الراحة قط حتى يرحلوا أو يَلْقوا حتفهم! . . لسوف تكون السببَ في توحيدِ صفوف الشعب . إنها لحقيقة محزنة ، ولكنني أسوق إليك الخبر على أنه هدية صغيرة أُقَدِّمها إليك . ولكن الأمر كما أقول . . إنهم لن يعرفوا طعم الراحة على الإطلاق!" .

وأغمض "**ألكس**" عينيه بشدة ، فمال "**أوردن**" عليه وطبع قبلة على خده ، ثم قال له : " وداعا يا "**ألكس**" !" .

*****

وأخذ الحارسان بذراع "**ألكس**" ، فظل الشاب مُغْمِضا عينيه بشدة ثم قاداه إلى الخارج ، واستدارت فرقة إطلاق النار، وسُمِعت أصواتُ أقدامهم تَخْفُت وهي تخرج من

المنزل إلى الجليد ، ثم سَتر الجليد وقعُ الأقدام . وخيم السكون على الرجال الذين يجلسون خلف المائدة . ونظر "**أوردن**" صوب النافذة فرأى بقعة صغيرة من الأرض تنظفها يد سريعة من الجليد . وتفرّسَ فيها وهو شارد اللب ، ثم ما لبث أن حوّل عينيه عنها ، وقال للكولونيل: " أرجو أن تُدْركَ ما أنت مُقْدِم عليه! " .

وجمع الكابتن "**لوفت**" أوراقه ، فسأله "**لانسر**" :" هل سيُنفَّذ الإعدام في الميدان يا كابتن ؟" .

– أجل ، في الميدان ، إذ يجب أن يكون علنيا .

وقال "**أوردن**" : أرجو أن تكون مُدْرِكا ما أنت فاعل" . .

فأجابه الكولونيل" :" يارجلُ ، سواء أكنا مدركين هذا أم لم نكن ، فهو واجب لابد لنا من القيام به" .

وخيّم السّكون على الغرفة ، وأخذ كل من فيها يُصيخُ السمع . ولم يطل الأمر بهم، فقد سرى من بعيد صوت إطلاق النار، وزفر "**لانسر**" زفرة قوية ، بينما وضع "**أوردن**" يده على جبهته ، وشهق شهقة عميقة. ثم أُطْلقتْ طلقة من الخارج ، فتهشم زجاج النافذة ودار "**براكل**" حول نفسه متألما ، ورفع يده إلى كتفه وحملق فيها . وَهبّ "**لانسر**" واقفا وهو يصرخ قائلا :" إذن فقد بدأت الحركة؟.. هل جُرْحك خطير أيها الملازم؟" .. فقال "**براكل**" :" كتفي! " .

وتولى "**لانسر**" القيادة فقال :" ستكون ثمةَ آثار في الجليد يا كابتن "**لوفت**" ، وأريد أن يُفَتّش كل بيت بحثا عن الأسلحة، وأريد أن يُؤْخذ كل من عنده سلاح كرهينة!" . ثم التفت إلى العمدة وقال :" أما أنت ياسيدي فستُوضَع تحت الحراسة ، وأرجوك أن تفهم هذا : سنقتُلُ رميا بالرصاص خمسة أو عشرة أو مائة في مقابل كل واحد منا!" .. فأجابه "**أوردن**" في هدوء :" رجل له ذكرياتٌ معينه ! " .

وتوقف "**لانسر**" في وسط أمر كان يُلقيه ، والتفت في تمهل وبطء إلى العمدة ،. وفي برهة وجيزة فهم كل منهما الآخر . ثم شد "**لانسر**" قامته ، وقال في حدة:" رجل

لاذكريات له ! " .

.. وعاد يتابع أوامره قائلا : " أريد جمع كل سلاح في البلدة . اقبضوا على كل من يقاوم، وأسرعوا قبل أن تختفي آثار الأقدام على الجليد " .

وتناول أركانُ الحرب خوذاتهم وأعدوا مسدساتهم وشرعوا في الخروج .. وذهب "**أوردن**" إلى النافذة التي تحطم زجاجُها ، وتمتم في لهجة غلب عليها الحزن والأسى : " رائحةُ الجليد جميلةٌ ، عليلة! " .

الفصل الخامس

انقضت الأيام والأسابيع يأخذ بعضها بخناق البعض، وكرت الشهور متثاقلة .. كان الجليد يتساقط ويذوب ، ويتساقط ويذوب ، إلى أن تساقط وظل على حاله مُتَجمَّدا، فاكتست مباني البلدة الصغيرة الداكنة بما يشبه الأجراس والقبعات والحواجب من لباس أبيض ناصع .. وكانت ثمة خنادق عبر الجليد تصل إلى الأبواب ، أما في الميناء فكانت سفن الفحم تأتي فارغة وتعود مشحونة الوسق ، ولكن الفحم لم يكن يستخرج من الأرض بسهولة .. فإن المعدنيين البارعين كانوا يُخطئون ، إذ كانوا لايُتْقِنون حرفتهم ! أضف إلى هذا أنهم كانوا يَتسِمُون بالبطء ، وكانت الآلاتُ تُكْسر وَيَنْقضِي وقت طويل قبل إصلاحها ! .. واستقر قرار أهل البلاد المغزوة على انتقام بطيء ، صامت ، آجل ، وتبين الخونة الذين ساعدوا الغزاة – وكثيرون منهم صدروا في المساعدة عن اعتقاد بأن الغزو إنما هو لتحسين شأنهم ولتحقيق الحياة المثالية لهم!–إن الخطوة التي خَطوْها كانت غير مُطمئنة ، وإن الناس الذين كانوا يعرفونهم ، كانوا ينظرون إليهم ببرود دون أن يوجهوا إليهم حديثا قط!

وكان الموت مُخَيِّما على الجو ، يحوم وينتظر . ووقعت الحوادث على خط السكة الحديدية الذي يشق طريقه في الجبال والذي كان يربط البلدة الصغيرة بسائر أنحاء الأمة.

وكثرت الانهياراتُ على الطرق والخطوط الحديدية ، ولم يكن ثمة قطار يستطيع السير دون التحقق أولا من سلامة الخطوط، وكان بعض الناس يُعْدَمون انتقاما ولكن هذا لم يكن له أي أثر!

.. وأخذت جماعات من الشباب تهرب وتذهب إلى "**إنجلترا**" بين الحين والحين .. وألقَى الإنجليز القنابل من الجو على منجم الفحم، فأصابوه ببعض التلف ، وقتلوا عددا من أصدقائهم وأعدائهم . ولم يأت هذا بنتيجة، وإنما نما الحقد البارد بتقدم الشتاء .. ذلك الحقد الصامت الدفين المتربص!

وكانت المؤن والأطعمة تحت الرقابة ، تُمْنَحُ للطيع وتُمْنع عن المتمرد ، حتى اضطر

أهل البلدة جميعا إلى أن يكونوا طيعين، ولكنها كانت طاعة باردة .. إلا أنه كانت ثمة حالة لايمكن فيها منعُ الطعام، ذلك أن الرجل الذي يموت جوعا كان يَنْقُصُ من عدد القادرين على استخراج الفحم ورفعه وحمله. وكانت عيونُ الناس تنطق بالحقد الدفين، يراها كل من لا يُؤْخذ بالظواهر!

وهكذا وَجَد الغازي نفسه محصورا .. فكان رجال الكتيبة معزولين وحدهم بين أعداء صامتين . ولم يكن في استطاعة جندي منهم أن يتهاون في حذره لحظة واحدة ، ولو أنه فعل لاختفى ولأُلْقِيَتْ جثته على رُكَامٍ من الثلج . وإذا ذهب جندي وحده لامرأة، اختفى وألقيتْ جثته على ركام من الثلج.. وإذا شرب خمرا اختفى!.. فلم يعد رجالُ الكتيبة يغنون إلا معا، ولايرقصون إلا معا . ثم توقف الرقص رويدا رويدا ، وأصبح الغناء ترديدا لعبارات تنطوي على الوحشة إلى الديار .. وأخذت أحاديثُهم تقتصر على الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يحبونهم ، وعلى شوقهم إلى الدفء والحب.. فإن الرجل لايستطيع أن يكون جنديا إلا لبضع ساعات في اليوم ، أو لبضعة أشهر في السنة، ثم تُلِحُّ به الرغبة في أن يعودَ رجلا ، يطلب النساءَ والشرابَ والموسيقى والمرح والراحة ، فإذا مُنِعَتْ عنه كلُّها استبد به الشوق إليها !

وكانت أفكار الجنود تهفو دائما إلى وطنهم ، حتى انتهت الحال برجال الكتيبة إلى كراهية البلد الذي غَزَوْهُ ، فكانوا يعاملون أهل البلدة معاملة جافة ، وكان أهل البلدة يبادلونهم جفاء بجفاء . ودَبَّ شيءٌ من الخوف في قلوب الغزاة رويدا.. خوف لايمكن أن ينقضي أو يزال.. خوف من ألا تنتهي هذه الحرب قط ، ومن أنهم لن يستطيعوا أن يستريحوا ويعودوا إلى بلادهم .. خوفا من أن تَهِنَ عزيمتهم يوما فيصيدهم أهل البلدة من الجبال ، وكأنهم الأرانب ! ذلك أن القوم الذين قُهِرتْ بلادهم لم يُخَفِّفُوا من غَلْواءِ حقدهم للغزاة قط ، فكانت الدوريات ترى الأضواء ، وتسمع الضحك ، فتنجذِبُ إليه- شأن الفراش تجذبه النار - ولكن ما إن يَقْتربُ أفرادها ، حتى يكف الناسِ عن الضحك ، ويذهب الدفء ، ويعود الناس إلى برودهم وطاعتهم!.. وكان الجنود يَشمُّون رائحة الطعام الساخن، ولكنهم يجدونه وقد زاد مِلحُهُ أو زاد فلفله!

ثم قرأ الجنود الأنباء الواردة من بلادهم ، ومن البلاد الأخرى التي غزتْهَا أمتهم .

وكانت الأنباء طيبة دائما ، وقد صدقوها برهة من الزمن ، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوا الثقة فيها!.. وامتلأ قلب كل منهم رعبا، وراح يقول لنفسه: " لو انهارتْ بلادنا وهُزمت، فلن يُنبئنا أحد في الوقت المناسب ، ويَسبِقُ السيفُ العذَل . وإذ ذاك لن يرحمنا هؤلاء القوم.

بل إنهم سيفتكون بنا جميعا!" . وتذكروا قصص رجالهم في تراجعهم من "**بلچيكا**" وفي تراجعهم من "**روسيا**" . وكان أكثرهم علما يذكرون التَّقَهْقرَ الجنوني المليء بالمآسي .. التقهقرَ من "**موسكو**" ، حيث ذاقت مِذْرَاةُ كل فلاح روسي دماء الغزاة، وحيث شَوَّهت الجثث صفحة الجليد البيضاء!

وكانوا يعلمون أنهم إذا وهنت منهم العزيمة، أو خف حذرهم وحرصهم ، أو ناموا أكثر مما يجب عليهم النوم ، للاقوا في هذه البلدة نفس المصير الذي لاقاه رفاقهم هناك من قبل . وشاب نَومَهم القلقُ، وقضَوا أيامهم وقد توترت أعصابُهم ، وكانوا يوجهون الأسئلة فلايستطيع ضباطهم الإجابة عليها ، لأنهم لم يكونوا يعرفون الجواب .. فقد كانوا هم الآخرون يَجهلون، شأنُهم شأنُ جنودهم.. ولم يكونوا هم كذلك يُصدقون الأنباء الواردة من الوطن!

وهكذا دب الخوف في قلوب الغزاةِ ممن غَزَوْهم!.. وتوترت أعصابهم حتى إنهم كانوا يُطْلِقون النار على الأشباح ليلا!

وكانوا يحسون دائما ذلك الصمت البارد الكئيب . ثم جُن ثلاثة جنود في أسبوع ، وأخذوا يبكون ليل نهار حتى أعادوهم إلى ديارهم ، ولعل غيرهم كان موشكا أن يُجَن أيضا ، لولا أنهم سمعوا أن الموت ينتظر المجانين في الوطن .. فقد كانوا يقتلون رحمة بهم .. والموت أفظع من أن يستطيع الإنسان أن يفكر فيه !.. وغزا الخوف قلوب الرجال في ثكناتهم ، فخَلَّف على وجوههم مِسْحَة من الحزن ، كما دَلَف إلى قلوب رجال الدواريات فملأها قسوة!

*****

وانقضت السنة ، ثم جاء الشتاء ثانية، وطال الليل، فأصبح الظلام يحل في الساعة

الثالثة بعد الظهر، ولايعود الصبح ينبلج إلا في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، ولم تعدْ الأنوار البَهِجَةُ تتسربُ من النوافذ وتنعكس على الجليد.. فقد سُنَّ قانون يوجب إظلام النوافذ كلها، حتى لاترى قاذفات القنابل المغيرة الضوء. على أن ثمة ضوءا كان يظهر دائما بقرب منجم الفحم ، كلما أقبلت قاذفات القنابل الإنجليزية !..

وكان الحراس يُطلقون النار أحيانا على رجل يحمل مصباحا .. بل لقد أطلقوا الرصاص مرة على فتاة تحمل مشعلا كهربائيا، ولم يكن لهذا من أثر ، فإن إطلاق النار لم يكن هو العلاج!

وكان الضباط صورةً طبق الأصل من جنودهم ، إلا أنهم كانوا أكثر تحفُّظًا ، لأن تدريبَهم كان أتم وأوفى ، وكانوا أكثر حيلة من جنودهم ، لأن مسؤوليتَهم كانت أعظمَ، ولكن نفس المخاوف كانت تساورهم .. بل إنها كانت تتغلغلُ في قلوبهم أكثر من تغلغلها في قلوب رجالهم ، وكانوا يشعرون بوحشة إلى الديارِ أشد وأقوى ، ولكنهم كانوا يَطْوُون عليها جوانحهم ويكتمونها حبيسة في صدورهم !.. وكان العناء المنصب على أعصابهم مزدوجا : فقد كان أهل البلاد المقهورة يراقبونهم ويُحصون عليهم أخطاءهم .. كما كان الجنود الذين تحت إمرتهم يُراقبونهم ويُحصون عليهم مواطن الضعف ، حتى لقد غدا توتر أعصابهم يهدد بانهيارهم !.. كان الغزاة في حصار ضُرب على روحهم المعنوية في غير هَوادَة ولارفق ، وكان الكل – الغالب والمغلوب – يعلم ما سوف يحدث عندما تَبْدر أول بادرة.

وبدا أن أسباب الراحة التي زُوِّدَتْ بها الغرفةُ العليا في قصر العمدة قد اختفتْ .. إذ وُضع الورقُ الأسود على النوافذ بإحكام ، وكانت ثمة أكداس صغيرة من المهمات الثمينة مبعثرة في أركان الغرفة – وهي الأدوات والمهمات التي لايمكن تعريضُها للخطر، ونظارات الميدان، والأقنعة والخوذات– فقد كان ثمة تخففٌ من شدة النظام في تلك الغرفة، وكأن هؤلاء الضباط كانوا يعلمون أنه لابد من شيء من التراخي في مكان ما، وإلا تطرق الخلل إلى جهازهم كله!.. وكان على المنضدة مصباحان للدواريات يُلْقيان ضوءا شديدا متألقا . وقد كان أزيزُ اشتعالهما هو الصوتُ الوحيد الذي يعكر هدوء الغرفة!

ولم ينقطع الماجور "**هنتر**" عن عمله ، بل كانت لوحة رسمه مستعدة الآن باستمرار، إذ كانت القنابل تَهْدِم عمله بالسرعة التي يبنيه بها تقريبا . ولم يكن ذلك يُحزنه كثيرا، فقد كان البناء للماجور"**هنتر**" بمثابة الحياة نفسها، وقد أُتيح له – في هذه البلدة وهذه الظروف– من فرص البناء ما كان يفوق سرعته في التصميم والإنجاز . . وكان يجلس إلى لوحة الرسم والضوء من خلفه والمسطرة "حرف ت" ترتفع وتنخفض على اللوحة ، وقلمه الرصاص لايكف عن العمل لحظة!

أما الملازم "**براكل**" ، فكانتْ ذراعهُ ماتزال في جبيرة شُدَّتْ إلى عنقه . وكان يجلس في مقعده منتصب الظهر ، عند المنضدة الوسطى ، يقرأ صحيفة مصورّة . بينما كان الملازم "**توندر**" يجلس في طرف المنضدة يكتب خطابا ، ويرفع قلمه عاليا من آن إلى آخر ، ويحدق في السقف كأنه يستلهمه الوحي ويستنجد به فيما يكتب!

وقلّب "**براكل** ورقةً من الصحيفة المصورة ثم قال :" يمكنني وأنا مغمِضُ العينين أن أرى كل متجر في هذا الشارع " .

فاستمر "**هنتر**" في عمله ، وكتب "**توندر**" بضعَ كلمات أخرى في خطابه! . . واسترسل "**براكل**" يقول : ثمَّةَ مطعم خلف هذا البيت تماما ، ويمكنك أن تراه في الصورة الماثلَةَ أمامي، واسمُه مطعم "**بيردن**" . . فقال "**هنتر**" دون أن يرفَعَ نظره عن لوحته :" أعرف هذا المطعم، وشرائح اللحم التي كانوا يُقَدِّمونها جيدة!" . . بينما قال "**براكل**" . "هذا لاشك فيه ، فقد كان كل ما يُقدمونه جيدا . . لم يكونوا يُقدمون شيئا رديئا قط، أما قهوتهم . . " .

ورفع "**توندر**" رأسه عن الخطاب الذي كان معنيا بكتابته وقال :

–" لن يقدموا القهوة الآن . . ولاشرائح اللحم!"

فقال "**براكل**" :" لا علم لي بشيء من هذا . فلقد كانواَ يَقدِمون الشرائح والقهوة . . ولسوف يستمرون في تقديمها ! . . وكانت ثمة خادمة في هذا المطعم " . . ثم أخذ يصف شكلها مستعينا بيده – يده السليمة !– وأردف يقول :" شقراء تقريبا" ، ثم نظر

إلى المجلة " كان لها ، أقصد مازال لها أعجبُ عينين ، فهما دائما مُنَدَّيتان وكأن صاحبتهما كانت تضحك أو تبكي لتوها!" . ثم حملق في السقف وقال في رفق : " لقد خرجتُ معها ، وكانت فاتنة . . إنني أسائل نفسي : لماذا لم أتردد على المحل أكثر مما فعلت ، ترى أما زالتْ موجودة؟" .

وقال "**توندر**" في لهجة سادتها الكآبة : " ربما لا ، ولعلها تعمل الآن في مصنع !" .

فضحك "**براكل**" وهو يقول: " أرجو ألا يكون توزيع الفتيات قد أصبح خاضعا لنظام البطاقات في بلادنا !" . فعقَّب "**توندر**" قائلا: " ولم لا ؟" . فقال "براكل يداعبه : " إنك لاتأبه كثيرا للفتيات ، أم تُراكَ تأبه لهن؟ . . إنك لاتَعْبأ بهن كثيرا!" . . وأجابه "**توندر**" قائلا: " إنني أودُّهُنَّ لما خُلِقن من أجله ، ولاأدعهن يَنَلْن من حياتي الأخرى !" . . فقال "**براكل**" مداعبا: " يبدو لي أنهن يتسللن إلى جميع نواحي حياتك طيلة الوقت!" .

وحاول "**توندر**"أن يُغير مجرى الحديث ، فقال : " إنني أكره هذه المصابيح ؟" . فرفع الماجور "**هنتر**" بَصَرَهُ ببطء عن لوحته وقال: " كان يجب أن يتم الإصلاح الآن ، فقد عهِدتُ به إلى بعض البارعين من رجالي ، وسأضاعف عدد الحراس على المولّد الكهربائي منذ الآن" . . فسأله "**براكل**" : " هل قبضت على ذلك الذي حطمه؟" .

وقال "**هنتر**" عابسا مُتَجَهِّما: " لقد اشتبهت في خمسة. فألقيت القبض عليهم جميعا" . . ثم أردف يقول وقد استغرق في التفكير : "من السهل تحطيمُ المولِّد الكهربائي إذا عرفت السبيلَ. .أطلِقْ عليه النار وهو كفيل بتدميرِ نفسه بعد هذا!" . . ثم قال " لابد أن النور سيُضاءُ الآن في أية لحظة!" .

وكان "**براكل**" مايزال ينظر في مجلته حين قال: " ترى متى يأتون بمن يَحُلُّ محلنا؟ . . ترى متى نعود إلى الوطن لنقضي فيه فترة من الزمن ياماجور؟ . . ألا تحب أن تعود إلى الوطن لتأخذ قسطا من الراحة؟" . . فرفع "**هنتر**" رأسَه عِن عمله، ووجهه ينم عن اليأس وقال: -"أي نعم!" ، ثم ما لبث أن عاد إلى رشده وقال: " لقد أقمتُ خطَّ التخرين هذا أربع مرات ، ولست أدري لماذا تُصيب القنبلة في كل مرة هذا الخط

بالذات؟.. لقد بدأ السَّأم يُدرِكُني من هذا الجزء من الخط الحديدي ، لأنني مكره على تغيير مجراه في كل مرة بسبب تلك الفجوات ، لاسيما وأن الوقت لايتسع لِملْئها . ثم إن الأرض شديدة الصلابة من فرط التجمد ، ويبدو أن العمل الذي ينتظرني كثيرٌ جداً" .

وأُضيِئَتْ الأنوار على حين بغتة ، فمد "**توندر**" يده آليا وأطفأ المصباحين ، فتلاشى الأزيز من الغرفة.. وما لبث "**توندر**" أن قال : -"خليق بكَ أن تحمد اللّهَ على هذا ، فإن الأزيز كان ينال من أعصابي ، حتى جعلني أظن أن ثمة همساً يدور حولي " ، ثم طوى الخطاب الذي كان يكتبه وقال : " من العجيب أنه لم تعد تصلنا خطابات ، إذ إنني لم أتلق إلا خطابا واحدامنذ أسبوعين" .. فقال "**براكل**" : " لعل أحدا لايكتب إليك" .

فعقب "**توندر**" قائلا : " ربما" ، والتفت إلى الماجور يقول : " إذا حدث حادثٌ – أقصد في الوطن– فهل تظن أنهم ينقلون إلينا نبَأه ؟.. أقصد أيَّ حادث سيئ ، كالوفاة أو ما إليها؟"

.. فأجاب "**هنتر**" بقوله : " لست أدري!" .. واستطرد "**توندر**" قائلا : -"حسنا .. لَكَمْ أوَدُّ الرحيل عن هذا الجُحر المهجور!" .

وقاطعه "**براكل**" قائلا : " كنت أظنك تعتزم الإقامة هنا بعد الحرب!" ..وأخذ يُقَلد صوت "**توندر**" قائلا : " أَجْمعُ بين أربع أو خمس مزارع معا ، وأجعل منها مكانا بديعا ، ومقرا لأسرتي " .. ثم التفَتَ إليه متسائلا : " ألم تقل هذا ؟..

كنتَ تريد أن تُصْبح سيدا صغيرا من سادة الوادي ، أليس كذلك؟ قوم ظرفاء ذُوو كياسة ، ومروج جميلة وغزلان وأطفال صغار .. ألم يكن هذا عيْنَ ما قلتَ يا "**توندر**"؟" .

واسترخت يد "**توندر**" ، بينما كان "**براكل**" يسترسل في حِديثه ، ثم أمسك صدغيه بين يديه وقال بانفعال : " صه! لاتتحدث هكذا ! .. هؤلاء القومُ ! هؤلاء القوم البشعون! .. هؤلاء القوم الباردون! .. إنهم لاينظرون إليك قط! " .

وتمشَّتْ الرعْدَةُ في جسمه وهو يستطرد : " إنهم لايتكلمون قط. ويجيبونَكَ كأنهم

موتى .. ويطيعونك دون ما شعور أو روح .. يالهم من فظاع !.. أما فتياتهم فجامدات كالثلج!".

وسُمعت طرقةٌ خفيفة على الباب، ثم دخل "**جوزيف**" وفي يده وعاء مليء بالفحم ، وأخذ يتحرك في صمت وسكون في الغرفة ، فوضع الوعاء في رفق على الأرض دون أن يحدث أي ضوضاء ، واستدار وهو لاينظر إلى أحد ، فسار صوب الباب ثانية. وإذ ذاك ناداه "**براكل**" بصوت عال: "**جوزيف**"!".

فالتفت "**جوزيف**" دون أن يجيب ودون أن يرفع بصره ، وانحنى انحناءة خفيفة. وقال "**براكل**" بالصوت العالي نفسِه: "هل ثمة شرابُ يا "**جوزيف**"؟"، فهز "**جوزيف**" رأسه.

وهنا نهض "**توندر**" عن المائدة وقد ارتسمت على وجهه علائمُ الغضب الشديد ، وصرخ يقول : "أجبني أيها الخنزير ! أجبني بكلمات!".

ولم يرفع "**جوزيف**" بصره ، ولكنه قال بلهجة تجردتْ من الحياة :

-" كلا ياسيدي ، كلا ياسيدي ، لايُوجَد شراب!".

فصاح "**توندر**" وهو يتميَّزُ غيظا ؟".. فغَضَّ "**جوزيف**" بصره ، وعاد يقول بلهجته الخالية من الحياة:

"لايوجد شرابٌ يا سيدي".. وكان يقف ساكنا تماما!

وسأله "**توندر**": "ماذا تريد؟".

- أريد أن أنصرف ياسيدي.

- إذن اذهب .. لعنة الله عليك!

ودار "**جوزيف**" على عَقِبَيْه وخرج في سكون من الغرفة، فأخرج "**توندر**" منديلا من جيبه ، وأخذ يمسح وجهه ، بينما رفع "**هنتر**" إليه بصره وقال : "ما كان يجب أن تتركه يتغلّب عليك بهذه السّهولة!".

وجلس "**توندر**" على مقعده ، ووضع يديه على صُدْغيه . ثم قال في عبارات

متقطعة: " أريد فتاة!.. أريد العودة إلى الوطن!.. أريد فتاة. ثمة فتاة في هذه البلدة، فتاة جميلة. أراها في كل وقت.. شعرها أشقر، وتقيم بجوار محل الحديد الخُرْدة، أريد تلك الفتاة!".. فقال "**براكل**": "راقب نفسك، وراقب أعصابك!".

وانطفأ الضوء مرة أخرى في تلك اللحظة، فخيم الظلام على الغرفة، وتحدث "**هنتر**" بينما كان أعوادُ الثقاب تُشْعَل، والمحاولات تبُذْلَ لإضاءة المصباحين الصغيرين: " ظننتُ أنني قبضتُ عليهم جميعا، ولكن.. ولا بد أنه قد فاتني القبضُ على واحد، بيْد أنني لاأستطيع البقاء هناك طول الوقت ولي رجال بارعون يقيمون في ذلك الموضع!" <

وأشعل "**توندر**" المصباحَ الأول، ثم أشعل المصباح الثاني وقال "**هنتر**" في لهجة صارمة مُوَجٍّها كلامه إليه: " كَلِّمْنا نحن إذا كان لابد لك من أن تتكلم أيها الملازم، ولا تدع العَدُوّ يسمعك تتحدث بهذا الشكل، فإن أحب شيء إلى هؤلاء الناس هو أن يعرفوا أن أعْصَابك قد بدأتْ تخونُك.. لاتدع العدو يسمعك!".

وجلس "**توندر**" ثانية، فسقط ضوء المصباح على وجهه.

وملأ الأزيزُ الغرفة، فقال: " لقد أصبْتَ! إن العدو في كل مكان!.. كل رجل وكل امرأة بل حتى الأطفال!.. إن العدو في كل مكان، تُطِل عليك وجوهُهم من الأبواب.. ووجوه بيضاء خلف الستائر تُصِيخ السمع!.. لقد غلبناهم على أمرهم وفزنا في كل مكان، وهم يَنتظرون ويطيعون.. إنهم ينتظرون!.. نصفُ العالم ملكُنا، فهل الحال في الأماكن الأخرى كما هي هنا أيها الماجور؟".. فقال "**هنتر**" –لست أدري!".

وعاد "**توندر**" يقول: " أصبت! فنحن لاندري، إذ إن التقارير تقول: إننا قابضون على نَاصِية الحال، والبلاد التي غزوناها تُحيي جنودنا وتحيي النظام الجديد!".. وتَغير صوتُهُ، وأخذت الرقة تشيع شيئا فشيئا في حديثه: " وماذا تقول التقارير عنا؟ أتقول إن الناس هنا يُحَيّوننا ويحبوننا ويُلْقُون بالزهور في طريقنا؟.. آه من أولئك القوم البَشِعين الذين ينتظروننا في الجليد!". فسأله "**هنتر**": "الآن وقد نفثْتَ ما في صدرك، أتشعر بأنك روّحْتَ عن نفسك؟".

وكان "**براكل**" يربت بخفة على المائدة بقبضته السليمة، فقال : -يجب ألا يتحدث هكذا ، بل ينبغي أن يحتفظ بآرائه لنفسه . أليس هو جنديا ؟ إذن يجب أن يسلك مسلك الجنود! " .

وفُتِحَ الباب بهدوء ، ثم دخل الكابتن "**لوفت**" ، والجليد يغطي خوذته وكتفيه ، وكان أنفه التهب من البرد بينما رفع ياقة معطفه حتى غطتْ أذنيه. وخلع خوذته فسقط الجليد على الأرض ، ثم نفض عن كتفيه ما علق بهما من ثلج، وقال: " يالها من مهمة! " .

وسأله "**هنتر**" : هل هناك اضطرابات جديدة؟" .

- هناك اضْطِرابات دائما! . . أرى أنهم قد عَطَّلوا المُولِّد الكهربائي ثانية ، أما المنجم فأظن أنني عملت على إقرار النظام به فترة من الزمن .

وسأله "**هنتر**" : " وماذا صادفَكَ من المتاعب هناك؟" .

- نفس المتاعب التي تصادفني عادة . . البطء في العمل، وتحطيم سيارة نقل. على أنني رأيتُ الذي حطمها فأطلقت عليه النار. أعتقد أنني وجدتُ حلا لهذه المشكلة الآن يا ماجور. سأجعل كل رجل يستخرج قدرا معينا من الفحم.

إنني لاأستطيع أن أعاقِبَ الرجال بحرمانهم من القوت وإلا تعذَّرَ عليهم العمل ، ولكنني توصلتُ إلى حل فيه العلاجُ الناجعُ . إذا امتَنَعَ خروج الفحم أمتَنِعُ أنا عن تزويد العائلات بالطعام . وستجعل الرجال يأكلون عند المنجم لكي لايقاسموا أسراتِهم طعامَهُم. هذا هو العلاج الشافي ولاشك ، فإذا لم يعملوا حُرِم أطْفَالهم من الطعام ، ولقد قلتُ لهم هذا لتوي!

- وماذا قالوا ؟

فضاقَتْ عينا "**لوفت**" في قسوة وهو يُجيبُهُ : " قالوا؟. . وماذا يقولون دائما ؟. . لاشيء!. . البتة! ولكننا سنرى ما إذا كان الفحم يخرج الآن من باطن الأرض! " . .

وخلع معطفه ونفضه . ثم وقع نظرُه على الباب المفضي من الحديقة إلى البهو فوجده منفَرِجًا قليلا ، فتسلل في خفة إليه وفتحه فجأة ثم عاد وأغلقه ، وقال : " ظننتُ أنني

أحْكمتُ إغلاقَ هذا الباب !" .. فقال "**هنتر**" " أجل .. إنك أغلقته فعلا!" .

*****

وكــان "**بـراكــل**" ماضيا في تقليب صفحات مجلته المصورة، فقال وقد عاد صوته طبيعيا كما كان :

– إننا نستعمل في الشرق مدافعَ ضخمة .. ولكنني لم أر مدفعا منها . هل رأيتها أنتَ يا كابتن؟" .. فأجاب الكابتن "**لوفت**" : " أجل بل رأيتُها تَنْطلِقُ . إنها لمدهشة، فلا شيء يستطيع أن يصمد أمامها!" .

وقال "**توندر**" : "هل تَصِلُك أنباء كثيرة من الوطن يا كابتن؟"، فأجاب "**لوفت**" : تَصِلُني بقدر مَحدود!" .

– أكُلُّ شيء على ما يرام هناك؟

فقال :"**لوفت**" :

–بل كل شيء رائع ، فالجيش يَتَقَدَّمُ في كل مكان!" .

– ألم تقع الهزيمة بعد بالبريطانيين؟

– إنهم يُهْزَمون في كل موقعة!

– ولكنهم مازالوا يُقاتِلون؟

– إن قتالهم لايعدو أن يكون بضع غارات جوية!

– والروس؟

– لقد انتهى أمرُهم !

فسأله "**توندر**" في إصرار :" ولكنهم مايزالون يقاتلون؟" .

– ليس أكثر من بعض المناوشات!

فقال "**توندر**" :" إذن فقد انتصرنا تقريبا يا كابتن ؟" .

– أجل انتصرنا!

ونظر إليـه "**تـونـدر**" نظرةَ الفاحصِ المدققِ وقال:" وأنت تصدِّقُ هذا .. أليس كذلك

ياكابتن؟" . فقطع "**براكل**" الحديث قائلا :

-"لاتدعه يبدأ هذا من جديد !" .. وقال "**لوفت**" : " لـ"**توندر**" في لهجة تنطوي على اللوم والتعنيف :" لست أدري ماذا تَعْني " فأجاب "**توندر**" بقوله : " أقصد هذا: "هل سنعود إلى ديارنا قريبا؟" .. فقال "**هنتر**" إن إعادَةَ التنظيم تستغرق بعضَ الوقتِ ، ولا يمكنُ تنفيذُ النظام الجديد في يوم .. أليس كذلك؟"

فقال "**توندر**" :" بل قد لايمكن تنفيذُه في حياتنا كلّها !" .

وقال "**براكل**" :" لاتدعْهُ يبدأ هذا من جديدا !" .. فسار "**لوفت**" حتى اقترب كثيرا من "**توندر**" وقال له :" إن لهجتك في السؤال لاتروقُ لي أيها الملازم ، فلستُ أستطيب لهْجَةً تنِم عن الشك والريبة!" .

فنظر إليه "**هنتر** "وقال :" لاتقْسُ عليه يا "**لوفت**" ، فهو مُتعَب ، وقد نال الإرهاق منا جميعا" .

فأجاب "**لوفت**" بقوله:" وأنا أيضا مُتعبٌ ، ولكنني لاأدع لشكوك الخيانة سبيلا إلى نفسي!" . فقال "**هنتر**" . "قلْتُ لك لاتَدْفعه إلى الجنون !.. هل تعرف أين ذهب الكولونيل؟"، فقال "**لوفت**" . "إنه يكتب تقريرَهُ ، ويطلب النجدات .. إنها لمهمة أكبر مما كنا نظن !" . فتساءل "**براكل**" في لهفة :" هل سَيُفْلح في الحصول عليها .. تلك النجدات؟" .

- وكيف لي أن أعرف؟

وابتسم "**توندر**" قائلا:" النجدات!" .ثم أردَفَ يقول في رقة :"أو لعله يطلب من يحل محلنا ، فنستطيع عندئذ العودة إلى الوطن وقضاء بعض الوقت فيه" .. ثم قال ومازالتْ الابتسامة على شفتيه :

-" ولعلني أستطيعُ السير في الشارع فيرحّبُ بي الناس ويقولون هاكم جنديا ، ويستَخِفُّهُم الطرب من أجلي ، وأدخل أنا الفرح والسرور إلى قلوبهم..

وسيلْتَفُّ حولي الأصدقاءُ ، وسيكون في استطاعتي أن أدير ظهري لكل شخص دون

أن أخشى شيئا!" .

فقال : " **براكل** " : " لاتبدأ هذا من جديد !.. لاتدعه يُفْلت زمام أعصابه ثانية!" ..

وقال "**لوفت**" في اشمئزاز :" كفانا المتاعبُ التي نلاقيها الآن ، فلا تزيدها بدفع أركان الحرب إلى الجنون !" .

ولكن "**توندر**" استطرد يقول:" أتظن أنه سيأتي من يحل محلنا يا كابتن؟" .

– ولكنك قلتَ: إن ذلك ممكن!

– قلتُ: إنني لاأعلم!

– لقد غزونَا نصف العالم، ويجب أن نسيطر على النظام فيه فترة من الوقت .. إنك تعلم هذا!

فتساءل "**توندر**" :" والنصْفُ الآخر ؟" .. فأجاب "**لوفت**" قائلا:

– " سيقاتل في استماتة فترة من الزمن" .

– إذن يجب أن ينتشر جنودُنا في أرجاءِ الأرض كلِّها!!

فأجاب "**لوفت**" :" لفترة وجيزة من الزمن !" .. وهنا قال "**براكل**" في انفعال :" ليتَكَ تحمله على السكوت .. ليتك تستطيع إسكاتَه ، دعهُ يسكت" .

وأخرج "**توندر**" منديله وتمخَّطَ ، ثم أخذ يتحدث كما يتحدث المخبول وضحك ضحكة تَنِمُّ عن الحيرة والارتباك، ثم قال :" لقد رأيت حُلْما عجيبا.. أعتقد أنه كان حلما، وربما كان فكرة .. أجل ، قد يكون حلما ، وقد يكون فكرة!" .. فهتف "**براكل**" . " أسكتْهُ ياكابتن!" . ولكن "**توندر**" قال متسائلا:" هل تم لنا غزو هذه البلاد يا كابتن؟" .. فقال "**لوفت**" طبعا!" .

وشابت ضحكةَ "**توندر**" مسحةٌ من الخبل، وقال :" غزوناها ونخاف؟.. غزوناها ونحن محاصَرون ؟؛.. وارتفعت ضِحْكَتُهُ مجلْجِلَةً وهو يقول:" لقد رأيت حلما ، أو لعله فكرة .. رأيت في مثل ما يرى النائم أنني في ذلك الجليد مع الأشباح السوداء والوجوه التي وراء الأبواب .. الوجوه الباردة التي خلف الستائر .. لعلها فكرة أو قد يكون حلما!"

.. فصرخ "**براكل**" : وأُسْكِتُوه!؛. ولكن "**توندر**" استرسل قائلا: " حَلَمتُ بأن الزعيم مجنون!" .

وأطلق "**لوفت**" و"**هنتر**" ضحكة مشتركة ، وقال :"**لوفت**" :" لقد تبين الأعداء مدى جنونه .. سأكتب هذا الخبرَ إلى الوطن، وستنشره الصحف ، لقد علم الأعداء مدى جنون الزعيم!" .

واستمر "**توندر**" في ضِحْكه وهو يقول: " غزوٌ في إِثْر غَزو، وتوغلٌ في العسل الأسود!" ، وغُصَّ حلقُهُ بالضحك ، فسَعَلَ في منديله وهو يقول: ربما كان الزعيم مجنونا، فالذباب يتغلب على ورق صيد الذباب لقد استولى الذباب على مائتي ميل من ورق صيد الذباب الجديد ! . -وأخذت الهستيريا تطغى على ضِحْكَته ، فمال "**براكل**" عليه وهزه بيده السليمة قائلا: " كفى ! ليس هذا من حقك !" .

وأخذ "**لوفت**" يدركُ رويدا أن الضحكةَ باتت لونا من الهياج والخَبَل فاقترب من "**توندر**" وصفعه ، ثم قال :" كفى أيها الملازم!" .. ولكن "**توندر**" مضى في الضحك ، فصفعه ثانية وقال :" كُفَّ عن الضحك أيها الملازم ! أتسمعُني؟" .

وكفّ "**توندر**" عن الضحك ، وسكتت الحركة في الغرفة، عدا أزيز المصباحين . ونظر "**توندر**" في دهشة إلى يده ، وتحسسَ بها الخدوشَ التي أصابت وجهه ، ثم عاد ينظر إلى يده .. وطأطأ رأسه صوب المائدة وهو يقول: " أريد العَوْدَةَ إلى الوطن!" .

الفصل السادس

وكان ثمّةَ شارعٌ صغير قريب من ميدان البلدة ، اختلطتْ فيه البيوت ذات السقوف المحدودبة بالمتاجر والحوانيت الصغيرة . وكان الجليدُ قد أُزيلَ عن الشارع والرَّصيفين، ولكنه ظل مكدّسا على الأسوار وأسطح البيوت ، وقد أخذت الرياح تدفعه على نوافذ البيوت الصغيرة المُغْلقَة المصاريع.

كما شُقَّت الطرق في أفنية البيوت . وكانت الليلةُ مظلمة باردة، وقد حُجِبَ الضوء حتى لايتسرّب من النوافذ فتراه قاذفات القنابل وتهتدي به.. كما كانت الشوارع مُقْفِرة من المارة، إذ إن أوامر حظر التجوّل كانت تُنفذ تنفيذا صارما. وبدت البيوت كأنها كتل سوداء تقوم على الجليد ، وأخذت الدوارية المؤلفَة من ستة رجال تقطع الشارع بين الحين والحين متلصصة ، تختلس النظر ، ولقد حمل كل رجل من أفرادها مِشعلا كهربائيا طويلا ، فكان لوقع أقدامهم صدى يتردد في الشارع برغم حرصهم ، ولأحذيتهم صريف يُسْمع على الجليد الجامد .. وكانوا يَبْدُون مجرد أجسام غاصتْ في المعاطف السميكة، كما كانت تحت خوذاتهم قَلَنْسُوات من الصوف نُسِجَت باليد ، وانسدلت على الآذان ثم انسابت فغطَّت الذقونَ والأفواه ، وسقط في تلك الليلة قليل من الجليد ..

مجرد كمية بسيطة ، تناثرت كحبات الأرز!

وكان رجال الدوارية يتحدثون وهم يسيرون .. يتحدثون في أمور طال بهم الشوْقُ إليها ، كاللحم والمرق السَّاخِن ودَسَم الزبد وجمال الفتيات وإشراق ابتساماتهن وشفاههن وعيونهن .. كانوا يتحدثون في هذه الأمور ، وكانوا يتكلمون أحيانا عن مقتهم لما كانوا يُؤدون من أعمال ، وما كان يكتَنِفُهمْ من الوحدة!

كان ثمة منزل صغير محدودب السقف يقع إلى جوار متجر الحديد ويُشْبه المنازلَ الأخرى ، كما كان يعلوه الجليد مثلها . ولم يكن ينبعث أي ضوء من نوافذه المغلقة ، كما أن أبوابه المتينةُ، المنيعة ، كانت مغلقة غلقا محكما .. أما في الداخل فكان ثمة مصباح مُضاءٌ في غرفة الجلوس الصغيرة .

وكان البابُ المؤدِّي إلى غرفة النوم مفتوحا ، والباب المؤدي إلى المطبخ مفتوحا ، بينما

استقرتْ في الجدار الخلفي مدفأةٌ من الحديد تشتمل على فحم انبعثت منه نارٌ صغيرة . . وكانت الغرفة دافئة ، بادية الفقر ، ولكنها مريحة ، تُغطّي أرضيتها سجادةٌ بالية، ويكسو جدرانها ورق بني ضارب إلى الحمرة، طُبِعَت عليه زهرةُ الزنبق العتيقة بلون ذهبي .، وعلى الجدار الخلفِي كانت ثمة صورتان ، إحداهما لسمكة ميتة على طبق من الأعشاب ، والأخرى لطائر ميت على فرع من شجر الشربين. أما الجدار الأيمن فكان يحمل صورة للسيد المسيح وهو يسير على الأمواج صوب الصيادين الذين تملَّكَهُمْ اليأس!

وكان في الغرفة مقعدان مستقيما الظهر، وأريكة تُغطيها ملاءةٌ ناصعة البياض، بينما استقرتْ في وسط الغرفة منضدة مستديرة صغيرة وُضع عليها مصباحٌ يشتعل بالكيروسين، عليه مَظلَّة مستديرة رُسِمت عليها زهور . . وكان الضوء في الغرفة دافئا ناعما . وإلى جانب المدفأة ، قام الباب الداخلي الذي كان يُفضي من الباب الخارجي المنيع إلى الغرفة ، عَبْر الدهليز!

✼✼✼✼✼

وكانت "**مولي موردن**" تجلس وحيدة في مقعد مُتأرجح مُبَطن بالوسائد ، بجوار المنضدة في الغرفة ، وقد راحتْ تَفُكُ الصوف من صديرية زرقاء قديمة وتلفُّه على بكرة، حتى أصبح كرة كبيرة ضخمة . وعلى المنضدة استقر الغزل الذي كانت تنسجه ، وقد غُرِسَتْ فيه الإبرتان ، وإلى جانبه مِقَص كبير.. كذلك كانت نظارتها على المنضدة بجوارها ، فلم تكن بها حاجة إليها في شغلها . وكان شعر "**مولي**" الذهبي مرفوعا إلى قمة رأسها ، وقد رَشَقَتْ فيه شريطا بشكل "فيونكة" .. كانت شابة أنيقَةً جميلة ، ذاتُ خِفَّة وسرعة في فَك خيوط الصوف . وكانت تَرْمق الباب المؤدي إلى الدهليز – من حين إلى آخر – وهي تشتغل ، بينما مضت الرياح تُصَفِّر في المدخنة صفيرا هادئا لطيفا ، بَيد أنها كانت ليلة هادئة على وجه عام، طَوَاها الجليد في طيَّاته!

وتوقفت "**مولي**" فجأة عن عملها ، وسكنت يداها ، ونظرت إلى الباب وهي تُصِيخُ السمع ، فإذا بوقع أقدام رجال الدوارية يمر بالبيت ، وأصواتهم تصل إلى أذنيها خافتة،

ثم ما لبثت أن اضْمَحَلَّتْ وتلاشتْ وفكت "**مولي**" خيوطا جديدة لفتَّها حول البكرة ، ثم عادت فتوقفت ، إذ سمعت حفيفا عند الباب ثم تلته ثلاث طَرقات قصار.. وضعت "**مولي**" شغلها ، وقصدت الباب ، وقالت :" نعم؟" .

وأعْملت المفتاح في القفل، وفتحت الباب ، فدلف إلى الداخل شخصٌ تدثر بعباءة ثقيلة.. وإذا بها "**آني**" الطاهية.. وكانت حمراء العينين ، وقد الْتفَّتْ بكثير من الوشاحات . ومرت من الباب بسرعة كأنها قد تمرست على المرُوقِ من الأبواب ، وألِفت إغلاقَها خلفها .. ووقفت حمراء الأنف، تَخِنّ وتتنفس بعناء، وهي تُلقي نظرات سريعة على الغرفة . وما لبثت "**مولي**" أن قالت :" طاب مساؤك يا "**آني**" لم أكن أتوقع حضورَك الليلة.

اخلعي ملابسك الخارجية ، وتعالي خذي قسطا من الدفء، فالطقس بارد في الخارج!" .

فقالت "**آني**" :" لقد جاء الجنود بالشتاء مبكرا .. كان أبي يقول دائما : إن الحرب تأتي معها بالطقس الرديء ، أو إن الطقس الرديء يأتي معه بالحرب، لا أذكر أيهما!" .

– اخلعي ملابسَكِ الخارجية وتعالَيْ إلى المدفأة.

فقالت "**آني**" في لهجة حمّلتْها أهمية ما ستقول :" لاأستطيعُ هذا ، فإنهم قادمون" .. وسألتها "**مولي**" :" من هم القادمون ؟" .. فأجابت "**آني**" :" صاحب السعادة والطبيب والأخوان "**أندرس**" .

وتساءلت "**مولي**" قائلة:" هنا؟ ولماذا؟" .. فمدَّتْ "**آني**" إليها يدها ، وقد انقبضَتْ على لفة صغيرة ، وقالت :" إليك هذه ، فقد سرقْتُها من طبق الكولونيل. إنه لحم !" .

ونزعتْ "**مولي**" الغلافَ عن قطعة اللحم ووضعَتْهَا في فمها ، ثم قالت وهي تلوكها:" هل تناولْتِ شيئا من هذا اللحم؟"

.. فأجابت "**آني**" بقولها:" ألستُ أنا التي أطْهِيه ؟ إنني أتناول بعض ما أطهي دائما!" .

– ومتى يأتون؟

فجذبتْ "**آنـي**" الهواء خلال أنفها "المزكوم" وهي تقول: " إن الأخوين "**أنــدرس**" سيُبْحران إلى "**إنجلترا**"، فإنهما مُكْرَهان على الرحيل، وهما مختبئان الآن: " .. فتساءلت "**مولي**": " حقا ؟ ولم؟" .

- لقد قُتِل أخوهما "**جــاك**" اليوم جزاء تحطيمِه تلك السيارة الصغيرة، والجنود يبحثون الآن عن بقيةِ أفراد الأسرة.. وأنت تعلمين ما قد يفعلون بهم!

وأجابتْ "**مـولي**" قائلة : " أجل ، إنني أعلم ماذا يفعلون.. اجلسي يا "**آنـي**" ! " .. فقالت الطاهية: " إن وقتي ضيق، إذ يجب علي أن أعود لأطَمْئِن صاحب السعادة إلى أن كل شيء بخير هنا ! " .. فسألَتْها "**مولي**" : " هل رآكِ أحد قادمة" ..؟

وإذ ذاك ابتســمتْ "**آنــي**" في زهو وخيلاء ، وقالت: " كلا ، فإنني أجِيدُ التسلل تماما" .

- وكيف سيخْرجُ العمدة؟

وضحكت "**آنـي**" وهي تقول: " سيحتل "**جـوزيف**" فراش العمدة خشية أن يسعَوْا للتحقق من وجوده.. بل سيرتدي قميص نوم العمدة ، ويتمَددُ إلى جوار السيدة! " ، ثم أطلقتْ ضحكة أخرى وقالت: " يجدرُ بـ"**جوزيف**" أن يلتزم أقصى درجَاتِ السكون في رقاده! " .

وقالت "**مولي**" : " إنه لمن البلاء الإقلاع في البحر في مثل هذه الليلة! " .

- ولكنه أفضلُ من الإعدام رميا بالرصاص !

- أجلْ، إنك على حق .. ولماذا يأتي العمدة إلى هنا؟

- لستُ أدري.. لعله يريد محادَثَةَ الأخويْن "**أنـدرس**" !.. يجب أن أنصرف الآن ، فما جئتُ إلا لأخبركِ!

سألتها "**مولي**" : " ومتى يأتون؟" .. فأجابت "**آني**" قائلة: " بعد نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة.. وسآتي أنا أولا، إذ ليس هناك من يهتم بالطاهيات المُسنات! " .. ودلفَتْ إلى الباب ثم التفتت في منتصف الطريق ، وكأنها تُؤَاخِذُ "**مـولي**" ، كما لو كانت هي

التي نطقت بالعبارة الأخيرة . وقالت: " لم تتقدم بي السنُّ إلى هذا الحد! "، ثم انفلتت من الباب وأغلقتْه خلفها.

*****

واستمرت "**مولي**" تشتغل بالإبرة برهة ، ثم نهضتْ وذهبَت إلى الموقد ، فرفعت عنه الغطاء.. وأضاء وهج النار وجهها ، بينما حركت الفتاة النار وأضافت إليها بعض قطع الفحم ثم أغلقتْ الموقد كما كان. وقبل أن تصل إلى مقعدها سمعتْ طرقا على الباب الخارجي ، فعبرت الغرفة وقالت تُحدِّث نفسَها : " ترى ماذا نسيَتْ "**آنـي**" ؟. وقطعت الدهليز وهي تقول: " ماذا تريدين؟" .. وأجابها صوت رجل، ففتحتْ الباب ، وإذا بها تسمع رجلا يقول: " إنني لاأقصدُ بك شرا ، إنني لاأقصد بك شرا" .. فتراجَعَتْ "**مولي**" إلى الغرفة ، بينما تبعها الملازم "**توندر**". فقالت "**مولي**" : " من أنتَ؟ وماذا تريد ؟ ليس لك حق الدخول إلى هنا . ماذا تريد؟".

وكان الملازم "**تونـدر**" يرتدي معطفه الرمادي الكبير. ودخل الغرفة ، وخلع خوذته ، ثم قال متوسلا : " لا أقصد بك شرا، أرجوك السماح لي بالدخول!" .. فقالت "**مـــولـي**" : " وماذا تبغي ؟" .. وأغلقت الباب خلفه ، فقال : " إنما أريد أن أتكلم يا آنستي، أريد أن أسمعك وأنت تتكلمين ، هذا كل ما أبغيه !" .. فهبّتْ "**مـــولـي**" تسأله : " أتفرض نفسك علي؟".

- كلا يا آنستي، وإنما دعيني أبقى برهة ، وسأنصرف من تلقاء نفسي!

- ما الذي تُرِيده؟

وحاول "**توندر**" أن يشرح لها الأمر: " أيمكنك أن تفهمي هذا ؟

أيمكنك أن تؤمني به؟.. ألا يمكننا أن نَنْسَى هذه الحربَ برهة؟

برهة وجيزة!.. ألا يمكننا أن نتحدّث كما يتحدث غيرنا من الناس برهة وجيزة .. معا؟!".

ونظرت إليه "**مولي**" طويلا ، ثم افتر ثغرُها عن ابتسامة وقالت :

–"إنك لاتعرفني ، أم تُراك تعرفني؟" .. فأجاب: " لقد شاهدتُكِ في البلدة، وأعرف أنك جميلة، وأعرف أنني أتوقُ إلى محادثتك !" .. فقالت "**مولي**" في لهجة رقيقة، والابتسامة ماتزال تداعب شفتيها: " إنك لاتعلم من أنا"، ثم جلست في مقعدها بينما وقف "**توندر**" كأنه الطفل تبدو عليه الحيرةُ والارتباك. وأردفتْ "**مولي**" تقول في هدوء: "إنك تشعر بالوحدة ، هو هذا .. أليس كذلك؟" .

ولَعِقَ "**توندر**" شفتيه ، وأخذ يقول في جد: " أجل هو هذا.. إنك تدركين ! كنت أعلم أنك ستدركين ، بل كنت أحس أنك ستُدفَعين إلى هذا دفعا!" ، وانطلقتْ الكلمات من فمه يزاحِمُ بعضها بعضا:

–" إنني وحيد حتى لأشعر بالمرض من الوحدة.. إنني وحيد في هذا الهدوء الشامل وهذا الحقد الجامح!"

.. واسترسل في توسل وابتهال: " ألا نستطيع أن نتحدث برهة وجيزة؟" .

والتقطَتْ "**مولي**" شغْلَها ، ألقت نظرة عاجلة على الباب الأمامي، ثم قالت: " يمكنكَ أن تبقى ربع ساعة على الأكثر..

اجلس قليلا أيها الملازم!" .. وعادت تُلقي نظرة أخرى على الباب ، فسرى إلى آذانهما صوتُ صَرِير بعض أخشاب البيت ، وإذا بأعصاب "**توندر**" تتوتروهو يسألها: أيوجد أحدٌ في المنزل؟" .

– كلا ، ولكن الجليد قد ثقل على السقف ، ولم يعد لي رجل يدفعه إلى أسفل!

فقال "**توندر**" في رقة: " ومن الذي حرمك منه ؟! أهو عمل من صنعنا ؟" .. وأومأت "**مولي**" برأسها ، وقالت وهي تنظر بعيدا : " نعم" . فقال وهو يجلس: " إنني آسف، ثم استطرد بعد لحظة يقول: " ليتني أستطيع شيئا . سأعمل على دفع الجليد عن السقف!" .. فقالت "**مولي**" :"كلا ، كلا!" .

– ولم لا ؟

– لئلا يعتقد الناس أنني انضممتُ إليكم فيطْرُدُونَني . وأنا لا أريد أن أطرد!

وقال "**توندر**": " أجل.. إنني لأدرك تأثير هذا، فإنكم جميعا تكرهوننا، ولكنني

سأسهر عليك إذا سمحت بذلك!" .

*****

وأدركت "**مولي**" أنها استعادتْ السيطرةَ على نفسِها في تلك الأثناء ، فضاقت عيناها في شيء من القسوة وقالت : " لماذا تَسْأَلُني ؟ إنك الغازي ، ورجالك لايَسْألون بل يأخذون ما يريدون ! " .. فقال "**توندر**" : " ليس هذا ما أريد ، ولا هذا هو السبيل الذي أسلكه لأنال ما أريد ! " .

وضحكتْ "**مولي**" ومازالتْ لهجتها تُنْبئ بالقسوة : " تريدني أن أعجب بك .. أليس كذلك أيها الملازم؟" .. فقال ببساطة : " أجل" .. ورفع رأسه ثم أردف يقول : " إنك لشديدةُ الفتنة، شديدة الدفء ، وشعرك لامعٌ متألق ! إنني لم أر عطفا يَفيض من وجه امرأة منذ أمد بعيد ! " .

فسألته : " وهل ترى عطفا في وجهي؟" .. فحدّق فيها ثم قال :

- " أريد أن أراه" .. وخفضَتْ بصرها آخر الأمر وقالت : " إنك تُطارِحني الغرام .. أليس كذلك أيها الملازم؟" .. فأجابها وهو لايدري ما يقول : "أريدك أن تعجبي بي ! .. لاشك في أنني أريد أن تعجبي بي .. بل لاجدال في أنني أريد مشاهدة هذا في عينيك ! .. لقد رأيتُك في الطرق ، وراقبتُكِ وأنت تمرين بي، وأَصْدرتُ الأوامرَ بألا يُعَاكسك أحدٌ فهل ثمة من عاكسَكِ؟" .

وأجابته "**مولي**" في هدوء وسكينة : " شكرا لك، كلا لم يُعاكسْني أحد" .. فتدفقتْ الكلمات من فمه وهو يقول : " بل إنني كتبتُ قصيدة لك! أتحبين أن تَطَّلِعي على قصيدتي ! " .. فسألتْهُ متهكمة : " أهي قصيدة طويلة؟ إن عليك أن ترحلَ بعد فترة وجيزة " .. فأجاب : " كلا ، إنها قصيدة صغيرة جدا .. قصيدة غاية في الإيجاز" . ودس يده في جيب سترته فأخرج ورقة قدمها إليها ، فمالت بقرب المصباح ، ووضعتْ نظارتَها على عينيها ، وشرعت تقرأ في هدوء :

إن عينيْكِ وهُما في زرقتهما العميقة.

قد استولتا عليّ ، ولن تفارقاني!

منهما انبثق نبعٌ من الأفكار السماوية.

يَنْدفعُ ويتدفقُ على قلبي!

وطوت الورقة ووضعتها في حجرها ، ثم سألته : " هل كتبتَ أنت هذه القصيدة أيها الملازم؟ " .

– أجل!

فسألته ، وقد شاب لَهْجَتهَا شيءٌ من التقريع: " وكتبْتَها إلي ؟ " .. فأجابها "**توندر**" وقد أخذ القلق يتملكه : " أجل! " .. فحدَّقَتْ فيه ثم ابتسمت وقالت : " إنك لم تكتب هذه القصيدة أيها الملازم .. أليس كذلك؟ "، فابتسم ابتسامة الطفل الذي افتُضِحَ كذبه وقال : " كلا " .

وسألته "**مولي**" : " أتعرف ناظمها؟ "، فقال "**توندر**" : " أجل، فهو "**هيليني**" .. لقد أحببتُ هذه القصيدة دائما! " .. وضحك وقد اعتراه الخجل ، فضَحِكتْ "**مولي**" معه ، ووجدا نفسيهما على حين بغتة يضحكان معا ، ثم كَفَّ "**توندر**" عن الضحك على حين فجأة أيضا ، وخيم الحزنُ على عينيه وهو يقول: " لم أضحَكْ هكذا منذ وقت لاتعيه ذاكرتي ! " ، ثم استرسل يقول: " لقد أخبرونا بأن الناس سيحبونَنَا، وسيُعجبون بنا، ولكن الحالُ ليستْ كما أخبرونا ، فالناس يكرهوننا! " ، ثم غير الموضوع كأنه يقاوم الزمن : " إنك لفاتنة، بل إنك في جمال الابتسامة المشرقة! " .

وقالت "**مولي**" : " لقد بدأت تُطَارحني الغرام أيها الملازم، ويجب أن تنصرفَ بعد لحظة! " .. فقال "**توندر**" : " لعلني أريد أن أطارحك الغرام فعلا، إذ ليس للرجال غِنَى عن الحب، وإذا حُرم الحب مات ، إذ تَذْبل أحْشَاؤه ويُصبح صدره وكأنه الشَّظْية الجافة .. إنني وحيد ! " .. ونهضَتْ "**مولي**" عن مقعدها ونظرت بعصبية إلى الباب ، ثم سارت إلى الموقد، ولما عادت كانت ملامحها قد اكتسبَتْ؟ قسوةً وصرامةِ ، ولاحت الرغبة في الانتقام في عينيها ، وقالت له: " أتريدُ أن تشاركَني فراشي أيها الملازم؟ " .

– لم أقلْ هذا ! .. لماذا تَتَكَلَّمين بهذه اللهجة؟

وأجابت "مولي" بلهجة انطوَتْ على القسوة :؛ لعلني أحاولُ أن أحملك على الاشمئزاز مني ، فلقد تزوجْتُ مرة، ومات زوجي ، فهأنت ترى أنني لست بكرا!" .. وشاعت المرارة في صوتها ، فقال "توندر" :" إنما أريد أن تُولِيني وُدك!" ..

فقالت "مولي" :"إنني لأدركُ هذا، فأنت رجل مُتمَدْين، وتعرف أن مطارحة الحب لاتكون أتم وأوفى وأبهج إلا إذا اقترنت بالود أيضا!" .

وهتف "توندر" يقول:" لاتَتَحدَّثي هكذا! أرجوك ألا تتحدثي هكذا!" .. فرمقَتْ "مولي" الباب بنظرة سريعة وقالت:" نحن قوم غُلبنا على أمرنا أيها الملازم. لقد منعتم عنا الطعام، وأنا جائعة ، وسأودُّكَ أكثر إذا أنتَ أطعمتني" .. فهتف "توندر": " ما الذي تقولين؟" .

- هل أبعَثُ في نفسك الاشمئزاز مني؟ ربما كنت أحاول هذا.. إن أَجْري سجقتان!

وصرخ "توندر" قائلا:" لاتَسْتَرسِلي في هذا الحديث" .

- وماذا كانتْ عليه حالُ فتياتكِم بعد الحرب الأخيرة؟ كان بوسع الرجل أن يختار من بينهن من تروقُ له لقاء بيضةِ أو كِسْرةِ خبز .. أفتريد أن تنالَني دون مقابل أيها الملازم؟! أترى أن الأجر جد مرتفع؟

فأجابها قائلا :" لقد خدَعْتنِي لحظة ، ولكنك تكرهينني أنت الأخرى .. أليس كذلك ؟ كان يُخَالُجني الشك في هذا" .

فقالت :" كلا ، إنني لاأكرهك ، ولكنني جائعة و.. وأكرهك!" .

وأجابها "توندر" بقوله:" سأعطيك كل ما تحتاجين إليه، ولكن.." .

فقاطعته قائلة:؛ أتريدُ أن تطلِقَ علي اسما آخر؟ أنت لاتريد امرأة مومسا.. أهذا ما تعني؟" .

فأجابها "توندر" : لاأدري ما الذي أعني .. فقد جعلْتِ الشيء الذي أبغيهِ يبدو مثْقَلاً بالكراهية!" .

فضحكت "مولي" وقالت" : ليس الجوعُ بالشيء المستحَب .

إن سجقتين ، سجقتين كبيرتين دَسِمَتين قد تصبحان - مع الجوع - أغلى ما في هذا

العالم!".

فقال لها: " لا تَتَفوَّهي بهذه العبارات.. أرجوك ألا تفعلي!".

– لم لا ، إنها لحقيقة صادقة!

– لا . إنها ليست صادقة!.. لايمكن أن تكون صادقة!

وتطلّعتْ إليه لحظة ، ثم جلست وأخذت تُحدّق في حجرها، وقالت: " كلا.. إنها ليست صادقة.. فأنا لاأكرهُكَ ، بل إنني أشعر بالوحدة أنا الأخرى.. والجليد يَثْقل على السقف!".

فنهض "**تونـدر**" واقترب منها ، وضم إحدى يديها بين يديه وقال في رفق: " أرجوكِ ألّا تكرهيني ، فما أنا إلا ملازم .. إنني لم أطلُبْ المجيء إلى هنا .. ولا اخترتُ أنت أن تكوني من أعدائي .. إنما أنا رجل، ولست غازيا!".

وطوقت أصابعُ "**مولي**" يديه لحظة ، ثم قالت في رقة: " أعرف هذا، أجل أعرفه!" فقال "**تونـدر**": إن لنا بعضَ الحق في الحياة وسط كل هذا الموت!".. فرفعت يدها إلى خده لحظة، ثم قالت: " أجل!".. وقال:

–" لسوف أسهر عليك ، فإن لنا بعض الحق في الحياة وسط كل هذا الاغتيال" .. واستقرَّتْ يده على كتفها .. وعلى حين غرة ، تصلّبتْ أطرافها واتسعت عيناها وحملقتا كأنهما رأتا شبحا ، فتَراَخْت يده عن كتفها ، ثم سألها: " ما الخبر؟ ماذا جرى؟"، وكانت عيناها تُحدِّقان إلى الأمام ، فكرر قوله: " ما الخبر؟".

وتحدثَتْ "**مولي**" وكأنها انتقلت إلى عالم آخر بسِحْر غريب: " لقد عاونتُه على ارتداء ملابسه كأنه طفل يذهب إلى المدرسة لأول مرة.. وكان خائفا، فزررتُ له قميصه، وحاولتُ أن أسَرِّي عنه ، ولكنه كان في حال يتعذَّر معها التسرية.. كان خائفا!؛.. فهتف "**توندر**": " ماذا تقولين؟".

وبدا على "**مولي**" أنها تَصِفُ منظرا بَدا لعينيها ، فاستَطْردتِْ تقول: " لستُ أدْرِي لماذا تركوه يعود إلى الدار.. وكان حائراً مرتَبِكًا .. لم يكن يعلم ماذا يجري ، بل إنه لم يُقَبلني عندما رحل، فقد كان خائفا .. وكان شجاعا جدا!.. كأنه طفل يذهب إلى

المدرسة لأول مرة !".

فنهض "**توندر**" وقال:" هل كان هذا زوجَك ؟".، فأجابَتْ "**مولي**" :"أجل ، كان هو زوجي!.. وذهبْتُ إلى العمدة، ولكنه كان عاجزا لاحول له ولاقوة .. ثم سار زوجي في خُطَى بطيئة مهتزة .. وأخذتموه وأطلقتم عليه الرصاص فقتلتموه ، كانت غرابة الأمر وقتئذ تفوق فظاعته ، وكدت ألا أصدقه في ذلك الحين!" .. فعاد "**توندر**" يتساءل:

– " زوجك؟!" .

– أجل !.. على أنني أصبحتُ الآن أُصدق ما حدث ، إذ يُخَيِّم السكون على المنزل. إنني أصدقُ الآن ما حدث ، إذ يتراكم الجليد على السقف.. بل وأعرف أنه حقيقة ، في الوحدة التي ألاقيها في الفراش الذي لايَكْمُل دفؤه قبل أن ينبلج الصبح!

ووقف "**توندر**" أمامها وقد لاحتْ أمارات التعاسة على وجهه ، وقال:" طابتْ ليلتُك، فلِيحْفَظكِ الله، هل أعود؟" .. فتطلعت "**مولي**" إلى الجدار واستعادتْ ذكرياتِها ثم قالت :" لست أدري" .

– سأعود!

– لست أدري.

فنظر إليها ثم دَلَفَ إلى الخارج في هدوء ، ومازالت "**مولي**" تُحمْلق في الجدار،وتتمتم:" فليحفظني الله!" .

*****

وظلت "**مولي**" برهة تُحملق في الحائط ، ثم فُتِحَ الباب في هدوء ودخلت "**آني**" .. ولم تشعرْ بها "**مولي**" ، بل إنها لم ترها!..

وقالت"**آني**" تؤنبها:" لقد كان الباب مفتوحا " .. فأدارت "**مولي**" نظراتها إليها ومازالت عيناها على اتساعهما ، وقالت:" أجل ، أجل يا "**آني**"!" .

– كان الباب مفتوحا ، وقد خرج منه رجل .، لقد رأيته .. كان يبدو كالجندي!

وقالت "**مولي**" :" أجل يا"**آني**" .

– أكان الذي هنا جنديا؟

– أجل ، كان جنديا!

وسألتها "**آني**" وقد ثارتْ شُكُوكُها: " ماذا جاء يفعل هنا ؟" .

– جاء يُطَارِحُني الغرام!

فقالت "**آني**" : " ماذا تفعلين ياسيدتي؟ .. أتراك انْضَمَمت إلى صفوفهم ؟ هل أنت منهم مثل "**كوريل**" ؟" .

– كلا ، لست معهم يا "**آني**" .

وقالت "**آني**: " إذا عادوا والعمدة هنا ، فسيقع عليك وِزْرُ أي مكروه يحدث .. سيكون الذَّنب ذَنْبُكِ!.

– لن يعُودَ.. لن أدَعَهُ يعود!

ولكن الشكوك لم تُزَايل "**آني**" ، فقالت: " هل أخبرْهُم أن يأتوا الآن؟. أتظنين أن المكان مأمون؟" .

– أجل ، إنه مأمون ، أين هم؟

فقالت : " إنهم في الخارج ، خلف السياج" .

– دعيهم يدخلون!

وخرجت "**آني**" ، فنهضت "**مولي**" ونسقت شعرها ، وهزت رأسها محاولة أن توقظ نفسها من سُباتها .. وسُمع صوتٌ ضئيل في الدهليز، ثم دخل شابان طويلان أشقران ، يرتديان سُتْرتين في لون الحمُّصِ ، وصديرتين سوداوين ، وقبعتين مصنوعتين من الجوارب استقرتا على رأسيهما .. وكانت القوة بادية عليهما، وقد لوَّحتْهُما الرياح.. وكان الناظر إليهما يحسبهما توأمين ، ذانك هما ، "**ويل أندرس**"، و"**توم أندرس**" ، صيادا السمك.

– طاب مساؤك يا"**مولي**" .، هل سمعْتِ الخبر؟

– لقد نقَلَتْه "**آني**" إلي .. إن الرحيلَ في ليلة كهذه لأمر شاق!

فقال "**توم**" : " إنها لأفضل من الليلة الصافية ، فالطائرات ترى الشخص في الليلة

الصافية.. ماذا يريد العمدة يا "**مولي**"؟".

– لستُ أدري، ولقد نَمى إليَّ ما وقع لأخيك، وإنني لآسفة!

وساد الصمت بين الاثنين، وتملكتْهُمَا الحيرة، ثم قال "**توم**": إنك أدرى من الكثيرين بوقع هذا الأمر!".

– أجل، إنني أعرف وقعَه!

وجاءت "**آني**" إلى الباب ثانية، وقالت تَهْمِس في صوت أَجَش:" لقد جاءا!".. ودخل العمدة "**أوردن**" والدكتور "**وينتر**" فخلعا معطفيهما وقبعتيهما ووضعاها على الأريكة.

وذهب "**أوردن**" إلى "**مولي**" وطبع قبلة على جبينها، وهو يقول:

–" طاب مساؤك يا عزيزتي".. ثم التَفَتَ "إلى "**آني**" وقال:" قفي في الدَّهْلِيز يا "**آني**" واطْرُقِي الباب طرقة عند مرور الدوارية، وأخرى عند انصرافها، ثم طرقتين في حالة الخطر ويمكنُكِ أن تتركي الباب الخارجي مفتوحا قليلا حتى إذا قدم أحدُ سمعْتُه".

فأجابت "**آني**" قائلة:" سمعا وطاعة يا سيدي". وذهبتْ إلى الدهليز بعد أن أغلقتْ باب الغرفة خلفها.

وكان الدكتور "**وينتر**" عند المدفاة، يلتمس الدفء، فقال، "بلغني أنكما راحلان الليلة يا بُني".. فقال "**توم**": "إننا مُكْرهَان على الرحيل".. وأومأ "**أوردن**" وهو يقول:" أجل، أعرف هذا، وقد علمنا أنكما ستأخذان السيد "**كوريل**" معكما".

وضحك "**توم**" ضحكة مريرة وهو يقول: –"لقد خُيِّل إلينا أن هذا هو الصواب، فإننا سنأْخُذُ قاربه، ولانستطيع أن نتركه هو هنا، إذ ليس من الخير مشاهدتُهُ يمرح في الشوارع!؛.. فقال "**أوردن**" في لهجة تنم عن الحزن والأسى:" ليته رحل!.. ولكن من الخطر عليكما أن تأخذاه معكما".. فردد "**ويل**" قول أخيه:" ليس من الخير مشاهَدَتُه في الشوارع.،. ليس من الخير للناس أن يَرَوْهُ هنا".

وسألهما "**وينتر**" قائلا:" هل يُمْكِنكما أخذه؟ أليس هو على شيء من الحرص؟".

– بل إنه حريص بعض الشيء. على أنه أَلِفَ العودة إلى منزله في الساعة الثانية عشرة وسنكون خلف السور ، وأعتقد أننا نستطيع نقله من حديقته إلى الماء ، فإن قاربَهُ يرسو هناك ، وقد ذهبنا إلى القارب اليوم وأعدَدْنَاه للرحيل .

وعـاد **"أوردن"** يقول: " كنتُ أتمنى لو أن الظروفَ لم تُكرهْكُما على هذا ، فإن فيه مزيدا من الخطر، إذ إن الدوارية قد تشعرُ بكما لو أنه أثار أية ضجة " .. فقال **"تـوم"** : " إنه لن يُثير ضجة ، ومن الخير أن يَخْتَفِي في البحر ، فإن بعضَ أهل البلدة قد يقْضُون عليه ، فتقعَ حوادث قتل كثيرة.. كلا ! من الأفضل أن يخرج إلى البحر!" .

والتقَطَت **"مولي"** شُغْلَها وقال:" هل ستُلْقِيان به إلى البحر؟" .. فسَرَت حمرة الخجل في وجـه **"ويـل"** وهو يقول:" سيخرج إلى البحر يا سيدتي!" .. ثم التفت إلى العمدة متسائلا:" أكنت تريد مقابلتنا ياسيدي؟" .

– أجل أريد محادثتكما .. لقد حاولت أنا والدكتور **"وينتر"** أن نفكر .. فقد كثر الحديث عن العدل والظلم والغزو.

لقد تعرض شعبنا للغزو ، ولكنني لاأعتقد أنه غُلِب على أمره!" .

✽✽✽✽✽

وسُمِعَت طرقةٌ حادة على الباب، فخيم السكون على الغرفة، وتوقفتْ إبرتا **"مـولي"** عن عملهما، وظلت يد العمدة ممدودة في الهواء ! وكان **"تـوم"** يحك أذنه ، فترك يده حيث هي، وكف عن الحك !.. وظل كل من في الغرفة بلا حراك ، وتحولت الأعين كلها صوْبَ الباب . وجاء صوت وقع أقدام الدوارية خافتا ، ثم أخذ يشتد شيئا فشيئا ، وسمعوا صريف أحذية رجالها على الجليد ، وصوت حديثهم وهم يمرون .. وما لبثوا أن جاوزوا البـاب ، ثم أخذ وقع أقدام الرجال يخف رويدا وهم يبتعدون .. وسُمِعت طرقةٌ أخرى على الباب ، فتنفس كل من في الغرفة الصُّعَداء !

وقـال **"أوردن"** :" لابد أن الطقس بارد في الخارج لاتقوى عليه **"آنـي"** ، ثم أخـذ معطفه من فوق الأريكة وفَتح الباب الداخلي ، مد يده بالمعطف قائلا:" ضعي هذا حول

كتفيك يا :**آني**" !.. ثم أغلق الباب وهو يقول:" لستُ أدري ماذا كنت أفعل بدونها ، فإنها تذهب إلى كل مكان ، وترى وتسمع كل شيء ! " .

وقال "**توم**" : يجب أن نرحلَ في الحال ياسيدي" .. فقال "**وينتر**" : -"ليتكما لاتفكران في "**كوريل**" .. فقال الشاب:" لانستطيع هذا ، فليس من الخير مشاهدته في الشوارع ! " ،

ونظر متسائلا إلى العمدة "**أوردن**"، فشرع هذا يقول ببطء:" أريد أن يكون حديثي معكما بسيطا واضحا .. هذه بلدةٌ صغيرة ، والعدل والظلم فيها يتمثلان في أمور بسيطة.. فلقد أعُدم أخوكما وأعدم "**ألكس موردن**" أيضا .. وكان هذا الإعْدام وذاك باسم الانتقام من خائن . وقد ثارت ثائرة الناس غضبا وحقدا، ولاسبيل لهم إلى رد العدوان ،ولكن كل هذا على قدر محدود .. إنه شعب ضد شعب ، وليست فكرة ضد فكرة! " .

وقال "**وينتر**" :" من الغريب أن يفكر طبيب في الإبادة والإفناء، ولكنني أعتقد أن كل من غُزِيتْ أرضه تستبد به الرغبة في المقاومة .. إننا قوم عُزَّل ، ولاتكفي روحنا المعنوية ولا أجسامنا .. فإن الرُّوحَ المعنوية لرجل أعزل سرعان ما يُدْركها الضعف ويتطرقُ إليها الوهن! " .

وتساءل "**ويل أندرس**" قائلا:" فيم كل هذا ياسيدي؟ ماذا تريد منا؟" .. فقال "**أوردن**" :" نريد قتالهم ولانستطيع إلى هذا سبيلا .. إنهم يحاربون الناس بالجوعُ الآن، والجوع يُورِث الضعف ، إنكما ستبحران إلى "**إنجلترا**" ، ولعلكما لن تجد أذناً مُصغية ، ولكن انقلا إليهم عنا – نحن أهل هذه البلدة الصغيرة – أننا في حاجة إلى السلاح! " .وسأل "**توم**" :" أتريدون بنادق؟" .

وسُمِعَت طرقة سريعة على الباب، فجمد كل من كان في الغرفة حيث هو ، وجاء من الخارج صوت وقع أقدام الدوارية مرة أخرى ، ولكنهم كانوا يسرعون الخطى في هذه المرة، بل يركضون ، وأسرع "**ويل**" صوب" الباب . وحاذت خطى الرجال المسرعين باب

البيت ، وسُمعت أوامرُ مُبْهَمَة، ثم هَرعَتْ الخطى في طريقها ، وطُرِق الباب طرقة أخرى.

وقالت "**مولي**" : " لابد أنهم يُطَاردون شخصا ، ترى من يكون هذه المرة؟" . . فقال "**توم**" في قلق: " لقد حان موعد رحيلنا.

– "أتريدون بنادق ياسيدي ؟ هل نطلب البنادق ؟" .

– كلا، بل اشرح لهم الموقف كما هو عليه الآن، قل لهم: إننا مُراقَبون ، وأن أيةَ حركة نقوم بها تقابل بالانتقام ، وأن بودنا الحصول على أسلحة بسيطة .. أسلحة سرية خفية كالمفَرْقَعَات والديناميت، لنسف السكة الحديدية.. القنابل اليدوية إذا أمكن .. بل والسم أيضا!. ثم أردف يقول والغضب يتملكه :" ليست هذه حربا شريفة، بل هي حَرْب خِداعٍ وقتل ، فلْنُحَارب بالوسائل التي حُورِبْنَا بها .. فَلْتُلْقِ قاذفات القنابل البريطانية قنابلها على المصانع، ولكن فلتلق إلينا نحن أيضا بقنابل صغيرة نستَعْمِلُها ونخفيها ونضعها سرا تحت الخطوط الحديدية وتحت الصَّهَاريجِ، وبذلك يتم تسليحنا .. تسليحُنَا خِفْيَة ، ولن يعلم الغازي قط من منا المسلح ! فلتأت لنا قاذفات القنابل بأسلحة بسيطة ، وسنعرف كيف نستخدمها" .

وهتف "**وينتر**" يقول: " لن يَعرفوا من أين تَنزل بهم الضربات .. لن يعرف الجنود والدواريات مطلقا من منا المسلَّح" .. فمسح "**توم**" جبهته وقال: " سننقل إليهم هذا ياسيدي، إذا أفلحنا في الهرب . ولكنني سمعتُ أن الذين يتولون الحكم في "**إنجلترا**" رجال لايهتمون بتسليح عامة الشعب" .. فحملق "**أوردن**" فيه وقال: " لم أفكر في هذا، وليس لنا إلا أن ننتظر ما سوف يقولون .. ولو أن مثل هؤلاء القوم ما يزالون يحكمون "**إنجلترا**" و"**أمريكا**" ، فقل على العالم السلام!.. انْقُلْ إليهم ما قلنا إذا استمعوا إليك!.. يجب أن نحصُلَ على معاونة، وما إن تصلنا .." ، ثم قستْ ملامح وجهه وأردف يقول: –"إذا وصلتنا فسنعاون أنفسنا!" .

وقال "**وينتر**" : " ليتهم يُعْطونَنا حتى الديناميت لنُخْفيه..

لندفنه في الأرض حتى يكون في متناول أيدينا عند الحاجة..

ولن يعرف الغازي الراحة بعد هذا قط!.. سَنَنْسِف مخازن مؤنه وذخائره" .

وطغت على الغرفة موجة من الحَمِيَّة والحماس ، فقالت "**مولي**" في شدة وعنف: " أجل ، نستطيع بذلك أن نقض مضاجعه ، وأن نتلف أعصابه ، ونجعل من يقينه شكا وريبة!" .

وسأل "**ويل**" في هدوء : " أهذا كُلُّ ما تطلب يا سيدي؟؟..

فأومأ "**أوردن**" برأسه وقال: " نعم ، هذا هو لُبُّ الموضوع" .

– وإذا أبوا الاستماع إلينا؟

– ما عليك إلا المحاولة ، كما ستُحَاول عبور البحر الليلة!

– ألا تريد شيئا آخر يا سيدي؟

وفُتِح الباب ودخلت "**آني**" في هدوء ، بينما مضى "**أوردن**" يقول: –"هذا كل ما في الأمر فإذا كان موعدُ رحيلكما قد حل فلأرسل "**آني**" إلى الخارج لتطمئن إلى سلامة الطريق " .. ثم نظر فرأى أن "**آني**" قد جاءت من الخارج . وقالت "**آني**": " هناك جندي قادم، وهو يشبه الجندي الذي كان هنا من قبل.. فقد كان هنا جندي مع "**مولي**" قبل الآن" .

ونظر الآخرون إلى "**مولي**" ، بينما قالت "**آني**": " لقد أغلقْتُ الباب" .. فتساءلت "**مولي**" : ماذا يريدُ ؟ ما الذي يدعوه إلى العودة؟" .

وسُمع صوتُ طرق رقيق على الباب الخارجي ، فذهب "**أوردن**" إلى "**مولي**" وسألها قائلا: " كلا، كلا! اخْرُجوا من الباب الخلفي .. يمكنكم الخروج من الباب الخلفي ، وأسرعوا ! أسرعوا إلى الخارج!؟.

واستمرَّ الطرقُ على الباب الأمامي ، وكان صوتُ رجل ينادي في رقة ولطف. وفتحت "**مولي**" الباب المؤدي إلى المطبخ وقالت: " أسرعوا! أسرعوا .. فوقف العمدة أمامها وقال: " هل أَنْتِ في مأزق يا "**مولي**"؟ ما أظُنّك ارتكبتِ ذنبا؟" . فقالت "**آني**" في لهجة شابها البرود:

– " يبدو أنه هو نفسُ الجندي، فلقد زارها جندي من قبل!" . وقالت "**مولي**" موجهة

الحديث إلى العمدة: "أجل لقد زارني هنا جندي من قبل فسألها العمدة قائلا: " وماذا كان يريد؟" .

– كان يريد مطارحتي الغرام!

فقال "**أوردن**" : " ولكنه لم يتمكّن منك؟" .. فأجابت: " كلا ، لم يتمكن مني .. والآن اذهبوا ، ولاتخشَوْا عليّ بأسا" .

وقال "**أوردن**" : " إذا كنتِ في مَأزق يا"**مولي**" فدعينا نساعدك" .. فأجابتْ قائلة: " لايستطيع أحد معاونتي في المأزق الذي أنا فيه .. انصرفوا الآن" .. ودفعتْهُمْ خارج الباب . ولكن "**آني**" تخلَّفَتْ عن الجماعة، ونظرت إلى "**مولي**" ثم قالت :" ماذا يريد هذا الجندي ياسيدتي ؟" .

– **لست أعلم ما الذي يريده:**

– هل ستقولين له شيئا؟

فقالت "**مولي**" "كلا" ، ثم عادتْ فكررت في ذهول :" كلا" .. وانْثنتْ تقول في لهجة حادة:" كلا يا "**آني**"، لن أقول له شيئا !" .. وعبست "**آني**" في وجهها وهي تقول:؛ يحسُنُ بك ألا تقولي له شيئا!"، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها.

واستمر الطرق على الباب الأمامي ، وكان من الممكن سماعُ صوتِ رجل من خلال الباب ، فذهبت "**مولي**" إلى المصباح الملقى على المنضدة، وقد أثْقَلَهَا الهم والحيرة. ونظرت إلى المصباح، ثم إلى المنضدة، فرأت المقص الكبير الذي كان بجانب شغلها .. وأمسكته من نَصْلَيه – في شرود وذهول – فانفلت النصلان من أصابعها حتى أضحت تمسك بالمقص نفْسِهِ كأنه السكين ، وقد بدا الرعب في عينيها . وعادت تنظرُ إلى المصباح وقد غمر الضوءُ وجهَهَا ، ثم رفعتْ المقص ببطء ودسَّته في طياتِ ثوبها.

واستمر الطرق على الباب ، وسمعت صوتا يناديها ، فمالت على المِصباح لحظة ثم أطفأته فجأة . وغَشّي الغرفةَ ظلامٌ دامس ، لايتخلَّله سوى بقعة حمراء من الوهج كانت تشع من مدفأة الفحم .. ثم فتحتْ الباب . وكان صوتُها متوترا، عذبا ، رخيما ، وهي تهتف قائلة:" إنني قادمة أيها الملازم .. إنني قادمة!" .

الفصل السابع

لم يكن القمرُ الأبيض ، المُضْمَحِلّ ، يرسل من الضوء ما يكفي لتبديد ظلمة الليل. وكانت الرياح تهمهم على سطح الجليد . . رياح هادئة تصب بانتظام وبدرجة متساوية من مركز القطب البارد، وقد تساقط الجليدُ في غزارة على الأرض، فنشأتْ عنه طبقة كثيفة جافة هي والرمل سواء بسواء . .

واستكنّت البيوتُ في تجاويف الجليدِ المتراكم . وكانت النوافذ مُعْتِمة ، مغلقة ، وقاية لأهلها من البرد. وما كان ينبعث عن نيران تلك البيوت إلا القليل من الدخان . .

وجَمَد الجليد في دروب البلدة وتصلب . .وكانت الشوارع مقفرة من المارة،يُخيم عليها سكون لايُعكره إلا مرور الدوارية التعسة المقرورة. . وساد الظلام المنازل في تلك الليلة ، وقد تخلَّفَ فيها شيء من دفء الصباح . وكان الحراس المعَينّون عند مدخل المنجم يرقبون السماء ، ويوجِّهونِ آلاتهم صوبها، ويتسَمَّعُون الأصوات . إذ كانت تلك الليلة صافية تصلح لإلقاء القنابل . ففي مثل هذه الليلة ، كانت تُلقى الأسطوانات الفولاذية ذات الزوائد المجنحة ، فتنقض على من كانت تُلقَى عليهم في صفير مزعج ، وتَنْفجِر مخلفة الشظايا . . فلقد كانت الأرض تبدو واضحة لمن في السماء ، ولو أن ضوء القمر كان خافتا باهتا!

وفي أحد طرفي البلدة – بين المنازل الصغيرة– كان ثَمَّة كلبٌ يَعْوي متأثرا بالبرد والوحدة. وأخذ يرفع أنفه إلى ربه يشكو إليه بعوائه الطويل المرير، ما آلتْ إليه حالُ الدنيا، وما عاد عليه من جراء ذلك . . وكأنّ مغنيا مُدرَبا له حنجرة كالجرس تعلو فيها الطبقات وتنخفض ! . . وسمِع الرجال الستةُ الذين يؤلفون الدوارية – وهم يذرعون الشوارع فاتري العزم ثابطي الهمة– "غناء " هذا الكلب ، فقال أحد الجنود: " يَبْدُو لي أن هذا الكلب يزداد سوءا ليلة بعد ليلة ، وأعتقد أن من واجبنا قتله!"

وأجابه واحد منهم : " ولماذا ؟ دعه يَعْوي ، فإنه لايُزعجني . لقد كان لي في الوطن كلب يعوي ، ولم أستطع ترويضَه مطلقا، إذ كانت تَغْلب عليه الكآبة. إن العواء لايُزْعِجني . وقد أخذوا كلبي فيما أخذوا من الكلاب!" . . وكان الحزن يسود لهجته،

فقال الملازم: " ما كان لك أن تقتني كلابا ، فإن الحاجة ماسة إلى الطعام الذي قد تُغَذّيها عليه! " .

– لست أشكو ، فإنني أعلمُ أن للضرورةِ أحكاماً ! . ليس بوسعي أن أنحو في تفكيري نحو الزعماء ، ولكنني لاأملِك إلا العجب من أن بعض الناس هنا يَقْتَنُون الكلاب ، مع أن ما عندهم من الطعام يقل عما عندنا .. ومع ذلك فالناس والكلاب هنا غايةٌ في النحافة والهزال!

فقال الملازم: " إنهم لبلهاء ، ولذلك خَسِرُوا المعركة بهذه السرعة. .إن تفكيرهم لايرقى إلى مستوى تفكيرنا" ..

وقال الجندي: " ترى أيكون لنا كلابٌ ثانية بعد أن تضع الحرب أوزارها؟.. أعتقد أننا مستطيعون الحصولَ عليها من "**أمريكا**" أو من بلد آخر، لتَبْدَأ أنسالها من جديد!.. أي نوع من الكلاب في "**أمريكا**" فيما تحسب؟" .

فأجاب الملازم قائلا: " لستُ أدري .. لعلها كلاب مجنونة ككل شيء عندهم هناك!"، ثم أردف يقول : " وعلى كل فقد لايكون للكلاب أي نفع ، فَحَرِيّ بنا ألا نفكر فيها إلا بقدرِ ما يلزمنا منها لأعمال البوليس" .. فقال الجنديُّ : " قد يكون الأمر كما تقول، فقد علمت أن الزعيم لايحب الكلاب ، وقد سمعت أنه يصاب بالسعال والعطاس إذا اقتربتْ منه!" .. فقال الملازم: " إنك تسمع أشياء كثيرة! أَنْصتوا!" .

وتوقفتْ الدوارية في سيرها.. وطرق آذانَهم صوتُ أزيزالطائرات قادما من بعيد ، فقال الملازم: " ها هي قد جاءت !.. حسنا ، لايوجد أي ضوء .. ألم يْنقَضِ أسبوعان منذ جاءت الطائرات آخر مرة؟" .. فأجاب الجندي : " بل اثنا عشر يوما" .

وسَمِعَ الحراسُ الذين كانوا في المنجم أزيزَ الطائرات العالية، فقال جاويش: " إنها تطِيرُ على ارتفاع شاهق!"

.. فطوَّحَ الكابتن "**لوفت**" رأسَه إلى الوراء حتى يستطيع أن يرى من تحت حافة خوذته ، ثم قال: " أعتقد أنها تطير على ارتفاع يزيد على ٢٠,٠٠٠ قدم ، وربما كانت

تحلق فوق رؤوسنا الآن!" .. فأنصت الجاويش قليلا ثم قال : " ليس عددها كبيرا جدا، ولا أعتقد أن عددها يزيد على ثلاثة .، هل أخطر المدفعية؟" .

– كلا ، بل اطمئن إلى أن رجالها ساهرون ، ثم استَدْعِ الكولونيل "**لانسر**" ، بل .. لا ، لا تستدعه ، فقد لاتأتي الطائرات إلى هنا .. إنها فوقنا تقريبا ولم تبدا في الانقضاض بعد !

– يبدو لي أنها تدور في دوائر ، ولا أعتقد أن عددها يزيد على اثنتين.

وسَمع الناسُ وهم في أَسِرَّتهم أصواتَ الطائرات ، فغرقوا في أطواء الأسرة يُصِيخُون السمع. وأيقظ الصوت الضئيل الكولونيل "**لانسر**" في قصر العمدة، فانقلب على ظهره ينظر إلى السقف المظلم بعينين مفتوحتين، وقد حَبَسَ أنفاسه ليسمع جيدا ، ولكن قلبه أخذ ينبضُ بقوة حتى استحال عليه السمع جيدا .،. وسمع العمدة "**أوردن**" أزيز الطائرات في نومه ، فنسج خياله منها حلما ، وأخذ يتحرك ويهمس في نومه !

وكانت قاذفتا القنابل في لَون الطين ، وقد راحتا تَحُومَان وتدوران على ارتفاع كبير، وقد أغلَقَتَا صمام النفس في محركاتهما ، وأخذتا تحلقان في الجو وهما تحومَان في دوائر.. وتساقطت من بطن كل منهما أشياء صغيرة جدا.. مئات من هذه الأشياء ، الواحد منها في أثر الآخر .. وقد سبحت الأشياء في الجو بضعة أقدام ، ثم انفتحت مظلاتٌ صغيرة متصلة بها ، أخذت تتهادى في هبوطها في سكون ، حاملةً طرودا صغيرة إلى الأرض التي تحتها . ثم فَتحتْ الطائراتُ صِمَام النَّفَس مرة أخرى ، فارتفعتا في الجو، وما لبثتا أن أَغلقتا باب النفس وعادتا لتحْوِيمهما فألقتا مزيدا من تلك الطُرُودِ الصغيرة ، ثم استدارتا وعادتا من حيث جاءتا !

*****

وسبَحت المظلات الصغيرة في الفضاء كأنها زُغْب الحَسَك، فحملِها الريح وتكَفَّلَ بتوزيعها. وظلت تسبح ببطء حتى استقرت آخر الأمر على الأرض في رفق وهَوَادة، حتى إن طرود الديناميت التي يبلغ طولُها عشْرَ بوصات كانت تقف مستقيمة أحيانا في الجليد ، تحيطُ بها مظلاتها الصغيرة .. وكانت تبدو سمراء اللون بالنسبة للجليد ، وقد

هبطتْ في الحقول البيضاء وفي غابات الجبال وفي الأشجار ، وتَدلَّتْ من فروعها . واستقر بعضها على سقوف منازل البلدة الصغيرة، والبعض في أفنية البيوت الأمامية الصغيرة .. بل إن طردا منها استقر على قمة رأس تمثال القرية الذي يمثل القديس "**ألبرت**" الرسول.

وهبطتْ مِظَلَّة صغيرة من هذه المظلات في الشارع أمام الدوارية، فقال الجاويش:" حَذارِ ! إنها قنبلة زمنية!" ..

فقال أحد الجنود :" إنها ليست كبيرة!" .

– حسنا ، لاتقتربْ منها !

وأخرج الجاويش مِشْعَلَه الكهربائي وسلطه على هذا الشيء ، فإذا به مظلةٌ صغيرة لايزيد حجمها على حَجْمِ المنديل ، ذاتُ لون أزرق فاتح يَتَدَلَّى منها طرد لف بورق أزرق.. وقال الجاويش :؛ حذار أن يلمسها أحدكم!.. اذهب يا "**هاري**" إلى المنْجَم وادْعُ الكابتن ، بينما نرْقُبُ نحن هذا الشيءَ اللعين!" .

وبزغ الفجرُ المتأخر، وخرج الناس من بيوتهم في الريف، فشاهدوا البقعَ الزرقاءَ على الجليد .. وذهبوا إليها والتقطوها ، ثم فكوا الورق الذي لُفَّتْ به وقرءوا الكلمات المطبوعة..

ورأوا الهديةَ. وسرعان ما أصبح كل من وجد طردا من هذا القبيل كتُوماً، يحرص على سرِّه حرصَه على نفسه ، فيُخْفِي الأنبوبة الطويلة تحت سُتْرته ، ويذهب إلى مكان سري فيخفيها فيه . وسمع الأطفالُ نبأ الهدية، فأخذوا يُنَقِّبون عنها تنقيَبهم عن بيض عيد الفصح، فإذا وُفق طفلٌ إلى المظلة الزرقاء ، اندفع إلى الهدية وفتحها ثم أخفى الأنبوبة وحدَّثَ والديه بأمرها .. وتملك الخوف بعض الناس ، فسلموا الأنابيب إلى السلطاتِ العسكرية ، ولكنهم لم يكونوا كثيرين .. وهُرِع الجنودُ هم الآخرون إلى البلدة يُنقِّبون عن هذه المظلات الصغيرة تنقيب الأطفال عن بِيضِ عيد الفِصْح ، بيد أنهم لم يُوفَّقوا توفيق الأطفال!

أما في غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، فقد ظلَّتْ مائدةُ الطعام– وحولها المقاعد–

كما كانت يوم إعدام "**ألكس موردن**" . بيد أن الغرفة لم تَعُدْ تحتفظ بالفتنة التي كانت لها عندما كان القصر قصر العمدة، وقد بدتْ الجدرانُ جرداء ، إذ حُرمت المقاعد التي كانت مُسْندة إليها. . وخَلعَتْ المائدة على الغرفة بالأوراق المبعثرة عليها ، منظر المكتب التجاري! ودقت الساعةُ –التي على رف المدفأة– التاسعة.

وكان اليوم مظلما ، تُخَيِّم عليه الغيومُ. . فقد جاء الفجرُ معه بغيوم الجليد الثقيلة!

وخرجت "**آني**" من غرفة العمدة ، وهُرِعَت إلى المائدة فرمقتْ الأوراق التي كانت عليها . ودخل الكابتن "**لوفت**" ، فوقف في مدخل الباب عندما رأى "**آني**" ، وسألها قائلا: " ماذا تفعلين هنا ؟" . . فأجابت "**آني**" عابسة مُتَجَهِّمة : " نعم ياسيدي " .

– أقول ماذا تفعلين هنا؟

– فكرتُ في أن أنظفَ هذه الغرفةَ ياسيدي:

– دعْكِ من هذا الآن ، وانصرفي إلى حال سبيلك ! فقالت "**آني**" :

–" سمعا وطاعة ياسيدي". وانتظرت حتى أفسح لها، ثم انطلقت خارجه لاتَلْوِي على شيء . . وإذ ذاك استدار الكابتن "**لوفت**" في مدخل الباب وقال : " حسنا، ائْتِ بها" . . فخف جندي من خلال الباب القائم خلفه ، وقد علق بندقيته على كتفه ، وحمل بين يديه عددا من الطُّرودِ الزرقاء ، وقد تدلتْ من أطرافها قطع الدوبارة الصغيرة والقماش الأزرق .

وقال "**لوفت**" : " ضَعْهَا على المائدة " . . فصَدَعَ الجنديّ بما أُمِر به ، ووضعها على المائدة " في حرص وحذر . فقال "**لوفت**" : " والآن، اذهب إلى الكولونيل" **لانسر**" في الطابق الأعلى ، وقل له: إنني جئت ومعي . . الأشياءُ !"، فدار الجندي على عقبيه وبارح الغرفة.

وذهب "**لوفت**" إلى المائدة فالتقط طَرْدا من هذه الطرود .

وارتسمتْ على وجهه علاماتُ النُّفورِ والكراهية ! . . وأمسك بالمظلة الزرقاء الصغيرة، ورفعها فوق رأسه ، ثم ألقى بها، فانفتحت وسبحت في الجو حتى استقرت على الأرض. ثم التقط الطرد ثانية وشرع يفحصه ، وما لبث الكولونيل أن جاء مسرعا إلى

الغرفة ، وفي أعقابه الماجور "**هنتـر**" .. وكان يحمل في يده قطعة مُرَبَّعة من الورق الأصفر. وقال "**لانسر**" : "طاب صباحك يا كابتن!" .. وذهب إلى رأس المائدة وجلس ، وأخذ ينظر برهة إلى الكومة الصغيرة من الأنابيب ، ثم التقط إحداها وأمسك بها في يده ، وقال : " اجلس يا "**هنتر**" . هل فحصْتَ هذه ؟" .

وجـذب "**هنتـر**" مقعدا جلس عليه ، ثم نظر في الورقة الصفراء التي في يده ، وقال :"لم أَفْحَصْها جيدا .، لقد نُسِف خطٌّ السكة الحديدية في ثلاثة مواضع ، كلها في مسافة عشرة أميال" .

.. فقال "**لانسر**" : " انظر إليها وحاول أن تُكَوِّن رأيا عنها !" .

فمد "**هنتـر**" يدهَ وأخذ أنبُوبة نَزَع عنها غلافها الخارجي، فوجد طردا صغيرا إلى جوار الأنبوبة . وأخـرج "**هنتـر**" سكينا وأحدث شَقًّا في الأنبوبة – وكان الكابتن "**لـوفـت**" يقف وراءه يشاهدهُ – وتشمم الشقَّ ثم دعك أصابعه معا وقال : " إن هذا لسخف ، فإنه لديناميت تجاري ، ولاأعلم نِسْبةَ ما فيه من "**نيتروجليسرين**" حتى أخْتَبِرُه " . ثم نظر إلى طرفِ الأنبوبة واسترسلَ يقول: " إن لها غطاء الديناميت المعتاد ، وفِلْمِينَات الزئبق – وهي الفِضَّةُ المتفجرة – ثم فَتِيلٌ يستغرق إشعاله نحو الدقيقة فيما أظن" .. وألقى بالأنبـوبة على المائدة ثانيـة وهو يقـول: " إنهـا لغـايةٌ في الرُّخَصِ والبساطة!" .

ونظر الكولونيل إلى "**لوفت**" وقال: " كم تظن أُلْقِي من هذه الأنابيب؟" .. فأجاب؛ **لوفـت**" بقوله : " لستُ أدري ياسيدي فقد جَمعْنا منها نحو الخمسين ، ونحو تسعين مظلة مما تُلقي به الأنابيب . والناس – لبعض الأسباب– يأخذون الأنابيبَ ويتركُونَ المظلاتِ .. ولعل هناك عددا كبيرا لم نعثرْ عليه بعد!" .

ولوَّحَ "**لانسر**" بيده وهو يقول: " ليس للأمر أية أهمية في الواقع ، فليلقوا ما يشاءون من الأنابيب ، فليس في استطاعتنا أن نَحُولَ دونهم ودون إلقائها ، ولانستطيع استعمالها ضدهم أيضا .. وهم بهذا لايكونون قد هزموا أحدا!" . فقال "**لوفت**" في

قسوة وعنف: –"نستطيع أن نمحوهم من على وجه الأرض!".

وكان "**هنتر**" ينتزع الغطاء النحاسي لإحدى هذه الأنابيب.

وقال "**لانسر**": "أجل، نستطيع أن نفعل هذا. هل نظرت إلى هذا الغلاف يا "**هنتر**"؟".

– كلا، فلم يتَّسعْ لي الوقت بعد.

فقال الكولونيل "**لانسر**": "إنه لعمل شيطاني، فالغلافُ أزرق كي تَسْهُل رُؤْيَته، فإذا نزعتَ الغلافَ الخارجي وجدْتَ.." "والتقط الطرد الصغير، واستأنف يقول: "قْطعَةً من الشوكولاتة، سيبحث عنها الكل.. أراهنُ أن جنودنا يسرقون الشوكولاتة، بل سيبحث عنها الأطفالُ بحثهم عن بيض عيد الفصح!".

*****

ودخل جنديٌ وضع قطعة مربعة من الورق الأصفر أمام الكولونيل وانسحب. ورمقها "**لانسر**"، ثم ضحك ضحكة أجشة وهو يقول:

–" هذا لك يا "**هنتر**".. إنهما كسران آخران في خطك الحديدي".

ورفع "**هنتر**" رأسَهُ عن الغطاء النُّحَاسي الذي كان مُكبًا على فحصه، وسأل الكولونيل قائلا: "هل كان إلقاء هذه الأنابيب عاما؟.. هل ألقوها في كل مكان؟".. وظهرت الدهشةُ على وجه "**لانسر**" وهو يجيب قائلا: "هذا هو الشيءُ الغريبُ.. فقد اتصلتُ بالعاصمة فعلمت أنهم لم يلقوا هذه الأنابيب إلا هنا".

وسأله "**هنتر**": "وما رأيكَ في هذا؟".. فقال: "يَتعذَّر علي أن أُبديَ رأيا.. لقد اختاروا هذا المكان للتجربة، فإذا نجحوا هنا استخدموا هذه الوسيلة في كل مكان آخر، وإذا لم تُفلِح هنا، عدلوا عنها!".. فسأله "**هنتر**": "وماذا أنت فاعل؟".

– لقد أَمرتْني العاصمةُ بأن أقاومَ هذه الحركة بغير رحمة حتى لايعودوا لإلقاء هذه الأنابيب في أي مكان آخر!

وقال "**هنتر**" وقد شاب لهجتهَ الحزن: "كيف سأُصلح خمسة كُسُور في الخط

الحديدي؟.. ليس عندي الآن قضبان لخمسة كسور".. فأجاب "**لانسر**" :" أعتقد أن عليك أن تنزع بعض قضبان خطوط التخزين القديمة!".

وألقى الماجور "**هنتر**" الأنبوبةَ التي مزَّقَها على كُومَة الأنابيب، بينما قال "**لوفت**": يجب أن نتخذَ إجراء سريعا ياسيدي..

يجب أن نَقْبض على الناس الذين يلتقطون هذه الأشياء، وأن نعاقبهم قبل أن يُقدِمُوا على استعمالها.. ويجب أن نُسرع حتى لايظن هؤلاء الناس أننا ضُعَفَاء!".

وكان "**لانسر**" يبتسم، فقال:" على رِسْلكَ يا كابتن، فلْنفْحَصْ ما أمامنا أولا ثم نفكر في أنواع العلاج".. وأخذ طردا جديدا من الكومة وفض غلافه، ثم تناول قطعةالشوكولاتة الصغيرة وذاقها، وقال:"إن هذا لعمل شيطاني، والشوكولاتة من النوع الجيد، حتى إنني لاأستطيعُ مقاومة إغرائها.. إنها لدي بمثابة اللُّقْية التي تسوقها المصادفات!". ثم تناول الديناميت وقال:" ما رأيك في هذا حقا يا "**هنتر**"؟".

– عينُ ما قلتُهُ لك، وهو أن الديناميت ذَا الغطاء والفَتِيلَ الذي يستغرق دقيقة واحدة، رخيصٌ جدا.. وفَعَّال جدا للمهام الصغيرة. وهو جيد إذا عرفْتَ كيف تستَعْمِله، رديء إذا لم تَعرف!". وأخذ "**لانسر**" يدرس الكلمات المكتوبة داخل الغلاف، ثم سأل "**هنتر**" قائلا:" هل قرأت هذا؟". فأجاب "**هنتر**":" ألقيتُ عليه نظرة فقط!". وإذ ذاك قال :"**لانسر**" " لقد قرأتُه أنا، وأريد منك أن تُنْصِتَ إلي جيدا". ثم أخد يقرأ من الورقة :" إلى القوم الذين لايُقهرون :" أخفوا هذا ولاتْفضَحوا أنفسكم، فستحتاجون إليه فيما بعد!.. إنها هدية من أصدقائكم إليكم، ومنكم إلى غازي بلادكم!..

لاتحاولوا أن تسخدموها في الأعمال الكبيرة".. وتحول يقرأ بعد ذلك فقرَات من المنشور: "إليك بيَانَ الأعمال:خُطوطَ السكة الحديدية الممتدة في الريف.. والعمل ليلا.. وتعطيل وسائل النقل!.. وإليكَ هذا الآن: تعليمات بشان الخطوط الحديدية.. ضَعْ أنبوبة تحت الخط بِقُرْب التوصيلة تماما، وأَحْكِمْ شدها برباط، ثم غَطِّها بالطين أو بالجليد الجامد حتى تَثْبُتْ مكانها. فإذا أشعلتَ الفَتِيل، فإن الديناميت ينفجر بعد أن

تعد إلى الستين .. عدا بطيئا !" .

ثم رفع :"**لانسر**" رأسه إلى "**هنتر**" ، فقال هذا ببساطة :" إنها لطريقةٌ فعَّالَة" .

وعاد" **لانسر**" ينظر في ورقته ويقرأ منها بعض الفقرات :" الجسور : اضْعِفْها ولاتدمرها! .. وهاك أيضا أعمدة التلغراف ، وكذلك "البرابخ" .. وعربات الشحن!" .

.. ووضع "**لانسر**" ورقة التعليمات الزرقاء على المائدة وقال:" هاك كل ما يَهُمُّنا من الأمر!" .. فقال "**لوفت**" وقد شاب لهجته الغيظ :

-" يجب أن نفعل شيئا .. لابد أن هناك طريقةلعلاج هذه الحال .. ماذا تقول القيادة؟" .. فزَمَّ "**لانسر**" شفتيه ، وعبثتْ أصابعه بإحدى الأنابيب ، ثم قال:" كنتُ أستطيع أن أخْبركَ بما عساهم أن يقولوه قبل أن ينطقوا به .. ستَصْدُرْ إلي الأوامر بوضع الفِخَاخِ المزيفة ، ووضع السُّم في الشوكولاتة !" .. ثم سكت لحظة وأردف يقول:" إنني رجل أمين ومخلص يا "**هنتر**" ، ولكنني عندما أسمع أحيانا الأفكار النيرة التي تُصدر عن القيادة، أتمنى لو أنني كنتُ مَدِنيا .. بل مدنيا مسنا ،، كَسِيحاً! .. إنهم يعتقدون دائما أنهم يتعاملون مع قوم أغبياء .. لست أقول: إن هذا مقياس ذكائِهم .. ألا ترى ذلك ؟" .

وبدا المرح على "**هنتر**" وهو يقول:" أهذا رأيكَ؟" .

فأجاب "**لانسر**" بِحِّدة:" كلا، ولكن ما الذي سيحدث ؟ .. سيلتقط رجل أحد هذه الفخاخ فيُنْسَفُ ويتمزَّقُ إربا .. وقد يأكُلُ طفلٌ الشوكولاتة فيموتُ متسمِّما بالزرنيخ، ثم ماذا؟" .. ونظر إلى يديه وأضاف قائلا:" سيحركونها بالعِصِيٍّ الطويلة أو بالحبال قبل أن يلمسوها ، وسيُلْقُون بقطع الشوكولاتة إلى القطط أولا ليعرفوا تأثيرها عليها . الحق أن هؤلاء قوم أذكياء يا ماجور، ولن يُلْدَغوا من الفخاخ الزائفة مرتين!" .

وتنحنح "**لوفت**" وقال:" إن هذا حديثُ داعيةِ من دُعَاة الهزيمة ياسيدي .. يجب أن نفعلَ شيئا ! ولماذا تفترضُ أن هذه الأنابيب لم تُلقَ إلا هنا ياسيدي؟" . فأجاب "**لانسر**" بقوله:" لأحد سببين: إما أن هذه البلدة قد أُختيرت جزافا، أو أن ثمةَ اتصالا بين هذه البلدة والخارج .. فنحن نعلمُ أن بعض الشبان قد تمكنوا من الفرار " .

وكـــرر "لــوفــت" يقول في لهجة تنم عن الكآبة والملل :" يجب أن نفعلَ شيئا ياسيـدي!" .. فالتفت إليه "لانســر" قائلا:" أعتقد أنني سأُوصِي باختيارِكَ في هيئة أركان الحرب العليا، فانت تتوق للعمل حتى قبل أن تعرف كُنْهَ المشكلة !.. إن هذا نوع جديد من الغزو ، فقد كان من الممكن قبلا تجريدُ السكان من السلاح وتركهم في جهالتهم، أما اليوم فهم يَسْمعُون الإذاعات ، ونحن لانستطيع منعَهُمْ ، بل إننا لانعثر لمذياعاتهم على أثرا" .

وأطل جندي برأسه من الباب قائلا:" السيد "كوريل" يريد مقابلتك ياسيدي" .

فأجاب "لانسر" بقوله :" قل له أن يَنتظر !" .. واستمر في حديثه مع "لوفت" :" إنهم يقرءون المنشورات، وهم يزودون بالأسلحة من الجو، اليوم بالديناميت يا كابتن ، وربما زودوا بالقنابل اليدوية ثم بالسم، قريبا!" فقال "لوفت" في قلق:" إنهم لم يُلْقوا بالسم بعد!" .

– كلا ، ولكنهم سيفعلون ، أيمكنك أن تتخيلَ مدى ما ينال من الروح المعنوية لرجالنا ، بل مدى ما ينال من روُحِكَ المعنوية أنت ، لو أن الناس كانوا مزودين بتلك الألعاب من السهام الصغيرة .. تلك الأشياء الصغيرة التافهة التي تُلقِيها على هدف معين ، وقد تكون أطرافها مغمورة في السيانور..

إنها لعبُ ُصغيرة ، قاتلة، صامتة ، لاتسمع صوتَها وهي مُصَوّبة إليكَ ، وتخترق البِزَّة العسكرية دون أن تُحْدِث صوتا .. ثم ماذا تكون عليه الحال إذا عرف رجالنا أن الزرنيخ موجود بوفرة ؟.. أيمكنهم ، بل أيمكنكَ أنت أن تأكلَ وتشرب وأنت مستريح لما تأكل أو تشرب؟

فقال "هنتر" بجفاء:" هل تَضَعُ أسسَ حملة الأعداء يا كولونيل؟" .

– كلا ، وإنما أنا أحَاولُ التَّكهُّن بها !

وقال "لوفت" :"نحن نجلس هنا ياسيدي لانحركُ ساكنا، في حين يقتضينا واجبنا أن نبحث عن هذا الديناميت..

وإذا كانت ثمَّةَ منظَّمة ربطتْ بين هؤلاءِ القوم، فيجب أن نجدَّ في البحث عنها وأن

نعملَ على القضاء عليها!". فأجاب "**لانسر**" قائلا: -"أجل ، يجب أن نقضي عليها ، وبشدة وعنف فيما أحسب . خذ أنت سرية يا "**لوفت**"، وليأخذ "**براكل**" سرية أخرى.. كنتُ أتمنى لو أن عندنا مزيدا من الضباط الصغار.

إن "**تونـدر**" لم يكن يُرجَى منه أقلُّ نفع لنا .. لست أدري لم لم يُغْضِ عن النساء؟". وهنا قال "**لوفت**": "إنني لست مطمئنا لتصرفات الملازم "**براكل**" ياسيدي".

- ماذا يفعلُ ؟

- إنه لايفعل شيئا ، ولكن أعصابَهَ متوترة.. وهو إلى هذا كثيرُ الحزن ، كثير الكآبة !

فأجاب "**لانسر**" بقوله :" أجل، أعرف هذا ، وهو أمر تحدثتُ عنه كثيرا ، ولو لم أُكْثِر الحديثَ عنه لأصبحْتُ لِواء!

لقد دربنا شبابنا على الفور ، ولابد لك من الاعتراف بأنهم غاية في الروعة في استخلاصِ الفوز ، ولكنهم لايعرفون ماذا يعملون عند الهزيمة.. لقد قلنا لهم .إنهم أذكى وأشجع من غيرهم من الشبان ، فصُدِموا عندما عرفوا أنهم ليسوا أشجَع ولاأذكى في شيء من غيرهم من الشبان!".

وقال "**لوفت**" في صوت أجش:" ماذا تَعْنِي بالهزيمة ؟ إننا لم نُهزم!". فتطلع إليه "**لانسر**" ببرودلحظة ولم ينبس ببنت شفة . وأخيرا تَذَبَذبتْ عينا "**لوفت**" وقال:"سيدي".. فقال "**لانسر**": "شكرا لك".

- إنك لاتطلبُ هذا من غيري ياسيدي!

- إنهم لايُفَكرون في الأمر ، فلا يُعد عدم مصارحتي لهم بالحقيقة إهانة. أما إذا أخْفَيْتُ الحقيقة عمن يعلمها فإن هذا الإخفاء يعتبر إهانة!

فأجاب "**لوفت**" بقوله :" أجل ياسيدي".

- هلم الآن ، وحاول أن تملكَ زمام "**براكل**" .. ابدءوا البحثِ ، ولا أحب أن تُطْلِقوا النار إلا في الأحوالَ العلنية.. أتفهمني ؟

فقال "**لوفت**": "أجل ياسيدي". ثم أدى التحية العسكرية وبارح الغرفة . فنظر

"**هنتر**" إلى الكولونيل"**لانسر**" وقال مداعبا:

-" ألم تكن قاسيا عليه ؟" .

- لقد اضْطرِرْتُ لهذا ، فإن الخوفَ يملأ قلبه ! ومن الواجب تأديبه عندما يستبد به الخوف وإلا انهَارتْ أعصابه. إن قوامَ حياته التأديبُ والنظام ، كما أن قوامَ حياة غيره العاطفة والحنان !.. أعتقدُ أنه يحسن بك الذهاب لإصلاح خطوطك الحديدية ، إذ يجدرُ بك أن تتوقَّع أن تكون الليلة هي الموعد الذي ينسفونها فيها!

ونهض "**هنتر**" وهو يقول: " أجل، وأعتقد أن القيادة توشك أن تصدر الأوامر من العاصمة" .

- أجَلْ.

- وهل هم...

فقاطعه "**لانسر**" بقوله: " أنت تعرفُهُم على حقيقتهم .. أنت تعلمُ كيف يريدون أن يكونوا .. اقْبِضُوا على الزعماء، اقتُلُوا الزعماء.. خُذُوا الرهائن ، اقْتُلوا الرهائن!.. خذوا المزيد من الرهائن ، واقتلوهم !"، وكان صوته قد ارتَفَعَ ، ولكنه لم يلبث أن انخفض ثانية حتى أصبح همسا وهو يقول: " والحقدُ يتزايد والوقيعة بيننا تزداد تأصلا!" . فقال "**هنتر**" في تردد : " هل حكموا بالموت على واحد ممن تضمنتهم القائمة ؟" .. وأوْمَأ إيماءة خفيفة صوْبَ مخدع العمدة. ولكن "**لانسر**" هز رأسه قائلا: " كلا ، لم يَصْدُر عليهم الحكمُ بعد.

وهم حتى الآن مقبوض عليهم فقط !" .

فقال "**هنتر**" بهدوء : " أتريد مني أن أوصِي يا كولونيل..؟ لعلَّكَ مرهق ياكولونيل، أتسمح لي أن أبُلغ السلطاتِ بأنك مُرْهَق ، مَنْهُوك القوى؟" . وغطى "**لانسر**" عينيه لحظة بيده، ثم شد كتفيه ، وبدت الصَّرامَةُ على أسارير وجهه وهويقول: " لستُ مَدَنيا يا"**هنتر**" . إن الضباط ينْقُصُونَنا وأنت تعلم هذا .. اذهب إلى عملك ياماجور، إذ يجب أن أقابل "**كوريل**" .

وابتسم "**هنتر**" وذهب إلى الباب وفتحه ، ثم قال من خارج الباب :

-" أجل هو هنا"، ثم التفتَ وقال لـ"**لانسر**" : " إنه "**براكل** "، وهو يريد مقابلتك"

فأجابه "**لانسر**" قائلا : " دَعْه يدخل ".

ودخل "**براكل**" ،وقد ارتسمتْ الكآبةُ على وجهه ، وقال في لهجة انطَوَتْ على العداء : " سيدي الكولونيل"**لانسر**"، بودي لو .."، فقطع عليه "**لانسر**" الحديث قائلا : " اجلسْ، اجلسْ واستَرِحْ قليلا .. كن جنديا مطيعا أيها الملازم" .

وسرعان ما زَايَلتْ الصلابةُ "**براكل**" . فتَهاوىَ على مقعد جوار المائدة ، واستند بمرفقيه عليها وقال: بودِّي لو ..." فقال "**لانسر**" :" لا تتحدثْ لحظة ، إنني أدركُ حقيقَة شعُورِكَ لم تكن تظن أن الأمر سينتهي إلى هذه الحال ، أليس كذلك؟ كنت تظن أن الأمر سيسير على أحسن حال" .

فقال "**براكل**" :" إنهم يَكْرهُوننا .. إنهم يكرهوننا أشد الكره وأعظمه!" .

فابتسم "**لانسر**" وهو يقَول:" أتراني أُصِيبُ الحقيقة إذا قلتُ: إن الشبان هم الذين يصبحون جنودا بواسل ، والشبانُ في حاجة إلى الشابات .. أتراني أصبْتُ كبِدَ الحقيقة؟" .

- أجل ، هذه هي الحقيقةُ!

فقال"**لانسر**" في عطف :" حسنا ، أهي تكرهك؟" .. فنظر إليه "**براكل**" في دهشة وهو يقول: " لست أدري ياسيدي ويخيل إلي أحيانا أن شعورَها لايجاوز الأسف " .

- وأنت تشعر بتعاسة كبيرة؟

- إن البلدة لاتروقُ لي ياسيدي !

- كلا ، ولكنكَ كنتَ تظن أن الأمرَ لايَعْدو أن يكون لهواً،

أليس كذلك؟.. لقد انهارتْ أعصاب الملازم"**توندر**" ، وخرج، فطعنوه بسكين !.. إنني أستطيع أن أعيدَكَ إلى الوطن ، فهل تود أن تعود إلى الوطن وأنت تعلم حاجتنا إليك؛ هنا ؟

فقال "**براكل**" والقلقُ يستبدُّ به :" كلا ياسيدي ، فهذا مالا أوده" .

– حسنا ، سأصارحك الآن . وأرجو أن تُدركَ ما أقول: " إنك لم تَعُدْ رجلا ..، لم تعد إنسانا ، وإنما أنت جندي ، فلا أهمية لراحَتِكَ .. بل ليست لحياتِكَ أهمية كبيرة أيها الملازم !

وإذا امتد بك الأجل، عشتَ على ذكريَاتكَ.. وهذه هي كل ما ستَخْرجُ به تقريبا من الحرب! وفي الوقت نفسه يجب أن تصْدَعَ بالأوامر الصادرة إليك وأن تنفذها !.. ستبدو لك معظَمُ الأوامر مَقيتة بغيضة ، ولكن ليس هذا من شأنك . لن أكذب عليك أيها الملازم .. كان يجب أن يدربُوكَ على هذا، لا على الشوارعِ المفروشةِ بالزهور والرياحين!.. كان يجب أن يدعِّمُوا روحكَ بالحقائق لا أن يُضَلِّلوها بالأكاذيب !..

وأخذ صوته يشتد صرامة وهو يقول: " ولكنكَ قبلتَ المهمة أيها الملازم ، فهل أنتَ مؤديها أم ستَتَخلَّى عنها؟.. ليس في وسعنا أن نُعْنَى بروحك ونَتعهدَها بالتهذيب !" .

فنهض "**براكل**" وقال: " شكرا لك ياسيدي" .. واسترسل "**لانسر**" يقول: " أما الفتاةُ، أيها الملازم ، فلكَ أن تَغْتَصبَها أو تَفْرِضَ عليها حِمَايتكَ أو تتزوجَها ، كل هذا لا أهمية له مادامت تَقْتلها عندما تُؤمر بذلك !" .. وقال :"**براكل**" في ضيق وملل: " أجل ياسيدي . شكرا لك ياسيدي " .

– أؤكدُ لك أن من الخير لكَ أن تعلم .. أؤكد لك هذا.

من الخير لك أن تعلم !.. انصرف الآن أيها الملازم، وإذا كان "**كوريل**" مازال منتظرا فدعه يدخل.

وأخذ "**لانسر**" يراقبُ الملازم "**براكل**" وهو يغادر الغرفة، وما لبث أن أقبل السيد "**كوريل**" وقد بدا عليه التَّغَيرُ الشامل، إذ كانت ذِراعهُ موضوعة في قَالَب من الجبس ، كما أنه لم يعد "**كوريل**" المرحُ الودود الضاحك ، وإنما لاح صارمَ الملامِحَ ، تعلو وجهه سمات الحزن والألم ، وقد احْوَلَّتْ عيناه كأنهما عينا خنزير صغير نَفِقَ!

قال "**كوريل**" :" كان يجبُ أن أحضر قبل الآن يا"كولونيل" ، ولكنن عدم معاونَتِكَ جعلتنْي أتردّد".

فأجاب"**لانسر**" :" كنتَ تنتظر جوابا على تقريرِكَ فيما أذكر" .

– بل كنتُ أنتظرُ شيئا أكثرَ من هذا بكثير ، فقد أبيتَ علي مركزا من مراكز السلطان، وقلت عني : إنني غيرُ ذي قيمة، ولم تدركْ أنني كنتُ في هذه البلدة قبلك بزمن طويل. . ثم إنك أبقَيْتَ العمدة في منصبه على عكس ما نصحْتُكَ به!

وأجاب "**لانسر**" بقوله :" لولاه لكان من الأرجح أن تَزيد الاضطرابات على ما هي عليه!" . . فقال "**كوريل**" : لكل رأيه . إن هذا الرجل زعيم لقوم متمردين!" . . فأجاب "**لانسر**" .

–"هراء ! إن هو إلا رجل بسيط!" . وإذ ذاك أخرج "**كوريل**" بيده السليمة دفترا أسودَ من جيبه الأيمن ، وفتحه بأصابعه، وقال:" لقد نسِيتَ ياكولونيل أن لي مصادري ، وأنني في هذه البلدة قبْلَكَ بزمن طويل . . ومن ثم فإنني أود أن أبلغكَ أن العمدة "**أوردن**" كان على اتصالٍ وثيق بكل ما وقعَ في هذه البلدة من حوادث . وفي الليلة التي قُتِلَ فيها الملازم "**توندر**" ، كان العمدة في المنزل الذي ارتُكِبَتْ فيه جريمة القتل ، فلما هربتْ الفتاة التي قتلتْ "**توندر**" إلى الجبال ، أقامتْ عند أحد أقاربه .

لقد تعقبتُها إلى هناك، ولكنها كانت قد لاذتْ بالفرار . وكان "**أوردن**" على علم دائما بهرب من يغادرُ البلادَ من الرجال، بل إنه مدَّ يد المساعدة إليهم ، وإنني لقوي الاشتباه في أن له ضلعا في قصة تلك المظلات الصغيرة!" .

فأجاب"**لانسر**" في حمية:" ولكنكَ لاتستطيع إقامةَ الدليل على هذا ؟؛.

فقال "**كوريل**" :" كلا، لاأستطيعُ إقامةَ الدليلِ عليه.

والموضوع الأول أعرفه عن يقين ، أما الثاني فمجرد اشتباه .

فلعلك الآن مستعد أن تُنْصِت إلي" . . وأجاب "**لانسر**" بهدوء:

–" وما الذي تقترحه؟" .

– إن اقتراحاتي ياكولونيل أقوى قليلا من أن تكون مجردَ اقتراحات . إن "**أوردن**" يجب أن يُحْتَفظُ به رهينة الآن ، وإن تتوقَّف حياتُه على اسْتِتْبابِ السلام في هذه البلدة، يجب أن تتوقف حياته على إشعال فتيلة واحدة لعود واحد من أعواد

الديناميت!

ودب يده في جيبه مرة أخرى، وأخرج دفترا آخر مطويا، ففتحه ووضعه أمام الكولونيل قائلا: " هذا هو ياسيدي الرد الذي ورد إلي من القيادة عن تقريري . ولعلك تلاحظ أنه خَوَّلني بعض السلطان" .

ونظر "**لانسر**" إلى الدفترالصغير وأجاب في هدوء :" إذن ، فقد التجأتَ إلى القيادة من وراء ظهري؟"، وتطلع إلى "**كوريل**" والكرهُ واضح في عينيه قائلا:" سمعتُ أنك جُرحت ، فكيف وقع الحادث؟" .. فقال "**كوريل**" :" في الليلة التي قُتِل فَيها الملازم "**توندر**" كان قد نُصِب كمين لخطفي ، وقد أنقذتْني الدوارية .. وكان بعض أهل البلدة قد هرب في قاربي في تلك الليلة. والآن يا كولونيل .. هل أُلِحُّ أكثر مما ألححتُ في وجوب أخذ العمدة "**أوردن**" رهينة؟" .

فأجاب "**لانسر**" بقوله:" إنه هنا ولم يهربْ ، فكيف نحتَفظُ به رهينة أكثر مما فعلنا؟" .

وفجأة طرق أذني الرجلين صوتَ انفجار ، فالْتَفَتَا إلى مصدر الصوت ، وقال "**كوريل**" :" هاكَ يا كولونيل ، وأنت تعلم جيدا أنه إذا نجحتْ التجربة فسيكون الديناميت في كل بلد محتل!" .

وكرر "**لانسر**" في هدوء قوله:" وما اقتراحك؟" .

– ما قلتهُ لتوي، وهو أن تكون حياة "**أوردن**" رهينة ضد اندلاع نيران الثورة!

– وإذا ثاروا وقتلْنا "**أوردن**" ؟

– يأتِي إذن دورُ ذلكَ الطبيب .. فمع أنه لايتولى منصبا، إلا أنه يتلو العمدة في السلطان.

– ولكنه ليس من أصحابِ المناصب في البلدة ؟

– إنه ينعم بثقة الناس.

– وإذا قتلناه ، فماذا تكون الخطوةُ التالية؟

– يؤولُ السلطان إلينا ونُخمدُ الثورة ، فإن التمردَ يتحطم إذا قتلنا الزعماء !

وسأله "**لانسر**" مداعبا: " أتعتقدُ هذا حقا؟" .

– يجب أن يكونَ الأمر كذلكَ.

وهز "**لانسر**" رأسه ثم نادى يقول: " أيها الحارس! " .

وفُتح الباب وظهر جندي على عتبته، فقال له "**لانسر**" : "أيها الحارس ، لقد قبضْتُ على العمدة "**أوردن**" وقبضت على الدكتور "**وينتر**" ، فعليك الاطمئنان إلى قيامِ الحراسة على "**أوردن**"، وعليك أن تأتي بـ"**وينتر**" إلى هنا في الحال! " .

وأجاب الحارس بقوله: " سمعا وطاعة ياسيدي! " .

ونظر "**لانسر**" إلى "**كوريل**" وقال: "أرجو أن تكون واثقا مما أنت مُقْدِم عليه .. أرجو أن تكون واثقا مما أنت مقدم عليه! " .

الفصل الثامن

كانت الأنباءُ تنتشرُ في البلدة الصغيرة انتشارَ النار في الهشيم.. فقد كانت تنقلُها الهمساتُ في مداخلِ البيوت، والنظرات السريعة ذات المغزى: " لقد أُلقي القبضُ على العمدة" .. وسرت في البلدة موجة صغيرة هادئة من الابتهاج .. موجة صغيرة فيها قسوة وفيها عنف ، وأخذ الناس يتحدثون معا في هدوء ثم يفترقون ، وكان الذين يدخلون منهم المتاجر لشراء حاجتهم من الطعام يميلون لحظة على أصحاب المتاجر ، فيتبادلون وإياهم الهَمَساتِ!

وكان الناس يَؤمُون الريف ، ويَتَوغَّلون في الغاباتِ ، بحْثا عن الديناميت ،. وكان الأطفالُ يعثرون على الديناميت وهم يلعبون في الجليد، وكانوا قد تلقوا التعليمات التي يجب عليهم اتباعُها ، فكانوا يَفْتحون الطرودَ ويأكلون الشوكولاتة ، ثم يَدْفِنون الديناميت في الجليد ويخبرون أهلهم بمكانه!

وفي مكان ناءٍ من الريف، التقطَ رجل أنبوبة وقرأ التعليمات ، فقال محدثا نفسه:" ترى أهذه صالحة ؟" ، وأوقف الأنبوبة على الجليد وأشعلَ الفَتيل ، وأسرع يبتعد عنها ، ثم شرع في العد ، ولكن عده كان مسرعا ، فقد وصل إلى ثمانيةٍ وستين قبل أن ينفجر الديناميت، فقال : " إنها صالحة فعلا ! " ، وأسرع يبحث عن أنابيبَ أخرى! .. وكان الناس يُهرَعُون إلى بيوتهم في أوقات معينة، وكأنهم تلقوا إشارة بذلك، فتُغلَق الأبواب من خلفهم ، وتُقْفِر الشوارع ،ويُخيم عليها السكون ، وكان الجنودُ عند المنجم يُفتِّشون كل عامل فيه تفتيشا دقيقا عند دخوله.. يُفتشونه ويُعيدون تفتيشه وقد توترتْ أعصابهم وخشُنتْ لهجتهم واتسمتْ حركاتهم بالغِلْظة والقسوة! .. وكان العمال ينظرون إليهم ببرود، وقد أومض في عيونهم لونٌ من الابتهاج الذي يُصوبهُ الغِلّ والحقد.

وفي غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، كانت المائدة قد نُظفتْ مما عليها، ووقف جندي يحرس غرفة نوم العمدة "**أوردن**" .. وجثتْ "**آني**" أمام شباك المدفأة الحديدي تُغَذي النار بقطع صغيرة من الفحم، ثم رفعتْ بصرها إلى الحارس الذي كان يقف على باب العمدة "**أوردن**" ، وقالت في لهجة عنيفة صارمة: " ما الذي ستفعلونَ به؟" .. فلم يجدْ

الجندي جوابا !.. وما لبثَ الباب الخارجي أن فُتِح، ودخل جنديٌّ آخر يقود الدكتور "**وينتر**" من ذراعه . وأغلقَ الباب خلف الطبيب ، فوقف هذا مستندا إلى الباب داخل الغرفة.

وقال: " مرحبا "**آني**" ، كيف حال صاحب السعادة؟" .

وأشارت "**آني**" إلى غرفة النوم وقالت : " إنه هنا " .

فسألها : " أليس مريضا؟" .. فأجابت "**آني**" بِقولها : " كلا .

لم يكن يبدو عليه المرض . سأحاول أن أنقل إليه نبأ حضورك" .

وذهبت إلى الحارس وخاطبتْهُ في لهجة عاتية مستَبِدَّة: " قل لصاحب السعادة: إن الدكتور "**وينتر**" هنا .. أتسمعني؟" .

ولم يجب الحارس ، بل ولم يتحرك ، ولكن الباب فُتِح من خلفه وأقبل العمدة "**أوردن**" فوقف على عتبته ، ثم تجاهل الحارسَ وانفلتَ من جانبه ودَلَف إلى الغرفة ، وفكر الحارس لحظة في أن يعيده إلى غرفته ، ولكنه تراجع ولزم مكانه بجوار الباب . وقال "**أوردن**" : " شكرا يا "**آني**" ، أرجوكِ ألا تَبْتَعدي ، فقد أحتاج إليكِ" .. فأجابت "**آني**" قائلة:

– " كلا ياسيدي ، لن أبتعد ، وهل سيدتي بخير؟" .

– إنها تصفف شعرها ، هل تودين مقابلتها يا "**آني**" ؟

فقالت "**آني**": " أجل ياسيدي " ، وانفلتتْ هي الأخرى من جانب الحارس ، ودخلت الغرفة وأغلقتْ الباب، وقال "**أوردن**" " أتريد شيئا يادكتور؟" .. فابتسم "**وينتر**" في تهكم وسخرية ، وأشار من فوق كتفه إلى حارسه ، وقال : " أعتقد أني مقبوضٌ علي ، فلقد جاء بي صديقي هذا إلى هنا " ... فقال "**أوردن**" : " أعتقد أن هذا كان مقدَّرا أن يحدث ، ترى ما عساهم أن يفعلوا الآن؟" .

ونظر الرجلان أحدُهُما إلى الآخر نظرة طويلة .. كان كلٌّ منهما يعرف ما يدورُ في خَلَدَ الآخر .، وقال "**أوردن**" ، وكأنه يستأنف حديثا بدأه : " أنت تعلم أنه ما كان في

استطاعتي أن أحولَ دون هذا لو أردتُ" .

فأجاب "**وينتر**" : " أعلمُ هذا ، ولكنهم هم لايعلمون! " ، وأردف يعرب عن فكرة كانت تدورُ في مخيِّلته : " إنهم قوم في دقة الساعة، وقد حانتْ ساعتهم .. إنهم يظنون أننا مثْلُهم .

لنا زعيُمُ واحد ، ورأس واحد .. إنهم يعلمون أن الإطاحة بعشرة رؤوس تَقْضي عليهم القضاء المبرم، ولكننا قوم أحرار، لنا من الرؤوس قدر ما لنا من الناس ، وفي وقتِ الشدة ينبتُ بيننا الزعماء كأنهم النباتاتُ الفُطرية السريعة النمو! " .. ووضع "**أوردن**" يده على ذراع "**وينتر**" وقال : " شكرا لكَ. كنتُ أعلم هذا ، ولكن كان من الخير أن أسمعه منكَ. أتظن أن عزائم الناس ستخور؟ " .. وأخذ يفحص وجه "**وينتر**" في قلق.

بينما قال الطبيب مطمئنا: " كلا، لن تهونَ عزيمتهم ، بل إنهم سيزدادون قوة على قوتهم ، بالمعاونة الخارجية ! " .

✽✽✽✽✽

وساد الصمت في الغرفة لحظة ، وتحرك الحارس من مكانه قليلا فأصابتْ بندقيتُه زرا من أزرار سترته ..

وقال "**أوردن**" : " إنني أحدثكَ يا دكتور ، وقد لاأستطيع محادثتك مرة أخرى ، ففي ذهني بعض الأشياء المخجلة! " .

ثم سعل وألقى نظرة على الجندي الذي كان يقف جامدا ، فلما لم يبد عليه أنه سمع شيئا ، أردف يقول: " لقد كنتُ أفكر في موتي ، فإنهم إذا اتبعوا الإجراء المعتاد ، لوجب أن يقتلوني ، ثم لوجب أن يقتلوك ! " .. فلما سكت "**وينتر**" سأله العمدة قائلا: " أليس هذا صحيحا؟ " .. فأجاب "**وينتر**" بقوله: " نعم، أعتقدُ هذا"، وسار إلى أحد المقاعد المذهبة ، وشرع يجلس عليه ، ولكنه لاحظ أن كساء المقعد مُمزَّق ، فربَّتَ بأصبعه عليه كأن هذا يصلح من أمره ، ثم جلس في رفق عليه.

واستطرد "**أوردن**" يقول: " إنني خائف ، وأنت تعلم هذا! ..

وقد فكرتُ في بعض الوسائل للهرب حتى أخرجَ من هذا المأزق .. لقد فكرتُ في الفرار ، وفكرتُ في أن ألتمس الإبقاء على حياتي ! وإن الخجل ليتولاني وأنا أذكر كل هذا " .. فقال "**وينتر**" وهو ينظر إليه :

– " ولكنك لم تفعلْ شيئا من هذا ؟" .

– كلا لم أفعل.

– ولن تفعلَ؟

فترددَ "**أوردن**" وهو يجيب : " كلا ، لن أفعلَه ، ولكنني فكرتُ فيه" .

وأجاب "**وينتر**" في لطف ورقة : " أنى لكَ أن تعلم أن الناس جميعا لايفكرون تفكيرك؟ أنى لك أن تعلم أنني لم أفكر فيمافكرتَ فيه أنت ؟" .

وتساءل "**أوردن**" : ترى لماذا قبضوا عليكَ أنتَ أيضا؟ .. لابد لهم من قتلك كذلك فيما أعتقد !؟ .. فأجاب "**وينتر**" بقوله : " أعتقد هذا" ، ثم أخذ يلف إبهاميه الواحد حول الآخر، ويرقبهما وهما يدوران ويدوران!

وقال "**أوردن**" : " أنتَ تعرف هذا" .. وسكتَ برهة ثم أردف يقول : " أنت تعلم يادكتور أنني رجل قليلُ الشأن ، وهذه بلدة قليلة الشأن، ولكن الشرارةَ التي تنبعثُ من أمر تافه الشأن قد تُشعِل حريقا ! .. إنني خائف ، ويكاد الخوف يقتلني !

وفكرتُ في كل وسيلة يمكن أن أتوسلَ بها لإنقاذ حياتي .. ثم انقضى كل هذا ، وأصبحتُ أشعر أحيانا بشيء من الابتهاج، كما لو كنت قد أصبحتُ أكبر وأفضل مما كنت ! .. أو تعرف فيم كنت أفكر يادكتور؟" .. وافتر ثغره عن ابتسامة ، وقد تواردَتْ على خاطره الذكريات وراح يقول :

– " أتذكر درس "الاعتذار" في المدرسة ؟ .. أتذكر"**سقراط**" وهو يقول : –"سيقول البعض : أو لست خجلا يا"**سقراط**" من مجرى حياة قد تُؤدي بك إلى نهاية مبكرة؟" .. إن لدي ردا طيبا يصلح له ، ألا وهو :

– " إنكم مخطئون ، فإن الرجل الذي يصلح لأي شيء ، يجب ألا يحسب حساب حظه في الحياة أو الموت ، بل يجب أن ينحصر تفكيره فيما إذا كان على حق أو على

خطأ فيما يفعل!".

ثم توقف "**أوردن**" محاولا أن يتذكرَ، بينما جلس الدكتور "**وينتر**" وهو يَميلُ إلى الأمام وقد أهاجتْهُ الذكرى، وأخذ يُتِم ما نقص من حديث "**أوردن**" عن "**سقراط**": "وهو يؤدي دورَ الرجل الصالح أو الرجل الشرير!".. لا أعتقد أنكَ تحفظه، فما كنتَ قط طالب علم مجد، ثم إنك أخطأتَ في الحكم عليه كذلك!

فضحك "**أوردن**" وهو يقول: "أوتذكر هذا أيضا؟".

فقال "**وينتر**" في حميّة: "أجل، أذكرهُ جيدا.. وأذكر أنكَ نسِيتَ سطرا أو لفظا، في يوم الاحتفال بالتخرج.. بل إنك نسيت أن تُدخل أطرافَ قميصكَ في "البنطلون"، فظل القميص مطلا من الخلف.. وكنتَ تُعجَب من ضحكهم".. فابتسم "**أوردن**" لنفسه، وامتدت يده خفية خلفه ليطمئن إلى أن أطراف قميصه ليست متَهَدِّلة، ثم قال: "لقد جعلتُ من نفسي "**سقراط**" آخر، فحملتُ على مجلس إدارة المدرسة.

وما كان أشدَّ حملتي عليهم!.. لقد كنتُ أجار بالتشهير في وجوههم التي اصطبغَتْ بحمرة قانية!

وقال "**وينتر**": "كانوا يحبسون أنفاسهم حتى لايَسْتغرقوا في الضحك، فقد كان ذيلُ قميصك خارجا"، فضحكَ العمدة "**أوردن**" وقال: "كم انقضى على هذا الحادث؟ أربعون عاما؟!".

– بل ستة وأربعون!

*****

وانتقل الحارس المعين على غرفة النوم في هدوء إلى الحارس القائم على الباب الخارجي، فأخذ الاثنان يتحدثان خلسة في صوت خافت، وكأنهما طفلان يتحدثان في مدرسة.

قال أحدهما: "منذ متى توليتَ نوْبتكَ هذه؟".

– قضيتُ الليل بطوله في النوبة. ولا أكاد أستطيع فتح عيني!

– وأنا كذلك. هل اتَّصلْتَ بزوجتكَ على الباخرة أمس؟

– أجل ! وهي ترسل إليْكَ تحياتها، وقد قالت إنها علمت أنك جريح.. وهي تعتذر لأنها لاتكتب كثيرا.

– قُلْ لها إنني بخير.

– سأفعل ، عندما أكتب إليها!

ورفع العمدة رأسه ونظر إلى السقف ، ثم تمتم يقول: " هم – م– م!.. ترى أأستطيع أن أتذكَّرَ باقي القطعة؟" .

فأسعفه "**وينتر**" بقولِه: " والآنَ أيها الرجال.. " فقال "**أوردن**" في رقة : " والآن أيها الرجال الذين حَكَمتُم علي.. " .

وفي تلك اللحظة دَلَف الكولونيل "**لانسر**" إلى الغرفة بهدوء ، فشد الحارسان من قامتيهما . وسمع "**لانسر**" كلمات العمدة، فوقف مكانه وأخذ يُنْصِت ، بينما تطلع "**أوردن**" إلى السقف وقد استغرق في التفكير ، محاولا أن يتذكر هذا النص القديم ، ثم قال :

–" والآن ، أيها الرجالُ الذين حكمتم علي: " إن الرغبة لتتملكني في أن أتنبأ لكم.. ذلك أنني على وشك الموت ، وفي ساعة الموت يوهب الناس مَلكَة التنبؤ.. إنني لأتنبأ لكم، أنتم يا قتلتي ، بأنكم بعد موتي مباشرة.."

ونهض "**وينتر**" وهو يقول: " رحيلي" ، فنظر إليه "**أوردن**" وقال :

–" ماذا؟" .

فأجاب "**وينتر**" : إن النص هو "رحيلي " لا"موتي " ..

لقد وقعت في هذا الخطأ قبلا ..لقد ارتكبتُ هذه الغلطة منذ ستة وأربعين عاما" .

– كلا، بل النص "موتي" ، أجل، النص هو : "موتي" ثم التفتَ فوجد الكولونيل "**لانسر**" يراقبه ، فقال : " أليس اللفظُ هو موتي ؟" .. وأجاب الكولونيل "**لانسر**" بقوله: " بل "رحيلي" ، ونص العبارة هو : بعد رحيلي مباشرة!" ..

وقال الدكتور "**وينتر**" مصرا :" أرأيتَ ؟.. اثنان ضد واحد ! اللفظ هو "رحيلي " .

إنها الغلطة التي ارتكبتها قبلا" .

وحدَّق "**أوردن**" النظر أمامه ، وبدا كأنه ينقِّبُ في ذاكرته يستوحيها باقي القطعة ، وكأنه لايرى شيئا مما كان حوله وما عَتمَ أن أردف يقول: " إنني لأتنبأ لكم ، أنتم يا قتلتي ، بأنكم بعد رحيلي مباشرة ستتلَقَّوْن من غير بُد عقابا أشدَّ هولا من العقابِ الذي أنزلتموهُ بي ! " .

وأومأ "**وينتر**" برأسه مشجعا ، كما أومأ الكولونيل "**لانسر**" ، وكأنهما يحاولان أن يعيناه على التذكر . . بينما استرسل "**أوردن**" يقول: " لقد قتلتموني أنا لأنكم أردتم أن تهربوا ممن يتهمكم ، وألا تُقدِّموا حسابا عن حياتِكم!"

وهنا اقْتَحم الملازم "**براكل**" الغرفة ثائرا يقول: " كولونيل "**لانسر**" ! " . . فقال الكولونيل : " صه : " ، ورفع يده ليحول دون استمراره في الحديث!

واستطرد "**أوردن**" يقول في صوت خافت : " ولكن الأمر لن يكون كما ظننتم ، بل إنه على النقيض " .

ثم اشتد صوته : " لأنني أقول لكم إن عدد من يتهمونكم سيزداد عما هو عليه الآن!" . وأشار بيده كالخطيب وهو يسترسل قائلا :

–" لسوف يتهمكُم أولئكَ الذين كنتُ أصدهم عنكم حتى اليوم . . وبما أنهم أصغرُ مني سنا ، فسوف يكونون أكثر تهورا في معاملتكم ، وسوف يشتد استياؤكم منهم!" . .

ثم قطب حاجبيه وهو يحاول أن يتذكَّرَ مزيدا من مرافعة "**سقراط**" أمام الذين حاكموه !

وقال الملازم "**براكل**" : " لقد وجدنا الديناميت في حَوْزة بعض الرجال يا "كولونيل" " . . فأجابه "**لانسر**" بقوله : " صه!؟ . . بينما استرسل "**أوردن**" في التلاوة: " إذا ظننتم أنكم بقتلكم الناس تستطيعون منع شخص من انتقادِ حياتكم الشريرة، فإنكم تخطئون ! " ، ثم قطَّب حاجبيه ، وفكر قليلا . ورفع بصره إلى السقف ، وابتسم في حيرة وهو يقول: " هذا كل ما أستطيع أن أتذكره ، لقد غاب عني الباقي ! " .

وقال الدكتور "**وينتر**" : " هذا قدر طيب جدا بعد ستة وأربعين عاما. بل إنك لم تكن تُحسِنُه إلى هذا الحد منذ ستة وأربعين عاما! " .

وقطع عليه الملازم "**براكل**" حديثه قائلا : " وجدنا الديناميت مع بعض الرجال يا كولونيل "**لانسر**" .

– هل قبضْتَ عليهم؟

– أجل ياسيدي ، فإن الكابتن "**لوفت**" . .

وقال "**لانسر**" : " قل لـ"**لوفت**" أن يُشدِّدَ الحراسة عليهم" ، ثم استعاد وعيه وتقدم في الغرفة قائلا : " إن هذه الحوادث يجب أن تمتنع يا "**أوردن**" . . فابتسم العمدة في عجز وهو يقول : " لايمكن أن تمتنع ياسيدي" .

وقال الكولونيل "**لانسر**" في صوت شابه العنف : " لقد قبضْتُ عليك رهينة لحسن سلوك الشعب، وقد أصدرتُ أنا هذا الأمر! " . . فأجاب "**أوردن**" . ببساطة : " ولكن هذا لن يحقق امتناع الحوادث . . إنك لاتدركُ الحقيقة . . إنني إذا أصبحتُ حائلا دون إرادة الشعب فلن يتردد الشعب في التصرُّف دونَ الرجوع إلي! " .

فقال "**لانسر**" : " حدثني صراحة عما تعتقد . . إذا علم الناس أننا سنقتلكَ لو أنهم أشعلوا فتيلا آخر ، فماذا تراهم يفعلون ؟" . . فنظر العمدة إلى الدكتور في حيرة!

*****

وإذ ذاك فُتح باب غرفة النوم ، وخرجتْ زوجة العمدة تحمل قلادة العمودية وشارة منصبه في يدها ، وقالت : " لقد نسيتَ هاتين! " .

فقال "**أوردن**" : " ماذا ؟ أي نعم" . . وطَأْطأ رأسه ، فرفعتْ السيدة القلادة فوق رأسه وألبسته إياها ، فقال : " شكرا لك ياعزيزتي " .

وأخذتْ السيدة تشكو قائلة : " إنكَ تنساها دائما! إنكَ لاتذكرها قط ! " . . فنظر العمدة إلى طرف القلادة التي يمسكها في يده– الوسام الذهبي – وقد نُقِشَت عليه شارةُ منصبه . . وألح عليه : "**لانسر**" في السؤال وهو يردد : " ماذا تراهم يفعلون؟" .

وأجاب العمدة: " لست أدري! أظنهم يشعلون الفتِيل! " .

– هبْ أنك طلبت منهم ألا يفعلوا؟

فقال "**وينتر**" : " شاهدتُ هذا الصباح ياكولونيل صبيا صغيرا يبني من الجليد هيْئَة رجل ، في حين وقف ثلاثة من جنودكم البالغين يراقبونه حتى لايقلد صورةَ زعيمكم، ومع ذلك فإنه أتْقنَ الشبه في الوجه الذي رسمه قبل أن يَعْمِدَ الجنود إلى إتلاف الشكل الذي بناه! " .

وتجاهل "**لانسر**" الطبيب، وعاد يردد قائلا للعمدة: " هب أنك طلبت إليهم ألا يفعلوا " . . وبدا كأن "أوردن" يقاوِمُ النوم ، وحاول أن يفكر ، ثم ما لبث أن قال : " لستُ رجلا شجاعا جدا ياسيدي ، ولكنني أعتقد أنهم يشعلون الفَتِيل على كل حال! " . . وبدا كأنه يَنْتزِعُ الكلمات انتزاعا وهو يُرْدِف : " أرجو أن يفعلوا . على أنهم سيستاءون إذا طلبتُ منهم غيرَ ذلك! " .

وتَسَاءلتْ زوجة العمدة: " فيم كل هذا؟ " .

فأجاب العمدة: " الزمي الهدوء قليلا ياعزيزتي " .

وألح "**لانسر**" في سؤاله قائلا: " ولكن هل تظن أنهم سيُشْعلونه؟ " .

فأجاب العمدة في زهو وكبرياء: " أجل سيُشْعِلونه. ليس لي الخيار في الحياة أو الموت ياسيدي ، ولكن لي الخيار في الوسيلة التي أسعى بها إلي إحدى هاتين الغايتين ! وإذا أنا قلتُ لهم لاتقاتِلوا ، فسيشتد بهم الأسف، ولكنهم سيُقَاتِلون.

أما إذا قلتُ لهم قاتلوا ، فسيَسْتَفِزُّهم الطرب ، وأكون أنا – الذي لم أُوتَ قدرا كبيرا من الشجاعة – قد زدتُ من شجاعتهم قليلا ! " ، وابتسم وكأنه يعتذر عما يقول ثم استطرد : فأنتَ ترى أن الأمر سهل علي مادامت نهايتي لن تتغير في الحالتين ! " .

فأجاب "**لانسر**" بقوله: " إذا قلتَ: نعم فسنقول لهم إنك: قُلْتَ لا ، وسنخبرهم أنك التمستَ الإبقاء على حياتك ! " ، فقاطعه "**وينتر**" وقد تملكه الغضب : " سيعرفون الحقيقة ، فإنكم قوم لاتحافظون على الأسرار! لقد خَانتْ أحدَ رجالكم أعصابُه ذات ليلة، وقال: إن الذباب قد غلب ورق صيد الذباب على أمره ، فتسربَتْ هذه العبارة إلى

الأمة جمعاء .. بل إن الناس جعلوا منها أغنية ، لقد غَلَبَ الذبابُ ورق صيد الذباب على أمره!.. إنكم لاتحافظون على الأسرار يا كولونيل!؟.

ورن في آذانهم صفيرٌ مُدوٌ من ناحية المنجم ، وهبتْ لفحة سريعة من الرياح حملت معها الجليد وألقت به على النوافذ.. وأخذ "**أوردن**" يعبث بوسامِه الذهبي ، ثم قال في هدوء:" أرأيت ياسيدي ؟ لاشيء يمكن أن يغير من مجرى الأحوال.

ستوردون موْرِدَ التَّهْلكة، وستُطردون من البلاد!" .. ثم قال في لهجة رقيقة :" إن الشعب لايحب أن يُقهر ياسيدي، وهكذا لن تستطيعوا أن تغلبوُه على أمْرِه . إن الأحرار لايمكن أن يبدءوا حربا ، ولكن ما إن تبدأ الحرب حتى يقاتِلوا ولو وقعتْ بهم الهزيمة . أما قِطْعَانُ الناس الذين ينساقون لزعيم واحد ، فلا يمكن أن يفعلوا هذا .. ومن ثم فإن القطعان هم الذين يفوزون دائما في المعارك والاشتباكات .. أما الأحرار فهم الذين يفوزُونَ في نهاية الحروب!.. ستجد الأمر كما أقول ياسيدي!" .

وكان "**لانسر**" مُنتصب القامة ، وقد جمدْت أطرافه ، فقال :" إن أوامري صريحة ، وقد حددتُ الساعة الحادية عشرة لتنفيذها ، وأخذت الرهائن ، فإذا وقع شيء من حوادث العنف أعدمتُ الرهائن" .

وسأل الدكتور "**وينتر**" الكولونيل قائلا، :" هل ستنفذُ الأوامر وأنتَ تعلم أن مآلها إلى الفشل ؟؟.

وكستْ مِسْحة من الصرامة وجه "**لانسر**" وهو يقول:" سأنفذ أوامري مهما تكُنْ قسوتها ، ولكنني أعتقد يا سيدي أن تصريحا منك قد يُنْقِذ أرواحا كثيرة" .. وهنا تدخلت السيدة في الحديث، وقالت لزوجها في لهجة استعطاف :" بالله خبرني فيمَ كلّ هذا الهراء" .

- إنه هِراء ياعزيزتي !

وأخذت تجادله قائلة:" ولكن لايمكنهم القبض على العمدة" .. فابتسم "**أوردن**" لها وهو يقول:" كلا ، لايُمكِنُهم القبضُ على العمدة ، فالعمدة فكرة تَتَمثَّل للأحرار.. وستُفْلِت من الاعتقال !" .

وسُمِع من بعيد صوت انفجار رددت صداه الجبال . وما لبث أن ارتد ثانية، فأطلقت صَافِرةُ المنجم إنذارا حادا مدويا .

ووقف "**أوردن**" وقد توترت أعصابه لحظة ، ثم ابتسم .. ودوى صوت انفجار ثان ، أقوى في هذه المرة دويا وأقرب موقعا فنظر العمدة إلى ساعته ، ثم تناول الساعةَ وسِلْسلَتها ووضعهما في يد الدكتور "**وينتر**"، وسأله :" ماذا فعل الذباب؟" .

فأجابه"**وينتر**" قائلا :" لقد غلَبَ الذباب ورق صيْد الذباب على أمره!" .

ونادى "**أوردن**" قائلا :" **آني**" ، ففُتِح باب غرفةُ النوم في الحال ،. وقال العمدة :" أكنت تتَسمَّعين الحديث؟" ..

فأجابت "**آني**" وقد غلبها الخجل :" أجل ياسيدي!" .

ثم دوَّى صوت انفجار ثالث قريب ، وسُمِعَ صوتُ تكسر الخشب والزجاج.، وانفتح الباب القائم خلف الحارسين ، وقال "**أوردن**" :" أحب يا "**آني**" أن تبقَيْ مع سيدتك طالما هي في حاجة إليك ، ولا تَتْركيها وحدها" . ووضع ذراعه حول السيدة ، وطبع قبلة على جبينها ، ثم سار ببطء نحو الباب حيث كان الملازم "**براكل**" ينتظره . والتفَتَ وهو على عتبة الباب إلى الدكتور "**وينتر**" ، وردد ما قاله "**سقراط**" في الزمن الغابر لصديقه "**كريتو**" : "إنني مدينٌ لـ"**اسكلبيوس**"(١) بِديكٍ يا "**كريتو**" (٢)، فهل لك أن تذكر وفاءَ ديني!" .. وكانت عبارته مصوغة في لهجة رقيقة ناعمة.

وأغلق "**وينتر**" عينيه لحظة قبل أن يجيبه قائلا :" سأوفِّي دَيْنكَ!" .

وضحك "**أوردن**" عندئذ وهو يقول :" لقد تذكرْتُ هذا الدين ، ولم أنْسَهُ !" ، ووضع يده على ذراع "**براكل**" ، فجذب الملازم ذراعه بعيدا عن ملمسه ، وإذ ذاك أومأ "**وينتر**" برأسه في بطء وقال :" أجل، إنك تذكرتهُ ، وسأوفِّيه أنا !" .

انتهت

البائسان

تأليف أديب إيطاليا المعاصر

جون شتاينبيك

الإسم الأصلي للكتاب

TORTILLA FLAT

تأليف

طريقة جديدة .. في تأليف القصص !

ابتكر "**جون شتاينبيك**" طريقة طَرِيفَة في تأليف الروايات .. فهو يجعل من كل فصل في الرواية قصة قائمة بذاتها ، وفي الوقت ذاته تُؤَلِّف الفصولُ معا قصة كبيرة متماسكة. وفي الصفحات التالية ، نقدم لك فصلين من رواية "**تورتيلا فلات**" ، التي تُعْتَبر بداية مجد "**شتاينبيك**" .. وستلمس أن كل فصل منهما يُكوِّن قصة تصويرية فكهة ، وأن الفصلين معا يكونان قصة كاملة ذات مغزى وحَبْكَة!

ونردف هذين الفصلين بإحدى القصص القلائل التي كتبها "**شتاينبيك**" ونشرها على أنها قصص قصيرة مستقلة .. وستلمس في تلك القصة – "**عبد زوجته**" أو "**سرج الحصان**" ! – روعة أسلوب "**شتاينبيك**" وجمال الفكرة!

(١) داني

كيف عاد "داني" إلى وطنه بعد الحرب ليجد نفسَه وارثا ، وكيف آلى على نفسه أن يكون حامياً للضعفاء ؟!

علـمَ "**دانـي**" – حين عاد إلى الوطن ، بعد أن سُرح من الجيش – أنه صار وارثا ، ومالكا عقاريا . فإن جده الشيخ قد مات، وخلف له البيتين الصغيرين القائمين على هضبة "**تورتيـلا**" . وعندما علم "**دانـي**" بهذا الميراث ، وأثْقَل الشعورَ بالمسؤولية – كمالك – قَلْبَه .. فابتاع جالونا من الشراب ، وتجرع معظمه قبل أن يذهب ليتفقَّدَ عقاره . وإذ ذاكَ فارقه هم المسؤولية ، وطفتْ على سطح شخصيته أسوأ معالم فطرته ، فراحَ يَصيح ، وحطم بعض المقاعد في حانة بشارع: "**الفارادو**" ، وخاض غمار مشاجرتين قصيرتين ، ولكنهما مُظفَّرتان.. ومع ذلك فإن أحدا لم يولِ "**دانـي**" كثير اهتمام ، فما لبثتْ ساقاه المقوستان ، المترنِّحَتَان ، أن حمَلَتَاه صوب الميناء ، حيث كان صيادو السمك

الإيطاليون يتوافدون في هذه الساعة المبكرة من الصباح – وقد ارتدَوْا أحذية خفيفة من المطاط – لينطلقوا إلى عرض البحر..

وتغلّب التحمسُ العنصري على تَعقُّل "**داني**"، فراح يتوعد الصيادين ويرميهم بأقذع النعوت، صائحا: "أيها الصقليون.. يا أولادُ السِّفاح!".. و "أيها الطَّغَام الوافدون من جزيرة السجن!" ويا كلاب، ياسلالة الكلاب!"..

وراح يضع أصبعه على أنفه ويهز ما تحت وسطه في حركات وَقِحَة مسْتَهْجَنة! ولكن الصيادين لم يجيبوه بأكثر من ابتسامات راثية، ثم حركوا مجاديفهم وهم يقولون: "أهلا بك يا"**داني**".. متى عُدْتَ إلى الوطن؟.. تعال الليلة، فلدينا شراب جديد!".

ولم يزد هذا "**داني**" إلا هَيَاجا، فصاح بأعلى صوته يسبهم.. ولكنهم أجابوه قائلين: "مع السلامة يا"**داني**".. تعال الليلة"، ثم حركوا مجاديفهم حتى خرجت زوارقهم من المياه الضحلة، وإذ ذاك أداروا محركاتها، وابتعدوا في عرض البحر!

ورأى "**داني**" في مسلكهم إساءةً له، فكرَّ راجعا إلى شارع "**الفارادو**"، وحطَّمَ زجاج نافذتين في طريقه، حتى إذا بلغ الصف الثاني من بيوت ذلك الشارع تلقَّفَه رجل البوليس، ولما كان "**داني**" يحترمُ القانون احتراماً بالغا، فقد بادر إلى الهدوء، ولولا أنه كان قد سُرِّح لتوه من الجيش– بعد الانتصار على "**ألمانيا**"!– لقُضي عليه بالسجن ستة أشهر. أما والحال هذه، فإن القاضي اكتفى بأن حكم عليه بالسجن ثلاثين يوما فقط!

ومن ثم، جلس "**داني**" على فراشه في سجن مدينة "**مونتيري**" شهرا. وكان يرسم أحيانا على الجدران صورا مُسْتَهْجَنة، بينما يسترجع – في أحيان أخرى – ذكرى خدمته في الجيش.

وثقُلَتْ عليه وطْأَةُ الوقت وهو يمر مُتَبَاطِئا أثناء وجوده في سجن المدينة. وكان يُزَج في السجن بسكير بين آن وآخر، ولكن إقامته لم تكن تزيد على ليلة واحدة. وفيما عدا ذلك كانت حرفة الإجرام راكدة السوق في "**مونتيري**"، فكان "**داني**" وحيدا في سجنه أغلب الوقت، ولقد أقَضَّ البَقُّ مضجعه بعضَ الشيء في البداية، ولكنه لم يلبث أن انْسجم معه بعد أن اعتادَ مذاقَ دَمه، وبعد أن ألف "**داني** لَدَغاته!

وبدأ يمارسُ لعبة ساخرةً ، فأمسكَ ببقة وسَحَقَها في الجدار ، ثم رسم حولها دائرة بالقلم الرصاص ، وأسماها "العمدة "**كلو**" ! وأمسك بعد ذلك ببقات أخرى أطلق عليها أسماء أعضاء مجلس المدينة. ولم ينقض وقت طويل ، حتى ازدان الحائط ببقّات مسحوقة تحمل أسماء أعيان المدينة . ثم رسم لها "**داني**" آذانا وذيولا، وخلع عليها أنوفا وشوارب طويلة !.. وبُهِت "**تيتو رالف**" – السجَّانُ– وأحس باستنكار ، ولكنه لم يَنْبِسْ بأية شكوى ، لأن "**داني**" لم يكن قد ضَمَّ إلى مَعْرَضِه القاضي الذي أصدر الحكم عليه، ولا أحدا من قوة البوليس .. فقد كان عظيم الاحترام للقانون!!

وفي ذات ليلة، أمَضَّتْ الوحدة "**تيتو رالف**" فوفد على زنزانة "**داني**" وهو يحملُ زجاجتين مليئتين بالشراب وإن هي إلا ساعة، حتى خرجَ ليحضر مزيدا من الشراب ، فصحبه "**داني**" إلى الخارج ، إذ كان جو السجن خاليا من البهجة!.. ومكثا في حانة: "**توريللي**" يَعُبَّان الشراب عَبا ، حتى ألَقى بهما "**توريللي**" إلى الرصيف .. فيَمَّمَ "**داني**" عقب ذلك شطر غابات الصنوبر ، حيث استسلم للنعاس ، بينما اتخذ "**تيتو رالف**" طريقه عائدا إلى السجن وهو يترنَّح ، وأبلغ المسؤولين أن "**داني**" قد هَرَب!

وعندما أيقظتْ الشمس الوضَّاحةُ "**داني**" حوالي الظهر، قرر أن يَخْتبِئَ طيلة النهار ليُفلِت ممن قد يطاردونَه ، ومن ثَمَّ أخذ يجري محتميا بالأدغال ، مُرسِلا بصره خلال الأشجار المنخفضة كما لو كان ثعلبا مُطاردا ، وعندما هبط المساء، واطمأن إلى أنه نجا بجلده من أية مطاردة ، خرج من مخبئه ، وبدأ العمل من أجل "مُهِمَّته"!.. وكانت مهمة صريحة، اتخذ سبيله إليها مباشرة. فقد سعى إلى الباب الخلفي لأحد المطاعم ، وسأل الطاهي: " هل أجدُ لديك شيئا من الخبز القديم لكلبي؟" . وبينما كان الرجل الطيبُ يلُفُّ له غذاء "الكلب!"، سرق "**داني**" شريحتين من اللحم المقَدَّد ، وأربعَ بيضات ، وقطعةً من فخذ الضان ، وطائرا ذبيحا!

وقال للطاهي وهو يتناول منه كيس الخبز : " لسوف أدفعُ لك الثمن فيما بعد " .

– لاداعي لأن تدفع ثمنا للفضلات .. إنني مُضْطَر لأن أُلقِيها خارج المطبخ إذا أنتَ

لم تأخذها!وارتاح بال "داني" إذ ذاك إزاء السرقة.. فقد اعتبرَ قولَ الطاهي شاملا لكل ما أخـذ ، ومن ثم لم يكن عليـه أي جَنَاحٍ أو وِزر في الظاهر ، على الأقل !.. وتسلَّلَ "دانـي" عائدا إلى حانة "توريللي" ، حيث استبدل بالبيضات الأربع، وفخذ الضان، والطائر ، ملء ماء كوب من الحساء ، ثم ارتَدَّ إلى الغابات ، ليعد عشاءه..

✽✽✽✽✽

وكانت الليلة مُعْتِمة ، رطبة ، وقد أطبق الضباب على أشجار الصنوبر السوداء التي كانت تقوم كحُرَّاسٍ ساهرين على أطراف "مونتيري" ،. واندَسَّ "داني" بين الأشجار، وأخذ يجري مُوغلا في الغابات ، باحثا عن ملجأ ، فما لبث أن رأى أمامه شبحا آخر يمضي مُروَّعا. وإذ جهد في الجري ليقترب منه ، أدرك من مشيته أنه صديقه القديم "بيلون" . وكان "داني" كريما سخيا ، ولكنه تذكر أنه قد باع كل ما كان معه من طعام، اللهم إلا قطعتي لحم مقدد ، وكيس الخبز الجاف، ومن ثم قال لنفسه:

– سأتغاضَى عن "بيلون" وأسبقه ، فإنه يبدو كرجل امتلأ بطنه بديك رومي وما إلى ذلك.. فهو في غير حاجة إلى كرمي!

على أن "داني" لم يلبث أن لاحظ أن "بيلون" كان يضم طرفي سترته إلى صدره في شغف واعتزاز ، فصاح : "إيـ........ـه! "بيلون".. أيها الصديق!".

وأوسع "بيلون" من خُطَاه ، فجَدَّ "داني" في مُلاحَقَتِه راكضا، وهو يقول : " بيلون"، أيها الصديقُ الصغير!..إلى أين نراك مسرعا؟".

ولم يجد "بيلون" حيلة إزاء أمر لامفر له منه ، فتوقف وانتظر. ولحق به "داني" وقد أخذ الإعياءُ منه ، ولكن لهجتَهُ ظلتْ رقيقة، حارة ، وهو يقول :" لقد كنتُ أبحث عنك يا أعز الأصدقاء من الملائكة الصغار!.. كنت أبحث عنْكَ لأنني أحمل شريحتين من لحم مُقدَّد ساقهما الله لي ، وكيسا من الخبز الأبيض اللذيذ .. فشارِكْنِي هذا الخير يا "بيلون" الصغير العزيز!".

وهز "**بيلون**" كتفيه وتمتم في جفاء: " وهو كذلك!" ..

وسارا معا مُوغِلينَ في الغابة ، وقد استبدَّتْ الحيرة بـ"**بيلون**" . على أنه لم يلبثْ في النهاية أن توقَّف ، والتفتَ إلى صديقه ، ثم سأله في أسى : " صارحني يا"**داني**" .. كيف تسنى لك أن تعرف أنني أحمل تحت سُتْرتي زجاجة من الشراب ؟"<

وصاح "**داني**" : شراب؟.. هل معك شراب؟" .. ثم انقلبَتْ لهجته إلى دُعَابة وهو يقول: " لعله لأُمٍّ عجوزٍ مريضة .. ولكنني لستُ سوى صديق ، فبأي حق أسألكَ عن غايتكَ من هذا الشراب؟.. بل إنني غير متأكد أنك تحمل شرابا ، على الإطلاق !.. ثم إنني لست ظامئا ، ولن أمس هذا الشراب ، ولكنني أرحب بك لتشاطرني ما لدي من لحم مقدد .. أما الشرابُ ، فهو لَكَ .. إنه شرابُكَ!" .

فأجاب "**بيلون**" في حزم: " إنني لاأحْجِمُ عن أن أشرككَ معي في هذا الشراب يا "**داني**" .. فلنقْتَسِمْه مناصفة، لأن واجبي يقضي علي بألا أدعَكَ تشربه كله فتثْمُلَ !" .

✿✿✿✿✿

وتغَاضَى "**داني**" عن الموضوع فترة ، ولكنه لم يلبث أن قال: " ها هي ذي بقعة خالية من الأعشاب، فتعال إليها .. وسأنضج اللحم ، بينما تُقَدد أنت قِطَع الخبز التي يَحْوِيها هذا الكيس ، ضَعْ شرابك هنا يا "**بيلون**" .. هذا المكان أنسب ، إذ يُيَسِّر لنا السبيل إلى مراقبته دون أن يشغل كلٌّ منا عن الآخر !" .

وجمعا بعض الأغصان والأوراق فاتخذاها وقودا لنار أشعلاها ، وأنضَجَا عليها اللحم، والتَهَمَا الخبز القديم، وأخذ الشراب ينكمش بسرعة في الزجاجة .. فقد استلقيا إلى جوار النار بعد أن فرغا من الأكل ، وأخذا يحتسيان من الزجاجة على مهل ورفق ، كنحلتين ترشفان الرحيق .. بينما هبط عليهما الضباب فكسا سترتيهما بالندى ، وتنَهّدَتْ الريح بأسى بين أفْنان أشجار الصنوبر التي كانت تحيط بهما ..

وبعد فترة ، اكْتَنف "**داني**" و"**بيلون**" شعور من الوحدة الموحشة ، إذ أخذ "**داني**" يفكر فيمن فقد من أصدقاء .. وما لبث أن راح يتحَسَّسُ ذراعيه بكفيه ، وهو

يتساءل: " أين "**أرثر موراليس**" ؟" .. ثم أجاب بنفسه عن السؤال ، وهو يترك ذراعيه تتراخيان في أسى: " لقد مات في "**فرنسا**" .. مات في سبيل الوطن..
مات في بلد أجنبي!.. إن الأغراب يسيرون على مقربة من مَثْواه ، دون أن يعرفوا أن "**أرثر موراليس**" يرقد في جوفِ الثَّرىَ هناك!" .. ثم عاد يزحف براحتيه إلى أعلى ذراعيه، ويتساءل :" وأين "**بابلو**" .. ذلك الرجل الطيب؟" .

وجَاءَه الجوابُ من "**بيلون**" في هذه المرة ، إذ قال :" في السجن !.. لقد سرق "**بابلو**" إوزَّة ، وأخفَاها في أحد الأدغال .. ولكن الإوزَّة عضَّتْ "**بابلو**"، فصرخ ، وفضح نفسه!.. وهو الآن ملقى في السجن لستة أشهر!" .

وتنهدَ "**داني**" في حزن ، ثم عَدلَ عن الموضوع وتحولَ إلى سواه ، إذ فَطِن إلى أنه قد تحدث عن الصديق الوحيد الذي يستطيع أن يستغل ذكراه ليَعْرضَ بلاغته في الرثاء !.. ولكن الوحشة عادت تُمضُّه وتثقل عليه ، فأخذ يبحث عن مهرب منها . وما لبث أن قال أخيرا :" ها نحن نجلس .."، فقاطعه "**بيلون**" وهو يكمل العبارة بأسلوب شاعري:" كسيري القلب!" .

ولكن "**داني**" قال :" لسْنا ننظِّم شعرا .. إنما أردتُ أن أقول إننا نجلس هنا شريدين بلا مأوى .. لقد وهبنا أرواحنا للوطن ، وها نحن نعود فلانجد سقفا يظلنا!" . فعقَّبَ "**بيلون**" مواسيا:" ولكنا لم نُؤْتَ في حياتنا من قبْل سقفا يعلو رؤوسنا!" .

*****

وأقبل "**داني**" على الزجاجة يَعُبُّ منها وهو غائب الوعي ، حتى مس "**بيلون**" ساعِدَه ، وأخذ الزجاجة منه، فقال "**داني**" :" إن هذا يذكرني بقصة رجل كان يملك بيتين .." وأمسك فجأة عن الكلام ، وفَغَر فَاه ، ثم صاح :"**بيلون**"!.. "**بيلون**، ياصديقي الطفل الشبيه بالبطَّةِ الصغيرة السمينة !.. لقد نسيَت !.. نسيت أنني ورِثْتُ!.. أنني أملك بيتين !" .

فتساءل "**بيلون**" ساخرا : " لعلهما بيتان للفساد؟!" ، ثم أردف قائلا : " يالك من كذاب ثمل!" .

- لا يا "**بيلون**" .. إنما أقولُ الحقيقَةَ . لقد مات "الشيخ" وأصبحتُ وريثه .. فأنا أحب حفيد لديه!

فقال "**بيلون**" الذي كان يُؤْثر الواقعية : " إنكَ الحفيدُ الوحيد له .. وأين هذان البيتان؟" .

- أتعرفُ بيتَيْ الشيخ على هضبة "**تورتيلا**" يا "**بيلون**" ؟

- هنا .. في "**مونتيري**" ؟

- أجل ، هنا في "**مونتيري**" .. على هضبة "**تورتيلا**" .

- وهل هُمَا صالحان .. هذان البيتان؟

فتهالَكَ "**داني**" على العُشب ، وقد أنْهَكَه اصْطِخَاب المشاعرِ في نفسه ، ثم قال : " لست أدري .. لقد نسيت أنني أصبحت مالكهما!"

وظل "**بيلون**" في مجلسه مُسْتَغرِقا في التفكير ، وقد ازداد تسلط الوجوم والأسى على أساريره .. ثم ألقى بحفنة من أقْمَاعِ الصنوبر في النار ، وراح يرقبُ اللهب وهو يذكو ويندلع حتى أتى عليها وعاد إلى الخفوت . وتحول بعد ذلك يَتَفَرَّس في وجه "**داني**" طويلا، وقد تجلّى عليه القلق، ثم أرسل زفرة عالية. وزفر مرة أخرى، قبل أن يقول في صوت حزين: " ها قد انتهى كل شيء.. ها قد انقضت الأوقات العذبة الحافلة.. لسوف يحزن أصدقاؤك ، ولكن الحزن لن يجدي فتيلا!" .

فوضع "**داني**" الزجاجة على الأرض ..، والتقطها "**بيلون**" فوضعها في حجره.. وما لبث "**داني**" أن تساءل : " ما هذا الذي انقضى؟.. ماذا تعني؟" .

فأجاب "**بيلون**" وكأنه يستأنفُ حديثَه السابق : " إنها ليستْ المرة الأولى!.. إن المرء يقول لنفسه إذا ما كان فقيرا: لو أنني أوتيتُ مالا ، لاقتسمتهُ مع أصدقائي " .. ولكن ، ما إن يواته المال، حتى تتبخر روح الخير من نفسه. وهكذا الحال معك.. أنت يامن كنتَ

صديقي يوما!.. لقد ارتفعتَ فوق مستوى أصدقائك !.. أصبحت من أصحاب العقارات لسوف تنسى أصدقاءكَ الذين تقاسموا معك كل شيء..

حتى الشراب !".

وحركت كلماتهُ أشجانَ "**داني**" فهتف :" لا.. إنني لستُ من هذا النوع!.. لن أنساكَ قط يا "**بيلون**" !".. ولكن "**بيلون**" قال في فتور:

" هكذا يخيل إليكَ ، ولكنك لن تلبث أن ترى نقيض ذلك ، إذا ما أصبح لك بيتان تأوي إليهما !.. لسوف يظل "**بيلون**" فلاحا فقيرا ، في الوقت الذي تجلس أنت فيه مع العمدة على مائدة واحدة!".

فهب "**داني**" من مجلسه مُتَرنِّحا ، ثم استند إلى شجرة ريثما يتمالك توازنه ، وقال:" إنني أقسمُ لك يا "**بيلون**" أن مالي سيصبح مالَكَ.. ولسوف أكتفي ببيتٍ، ليكون لك – أنت الآخر- بيت!.. ألا أعطني رشفة من الشراب!".. ولكن "**بيلون**" قال في صوت متقاعس: " لن أصدقَ هذا حتى أراه رأي العين.. ولو صح لكان أعجوبة من أعاجيب الدنيا، ولسوف يتوافد الناس من آلاف الأميال ليشاهدوه!.. وإلى جانب هذا أحب أن أقول لكَ إن الزجاجة قد فرغت!".

(٢) بيلون

كيف أن الطمع في استغلال الموقف أغرى "بيلون "على أن يستمرئ كرم "داني" !

تركهما المحامي عند الباب الخارجي للبيت الثاني ، وصعد إلى سيارته "**الفورد**"، وانحدر بها على السفح مُيمِّماً شطر "**مونتيري**".

ووقف "**داني**" و"**بيلون**" أمام السِّيَاج المجردِ من الطلاء ، وراحا يتأملان المبنى في إعجاب ، كان بيتا منْخَفِضا ، ملطخا بآثارقديمة لطلاء الجير ، وقد بدت نوافذه بلا ستائر ولامصاريع خشبية . ولكن "السلاملك" كان مُزْدَانا بشجرة ورْدٍ أحمرَ كبيرة ، كما كانت زهور. "**الجيرانيوم**"– التي زرعها الجد– تنمو بين الأعشاب الطفيلية في الساحة

الأمامية للدار!

وقال "**بيلون**": " هذا أفضَلُ البيتين .. فهو أكْبر من الآخر !" .

وكـــان "**دانـــي**" يمسِكُ في يده مفتاحا كبيرا ، فسار على أطراف أصابع قدميه عبر"السلاملك" المهشّم الأرضية، ثم فَتح باب الدار..

وكانت القاعة الرئيسية على حالتها المألوفة أيام كان الشيخ يُقيم في البيت .. فهناك تقويم سنة ١٩٠٦ (نتيجة الحائط) الوردي اللون . وكان العلم الحريري مُثْبَتا إلى الجدار، وكذا لوحة تمثل بارجة ضخمة يطل من ثناياها المحاربون ، في الأيام الأولى لتعمير "**أمريكا**". وكانت تتدلى من الجدار بَاقَةٌ من الورد المصنوع من الورق الأحمر ، وحبال محملة بالفلفل الأحمر والثوم ، وقد تراكم عليها الغبار.. وثمة مدفأة بالنفس "كوابور الغاز" ومقعدان هزازان مُتَداعِيان!

وأطل "**بيلون**" خلال الباب وقال وهو متهدّج الأنفاس:

- ثلاث غرف .. وسرير ومدفأة .. لسوف نعيش سعيدين هنا يا "**داني**" !

وكان "**داني**" طيلة الوقت يقف غارقا في ذكرياتٍ أليمة تدور حول جده ، ولكنه لم يلبَثْ أن شرع يَجُوسُ في أرجاء البيت بحذر . ومَرَق "**بيلون**" من جانبه ليتقدمه ، ثم سار الاثنان إلى المطبخ .. وهتف "**بيلون**": " وهذا حوض ذو صُنْبُور!"، ثم أدار مقبض الصنبور ، وعاد يقول:" لاماء هنا يا "**داني**" .. يجب أن تطلب إلى الشركة أن تُوَصِّل الماء ثانية!" .

ووقفا وجها لوجه ، ثم ابتسم كل منهما للآخر ، ولاحظ "**بيلون**" أن هموم الملكية والثروة قد بدأت تُثْقِل أسارير "**دانــي**" ، فخفَقَ قلبه رثاء : لن يخْلُوَ هذا الوجه من الأكْدَار طِيلة العمر!.. ولن يعود "**داني**" إلى تحطيم نوافذِ الناس، بعد أن صارتْ له نوافذ يمتلكُها !.. لقد صدق "**بيلون**" في حَدَسه ، فقد ارتفع "**داني**" فوق مستوى زملائه!

*****

وشدَّ "**داني**" قامته ، وبسَطَ كتفيه ، ليصْمُد لمتاعب الحياة. على أنه أفلت صرخة متوجِّعة قبل أن يَهْجُر حياته السابقة البسيطة ، ويتحرر منها ما بقي له من عمر. . وقال في اكتئاب : " **بيلون**" . . ليتك كنت أنت صاحب الدار، وكنْتُ أنا الصديق الذي قَدِم ليعيش معك!" .

وبينما ذهب "**داني**" إلى "**مونتيري**" ليخْطِر شركة المياه كي تعود إلى إمداد البيت بالماء ، أخذ "**بيلون**" يجُوسُ خلال الساحة الخلفية التي انبثتْ فيها الأعشاب الفطرية. وكانت ثمةَ أشجار فاكهة معروفة ، هزيلة سوداء ، لفرط قدمها ، وقد ذوَتْ أوراقها وتكسرتْ أفنانها لطول ما أُهملَتْ!. . كذلك كانت ثَمَّةَ عشش للدجاج – على شكل خيام– بين الأعشاب، وكومة من أطواقِ البراميل التي تكاثف عليها الصدأ، وكومة أخرى من الرماد وبقايا النار، وحشية مهلهَلة!

وألقى "**بيلون**" نظرة عَبْر السياج إلى الساحة التي كانت السيدة "**مورالس**" تُربِّي فيها دجاجها– في البيت المجاور – وبعد أن فكر لحظة، فتح بضع ثغرات في السياج، ليستدْرِجَ خلالها الدجَاجَ، وهو يقول:

–" إن الدجاجاتِ تُحب أن تقيم أعشاشها بين الأعشاب العالية" . . وخفق قلبه عطفا عليها، ثم تحول يفكر في صنع فخ على شكل رقم (٤) بالإنجليزية ، ليضلل الديكة إذا ما جاءتْ وحاولت إزعَاجَ الدجاجات وشَغْلها عن أن تظل راقدة على بيضها في الأعشاش. . وعاد يقول لنفسه: " لسوف نَسْعَد بالإقامة هنا!" .

ورجع **داني** من "**مونتيري**" مستاء ، فقال : " إن تلك الشركة تبغي أن نُودِع لديها تأمينا" .

– تأمين؟!

– أجل . . إنهم يريدون ثلاثة دولارات قبل أن يسمحوا للمياه بأن تجري ثانية إلى البيت!

فقال "**بيلون**" في تفكير جدي: " ثلاثةُ دولارات.،. أي ثلاثة جالونات من الشراب! فإننا نفضِّلُ الشراب ، ثم نَقْتَرِض ملء دلو من الماء من السيدة "**مورالس**" ، صاحبة

البيت المجاور".

- ولكنا لا نمتلك الدولارات الثلاثة التي نشتري بها الشراب؟

فقال "**بيلون**" : " إنني أعرف هذا، ولكن بوسعنا أن نستعير قليلا من الشراب من السيدة "**مورالس**"!".

*****

وانصرم الوقت- بعد الظهيرة- سريعا. وما لبث "**داني**" أن قال :

-لسوف نستقر في معيشَتِنَا غدا".. ثم عاد يقول:

غدا نقوم بتنظيف البيْتِ وإزالة الأوساخ وعليك أنت يا"**بيلون**" أن تجتَثَّ الأعشاب ، وأن تُلْقِي القاذورات في مَقْلَب الفضلات!".

فصاح "**بيلون**" في جزع: " الأعشاب ؟.. ما أظنك تقصد تلك الأعشاب ؟!".. ثم طفق يشرح لصديقه نظريته في استدراج دجاجات السيدة "**مورالس**" ، فوافق "**داني**" في الحال، وقال :" لشد ما أنا مْغتَبِطٌ لأنك قِدمْتَ للإقامة معي هنا ياصديقي!.. والآن، عليك أن تدبر لنا ما نتعشى به، بينما أجمع أنا بعض الخشب لأُشعِلَ نارا!".

وتذكر "**بيلون**" الشرابَ الذي قدمه لـ"**داني**"، وقارن بينه وبين ما أتاحَهُ له "**داني**" من مُشَاطَرته داره ، فخيل إليه أن الصفقة غير عادلة ، وقال لنفسه في مرارة: " إنني أوشِكَ أن أغدو مدينا له ، ومن ثم فلن ألبثْ أن أفقد حريتي .. وسَرْعَان ما أُصْبح عبدا بسبب بيت اليهودي هذا!".. ومع ذلك فقد خرج ليدبر أمر العشاء!

واجتاز صفين من البنايات ، حتى إذا صار عند حافة غابة الصنوبر ، صادف دِيكا في أواسطِ العمر، من سلالة "بلايموث روك"، يَنْبشُ أرض الطريق.. وكان قد أشرف على سن المراهقة.. السن التي يَخْشَوْشن فيها صوته. وتَتَعرى فيها ساقاه ورقبته وصدره من الريش .. ولعل العطفَ الذي سرى في قلب "**بيلون**" نحو الديك، كان راجعا إلى أنه فكَّرَ طويلا في دجاجاتِ السيدة "**مورالس**" ، وفي الطريقة التي يُبعد بها الديوك عنها ، إشفاقا عليها من أن تَنْصرف عن احتضان بيضها.. ومن ثم سار في تُؤَدةٍ نحو أشجار

الصنوبر المعتمة ، والديك يجري أمامه!

وفكر "**بيلون**" في نفسه: " يالَلْفرخ العاري المسكين!..

ما أقسى البْردَ عليك في الصباح الباكر ، عندما يتساقط الطل، وتشتد برودة الهواء مع مَقْدم الفجر..

ورَمَقَ "**بيلون**" الديك، وعاد يقول له في خاطره :" هأنتذا تلعب في الطريق أيها الفرخ .. من يدري ؟ ربما دهَمَتْكَ يوما سيارة فداستكَ وقتلتكَ .. بل إن القتل يكون خيرا لك، ولكنها قد تكتفي بأن تكْسرَ لك ساقا ، أو تقْصِفَ لك جناحا ، فتعيش طيلة عمرك عاجزا تتَخَبَّطُ في التعاسة.. ما أقسى الحياة عليك أيها الطائر الصغير!" .

وتحرك في بطء وحذر . وكان الديك؛ يحاول- بين آن وآخر -أن يرتَدَّ عائدا من حيث أتى ، ولكنه كان في كل مرة يجد "**بيلون**" في المكان الذي اختار أن ينفذ منه .. وما لبث في النهاية أن غاص في الغابة ، فسار "**بيلون**" في أثره وئيدا وكأنه يتسكع على غير هدى !.. وقُدرٌ لهذا الديك الصغير- الذي تنبأ له "**بيلون**"بأنه قد يعيش في ألم وعذاب -أن يموت في دعة وسلام.. أو في هدوء ، على الأقل !.. وليستْ هذه بالشهادة البسيطة لأساليب "**بيلون**" الفنية!

وما هي إلا عشر دقائق ، حتى برز "**بيلون**" من الغابة ، واتجه عائدا إلى دار "**داني**" . وكان الديك الصغير قد جُرِّد من ريشه، ومن أحشائه وأطرافه ، وَوُزِعٌ على جيوب "**بيلون**"!.. ذلك لأنه إذا كان ثمة مبدأ من مبادئ السلوك مُقَدَّما على سواه لدى "**بيلون**" ، فهذا المبدأهو : إياك أن تحمل إلى البيت- مهما تكن الظروف - ريشا ، أو رأسا ، أو أقداما ، إذ إن من المستحيل التَّعَرف على أي ديك إذا جُرِّد من هذه المعالم!!

*****

وفي المساء ، أشعل الصديقان النار في أقماع الصنوبر التي كَدّساها في الموقد ، فأخذت ألسنة اللهب تزمجر في المدخنة.

وكان "**داني**" و"**بيلون**" قد أكلا حتى شبعا وسرى إليهما الدفء.

فشعرا بالسعادة ، وجلسا في المقعدين الهزازين يَتَأَرْجحان في رفق إلى الأمام وإلى الخلف !.. وكانا قد اسْتَخْدما - خلال العشاء - قطعة من الشمع أمدَّتْهُما بشيء من الضوء، ولكن ظلام الغرفة لم يتبدد ْإلا عندما انبعث وَهَجُ النار خلال شقوق الموقد .. ولكي يَكْمُل هناؤهما، أخذ المطر يتساقط فيَطرق السقف بقطراته.. ولم يتسربْ خلال شقوق السقف سوى قدر ضئيل من الماء.. وحتى هذا القدر - على ضآلته- لم يهبط إلا على أماكن لم تكن بالصديقين حاجة إلى الجلوس فيها ، ومن ثم ظلا بمأمن من البلل!

وقال "**بيلون**" : " نعم الحال هذه !.. تصور الليالي التي كنا نَضْطَر فيها إلى النوم في البرد!.. هذه هي الحياة حقا!" .

فقال "**داني**" : حقا!.. وما أغربَ الظروف !.. لقد ظللتُ أعواما بلا مأوى ، فإذا بي أحظىَ فجأة بدارين.. وليس بوسعي أن أنام في بيتين في آن واحد!" .. وكان "**بيلون**" يكره الإسراف، وقد رأى في عدم استغلال البيت الثاني تبديداوإسرافا، فقال :؛ لقد ظل هذا الموضوع بالذات يشغل بالي .. لماذا لاتُؤجِّر البيتَ الآخر ؟" .

وانزلقتْ قدما "**داني**" عن قاعدة المقعد، فاصطَكَّتاً بالأرض .. وصاح: " عجبا يا"**بيلون**" !.. كيف لم تَخْطُرْ لي هذه الفكرة من قبل؟!" .. وإذ ازداد اقتناعا بالفكرة ، تساءل: " ولكن ، من ذا الذي يستأجر البيت ؟" .. فقال "**بيلون**" : " أنا أستأجره.. سأدفع عشرةَ دولارات في الشهر!" ..

ولكن "**داني**" قال في إصرار :؛ بل خمسة عشر !.. إنه بيت جيد ، يستحق خمسة عشر دولارا" .

ووافق "**بيلون**" على مَضَض ، بل إنه كان مستعدا لأن يوافق على ما يزيد على هذه الأجرة ، إذ بدأ يشعر بما يصيبُ الإنسانَ من سُمُوّ إذا ما عاش في بيت خاص به.. وكان جد تواق إلى هذا السمو!..وما لبث "**داني**" أن قال: " إذن فقد اتفقنا .. لسوف تستأجر داري .. أوه ، لسوف تجدني مالكا طيبا يا "**بيلون**" ،فلن أضايقَكَ قط!" .

ولم يكن "**بيلون**" قد امتلَكَ في حياته كلها - عدا العام الذي قضاه في الجيش -

خمسة عشر دولاراً، ولكن فِكْرَه أوحى إليه بأن الأجرة لن تغدو مستحَقة لـ"**داني**" قبل انقضاء شهر.. فمن يدري ما قد يَجْري خلال الشهر؟

وهكذا أخذ الاثنان يَسْمُران في هناء إلى جوار النار.

وما لبث "**داني**" أن غادر الغرفة بعد برهة، فغاب بضع لحظات، ثم عاد يحمِلُ عددا من ثمار التفاح، وقال يبرر عمله: " كان المطر خليقاً بأن يُفْسدها .. على أية حال!".

ولم يشأ "**بيلون**" أن يكون أقل منه حيلة، فما لبث أن نهض وأشعل الشمعة، ثم سار إلى غرفة النوم، فغاب برهة، وعاد يحمل وعاء للاغتسال "طستا"، وآنيتين للزهور من الزجاج الأحمر، ومروحة من ريش النعام.. وقال: " ليس من الخير أن نحْتفِظَ بكثير من الأشياء القابلة للكسر أو التلف .. فإنها إذا كُسِرت أو تَلفت، أورثتْ المرءَ حزنا، بل إن الخير كل الخير في ألا نُبْقيها على الإطلاق!".. ثم انتزع باقة الورد الورقي الأحمر عن الجدار، وقال مبررا عمله: " ساقدمها تحية للسنيورا "**توريللي**".. وانفلت مغادرا الدار.

وما لبث أن عاد بعد قليل، وقد ابْتَلَّ بالمطر، ولكنه كان بادي النصر، إذ كان يحْمِلُ في يده إبريقا به جالون من الشراب الأحمر.. واندمجا – فيما بعد– في جدال حامي الوطيس، ولكنهما لم يَحْفلا بتَعَرف من الذي انتصر منهما على صاحبه، إذ كانا مكدودين، بعد أن أرهقهما ما صادفهما أثناء النهار من انفعالات. كما أن الشراب أثْقَلَ رأسيهما وأجفانهما، فلم يلبثا أن انطرحا على الأرض، واستغرقا في النوم!

وخَبَت النار، فأخذت جوانب الموقد تُطَقْطِق وهي تزداد برودة .. وتضاءلت الشمعة، ثم غاص الفَتِيل في الشمع المذاب فانطفأ نوره، وأرسل بضعة خيوط من دخان أزرق..

وسيطر على البيت الظلام، والهدوء والسكينة!

عبد زوجته

تأليف

جون شتاينبيك

الإسم الأصلي للكتاب

THE HARNESS

تأليف

كان "**بيتر راندال**" من أكثر مزارعي مقاطعة "**مونتيري**" حُظْوة باحترام القوم. وقد حدث عندما دُعي يوما إلى إلقاء خطبة قصيرة في مجمع "**ماسوني**"، أن وصفه "الأخ" الذي قدمه بأنه مثال يجب أن يقتدي به شباب الماسونيين في "**كاليفورنيا**" . وكان يقترب من الخمسين من عمره، ذا طبعٍ مَهيب مُتَّزن ، كما كان ذا لحية أنيقة ، ومن ثم كان يحظى من كل مجتمع بما لِذي اللِّحَى من سلطان! وكانت عيناه وقورتَيْ النظرات كذلك.. كانتا زرقاوين، وقورين إلى الحد الذي يكاد الوقار يَنْقلب عنده إلى حزن !.. وكان الناس يدركون أن في شخصيته قوة ، ولكنها قوة حبيسة!.. وفي بعض الأحيان، كانت عيناه تَتَّخذان مظهرا عنيدا ومهينا ، كعينيْ الكلب الشرير .. ولكن هذه النظرة كانت سرعان ما تزول ، ليسْتَردَّ وجهه رزانته واستقامته ، وكان طويلا ، عريض الصدر ، مستقيم المنكبين ، ضامر البطن ، كأنه جندي !.. ولما كان المزارعون عادة مُتَرهِّلين ، مكرشين، فإن "**بيتر**" اكتسب مزيدا من الاحترام بسبب قامته !

- أما "**إيما**" ، زوجة "**بيتر**" ، فقد أجمع الناس على أنه كان من العسير أن يعرف المرء كيف تَظَل امرأة كهذه- جلدا على عظام!- على قيد الحياة، لاسيما وأنها كانت سَقِيمة معظم الوقت ، فقد كانت تزنُ سبعة وثمانين رطلا ، وكانت - وهي في الخامسة والأربعين- ذاتَ وجهٍ مغضَّن ، أسمر ، كما لو كانت امرأة عجوزا .. بيد أن عينيها السوداوين كانتا تَتَّقدان بالرغبة في الحياة.. وكانت امرأة عزيزة النفس ، قل أن تشكو!

وكـــان "**بيتـــر**" يرحلُ مرة في العام ، فيغيب أسبوعا ، تاركا زوجته وحيدةً في المزرعة..، وكانت تقول للجارات اللاتي يزرنها ليؤنسنها :

-" لقد رحل لبعض الأعمال!" .. وكانت "**إيما**" كلما عاد "**بيتر**" من رحلة الأعمال هذه ، تَسْتَسْلمُ للمرض شهرا أو اثنين ، وكان هذا المرض يَشُقّ على "**بيتر**" ، لأن "**إيما**" كانت تؤدي أعمال البيت بنفسها وتكره أن تستأجر فتاة لتؤديها عنها ، فإذا ما مَرِضتْ، كان "**بيتر**" يضطر إلى القيام بأعمال البيت..

*****

وكانت مزرعة"**راندال**" تمتد على ضفة نهر"**ساليناس**"، مُلاَصِقة للتلال، فكانت المزرعة خليطا مِثَاليا، مُتَوازنا، من أرض منخفضة وأخرى عالية .. كانت تتألف من خمسة وأربعين فدانا مستوية على هضبة خِصْبَة حمل إليها النهر الطَّمْي من أخْصَب بقاع المقاطعة – في العصور الغابرة– وثمانين فدانا من أرضٍ بسيطَةِ الارتفاع لزراعة البساتين.

أما الدار، فكانت بيضَاءَ، في نظافة صاحِبَيْها وَوَقَارهما .. وكانت الساحة الملاصقة للبيت مباشرة، محوطة بسياج. وقد زرع "**بيتر**" في الحديقة بعض الزهور الجميلة بإِرشاد "**إيما**"!..

ومن الشرفة الأمامية للدار، كان المرء يرى الهضبة، والنهر من وَرائِهَا، بما يحُفُّ به من مُرُوج وأشجار القُطْن الكثيفة ..

وعلى الضفة الأخري للنهر كانت حقولُ البَنْجَر تبدو من ورائها قبة محكمة "**ساليناس**" . وكثيرا ما كانت "**إيما**" تجلس في مقعد هَزَّاز في الشرفة الأمامية، حتى يضطرها النسيم إلى دخول الدار. وكانت دائما تَنْهَمكُ في أشغال الإبرة، وهي ترفع بصرها بين آن وآخر، لترْقُبَ "**بيتر**" وهو يعمل على الهضبة، أو في البستان، أو على السفح!

ولم تكن مزرعة "**راندال**" مثقلة بالديون أكثر من سواها من مزارع الوادي . وكانت المحصولات تُنْتقَى بحكمة، وتتلَقَّى عناية طيبة، فتَكْفي لسداد فوائد القروض، وتكفُلُ مستوى معقولا للمعيشة، ثم يتبقَّى منها بضع مئات من الدولارات في كل عام تدفع للوفاء بجزء من الدين الرئيسي . لذلك لم يكن من العجيب أن يحظى "**بيتر راندال**" باحترام جيرانه، وأن تَلْقَى الكلماتُ القلائِلُ التي يقولها اهتماما منهم، ولو كانت عن الجو أو عن غيره من الأمور الجارية. فلو قال "**بيتر**": " سأذبح خنزيرا في يوم السبت" لذَبَح سامعُوه جميعا –تقريبا خنازير يوم السبت !.. وما كانوا يعلمون السبب، بل كان يكفيهم أن يعرفوا أن "**بيتر راندال**" يعتزم ذبح خنزير .. فقد كان هذا يبدو لهم شيئا طيبا، محمودا، يتَّفِقُ والأصول!

وكان "**بيتر**" و"**إيما**" قد تزوجا منذ واحد وعشرين عاما ، جمعا خلالها مِلْءَ بيتهما من الأثاَث الجيِّد ، وعددا من الصور ذات الإطَارات ، وأواني للزهور من كافة الأشكال ، والكتب الوقور ، ولما لم تكن "**إيما**" قد أنجبَتْ أطفالا ، فإن البيت لم يُصَبْ بأي خدوش أو شقوق أو تشويهات ، وكانت الحصائر المصنوعة من لحاء الكاكاو السميك مفروشة أمام البابين الأمامي والخلفي ، لتمْنَعَ ما قد يكون عالقا بالأقدام عن التَّسَربِ إلى داخل البيت ! . . وكانت "**إيما**" في الفترات التي تتخَّلل مرات سِقَامها ، تُعنَى بالبيت ، فكانت تحرص على تزييت مفصلات الأبواب والصواوين ، وتتفادى أن يفقد أي مقبض أحد مساميره . ، أما الأثاث والأشياء الخشبية فكانت تُطْلى وتُصْقَل مرة كل عام . ، وكانت الإصلاحات تُجرى عادة بعد عودة "**بيتر**" من رحلات أعماله السنوية .

وكان الجيران يعترضون طريق الطبيب وهو منطلق في الطريق المحاذي للنهر ، كلما ذاع في المزارع أن "**إيما** مريضة ، فيسألونه عنها . . وكان يُجيب : " أظن أنها بخير ، وإن كان عليها أن تلزم الفراش أسبوعين !" . . فكانت الجاراتُ يحْمِلْن الفطائر إلى مزرعة "**راندال**" ، ويتسللن على أطراف أقدامهن إلى غرفة المريضة ، حيث كانت ترقد المرأة الشبيهة بالعصفور الهزيل ، في سرير كبير من خشب الجوز . وكانت تَرْمِقُهن بعينيها السوداوين البراقتين ، فيسألنها : " ألا تحبين أن نُزيحَ الستائر عن النوافذ ؟" .

– لا ، شكرا . . إن الضوء يُزْعِج عيني !

– أما من شيء نستطيع أن نؤديه لك ؟

– لا ، شكرا . . إن "**بيتر**" يؤدِّي كل شيء على ما يرام !

وكانت "**إيما**" تُصِرّ على رفض كل خدمة ، فلم يكن أمامهن ما يفعلنه من أجلها – وهي مريضة – سوى أن يحملن الفطائر والكعك إلى "**بيتر**" ، الذي كن يجِدْنَه في المطبخ ، وقد ارتدى مريلة أنيقة نظيفة !

*****

وفي خريفِ أحد الأعوام ، سرى نبأ بأن "**إيما**" كانت مريضة، فأعدَّتْ زوجات

المزارعين الفطائر لـ"**بيتر**" ، وتأهبْنَ للقيام بزيارتهن المألوفة . ووقفت السيدة "**شابيل**" – ربة المزرعة المجاورة – في طريق الدكتور وسألته :" كيف حال "**إيما راندال**" يادكتور؟" .

– ما أظنُهَّا في حال طيبة يا سيدة "**شابيل**" .. أرى أنها مريضة جدا!

وانتشر في المزارع المجاورة أن "**إيما راندال**" توشك أن تموت ، فإن الدكتور "**مارن**" كان يرى أن المريض "في حالة طيبة " طالما أنه لم يكن جثة هامدة!.. ولكن "**إيما راندال**" ظلتْ تُغالب المرض زمنا طويلا ، وكان "**بيتر**" يُعْنى بخدمتها بنفسه ، فلما اقترح الطبيب استخدام ممرضة ، قُوبل اقْتراحُهُ بنظرات عنيدة ، مصرة على الرفض، انبعثت من عيني المريضة . ومع ما كانت عليه من مرض ، فإن مطالبها كانت تُقَابَل باحترام..

ومن ثم ظل "**بيتر**" يُغذيها ، ويُنظفها ، ويُسوي فراشها بنفسه !..

وظلت الستائر مسدلة على نوافذ غرفة النوم. وانقضى شهران قبل أن ترين على العينين السوداوين الحادتين غشاوة ويستسلم العقل الحاد للغيبوبة . وإذ ذاك فقط ، وفدت على الدار ممرضة .. وكان "**بيتر**" قد أصبح هو الآخر نحيلا ، سقيما ، توشك قواه أن تتداعى !.. وكانت الجارات يحملن إليه الفطائر والكعك ، فيجدن ما أحضرنه من قبل مايزال في المطبخ لم يُمس!

وكانت السيدة "**شابيل**" في البيت مع "**بيتر**" ، في ذلك الأصيل الذي ماتت فيه "**إيما**" ، وجرفت "**بيتر**"نوبةٌ هيستيرية في الحال ، فأسرعت السيدة "**شابيل**" إلى الاتصال تليفونيا بالطبيب ، ثم بزوجها الذي سألته أن يخف لمعونتها ، إذ راح "**بيتر**" يُعْول كرجل مخبول ، ويضْرب خديه الملتحيين بقبضتيه .. وأحس "**أيد شابيل**" باستنكار عندما رآه ، إذ كانت لحية :"**بيتر**" مخضلة بالدموع ، وشهقاته العالية تُسمع في البيت كله .

وحين وضع "**أيد شابيل**" يده على كتف "**بيتر**" وقال له :" كفى يا"**بيتر**" ، كفى!" ، أزاح "**بيتر**" يد "**شابيل**".

ووقع الطبيب شهادة الوفاة.. وعندما أقبل اللحاد ، لقي الجميع عناء في السيطرة على "**بيتر**" ، إذ غدا كالمجنون . وأخذ يصارعهم عندما هموا بحمل الجثة إلى الخارج ، فلم يستطيعوا نقل جثة "**إيما**" إلا بعد أن أمسك "**أيد شابيل**" واللحاد" "**بيتر**" ، بينما حقنه الطبيب بمادة مخدرة . . ولكن المخدر لم يسلم "**بيتر**" إلى النوم، بل جلس مُنْطويا على نفسه في أحد الأركان ، وأخذ يُحَمْلق في الأرض، وأنفاسه تَتَابَع متَهَدِّجة . وسأل الطبيب الممرضة : " من الذي سيمكثُ معه ؟" ، فأجابت : " إنني لاأقوى على السيطرة عليه وحدي" . . فدعا الطبيب "**شابيل**" إلى البقاء معه ، وقال له : " هاك بعض أقراصِ البرومايد ، فإذا عاد إلى هياجه ، أعْطِهِ قرصا منها . . وإذا لم تفلح الأقراص ، فأعطه بعض "**أمِيتَال الصوديوم**" . . إن قرصا من هذه كفيل بتهدئته ! " .

وقبل أن ينصرف القوم ، تعاونوا على نقل "**بيتر**" إلى غرفة الجلوس، ، فأرقدوه في رفق على أريكة ، بينما جلس "**أيد شابيل**" في مقعد مريح، وأخذ يراقبه ، وقد وضع أقراص "**البرومايد**" وكوبَ ماء على منضدة بجواره . .

وكانت الغرفة نظيفة . . فقد عُني : "**بيتر**" في صباح ذلك اليوم بالذات بمسحِ أرضها بورق مبتل . وأوقد "**أيد** " نارا في المدفأة ، وغذاها بكتلتين من الخشب . . وما لبث الليل أن هَبَطَ ، وهطل مطر خفيف كان يطرق النوافذ كلما دفعته الريح .

وسوى "**أيد**" فَتِيل المصباح ، ثم خفَّفَ الضوء . . وظل فترة طويلة يرقبُ "**بيتر**" وهو مُخَدَّر على الأريكة ، ثم ما لبث النعاس أن غزا جَفْنيْ "**أيد**" .

*****

وكانت الساعة قد قاربتْ العاشرة مساء ، عندما استيقظ "**أيد**" فحَمْلَقَ في الأريكة ، وإذا بـ"**بيتر**" جالس يتأمله . . وامتدت يد" **أيد**" إلى أقراص "**البرومايد** " ، ولكن "**بيتر** " هز رأسه قائلا : " لادَاعِيَ لأي شيء ، إذ أعتقد أن الطبيب قد خدرني بمُخدَّرٍ قوي . . على أنني أشعر بارتياح ، وإن كنت ما أزال تحت تأثير المخدر قليلا ! " .

– لو أنك أخذْتَ واحدا من هذه الأقراص لنعِمْتَ بالنوم!

– ولكنني لاأريدُ أن أنام.. لسوف أغسلُ وجهي فأنتعش!

وإن هي إلا لحظة ، حتى عاد إلى غرفة الجلوس ، وهو مايزال يجفِّفُ وجهه بمنشفة .. وكانت على شفتيه ابتسامة غريبة، تُوحي بتعبير لم يشهد "**أيد**" مثله من قبل ..

ابتسامة غامضة ، تثيرُ العجب ! وقال "**بيتر**" : " أَعْتَقِد أن أعصابي أفلتتْ مني عندما ماتت "**إيما**" .

– آه .. أجل.. إلى حدٍّ ما !

– لقد لاَحَ لي كأنما انقطع شيء في جَوْفِي .. شيء كان يشُدُّ أطراف كياني .. فكأنني تفكَّكْتُ !.. على أنني الآن بخير !

وحملق "**أيد**" في الأرض ، فرأى عنْكَبُوتاً صغيرا ، أسمر ، يزحف ، وإذ ذاك مد قدمه وسحقه . وسأله "**بيتر**" فجأة: " هل تُؤمِن بأن ثمةَ حياةُ بعد الموت؟" .. فتردَّدَ "**أيد شابيل**" حائرا ، إذ إنه لم يكن يحب الحديث عن مثل هذه الأمور ، لأن الحديث عنها يُقْحِمُها على ذهنه ، فيظل يفكر فيها!.. وما لبث أن قال : " إذا شئْتَ رأيي ، فأنا أعتقدُ بوجود حياة بعد الموت" .

– هل تؤمن بأن أي امرئ يرْحَل عن الدنيا يستطيع أن يُطِلَّ عليها فيشهدُ ما نفعل ؟!

– لستُ أدري ، فأنا لم أتعمَّقُ إلى هذا الحد.. لستُ أدري!

فاستطرد "**بيتر**" وكأنه يكلمُ نفسَه:" حتى إذا كانتْ تراني ، وإذا أنا لم أفعل ما كانت تحب ، فخليق بها أن تشعر بارتياح، لأنني لم أقدم على هذا الذي لاتحبه إلا بعد أن غَابَتْ عن هنا .. وخليق بها أن تُسَر لأنها جعلتْ مني رجلا صالحا !.. إنني إذ أغْدُو غير صالح في غيابها ، فسيقوم هذا دليلا على أنها هي التي كانت تصلحني .. أليس كذلك؟.. إنني كنتُ رجلا صالحا ! ألا ترى ذلك يا "**أيد**" ؟" .

– ماذا تَعْني بقولك "كنتُ" ؟

– أجل ، لقد كنتُ صالحا ، عدا أسبوعٍ واحد في السنة، ولست أدري ما سوف أفعله الآن..

واشتدتْ أمارات الحنَقِ على وجهه، وقال :" لستُ أدري سوى شيء واحد !" .. ونهض فخلع سُتْرَته وقميصَه ، فبدا فوق ثيابه الداخلية حزَام من القماش يشد كتفيه إلى الوراء - كَسَرْج الجواد- ففكه وألقاه بعيدا ، ثم خلع "بنطلونه" فكشف عن حزام عريض من المطاط حول بطنه ، وخلع : "**بيتر**" هذا الحزام ، وراح يحك بطنه في استمتاع، ثم ارتدى ثيابه من جديد ، وابتسم عين الابتسامة الغريبة الغامضة، وقال:" لستُ أدري كيف كانت تحملني على تنفيذ رغباتها؟..

لم يكن يبدو أنها تفرض سلطانها علي ، ومع ذلك كانت تحملني دائما على أن أفعل ما تَبْغِي . أتصدق ؟.. إنني لا أكادُ أؤمن بوجود حياة أخرى !.. لقد كنت مضطرا - عندما كانتْ على قيد الحياة، بل وحتى في أوقات مرضها!- إلى عمل ما كانت تَبْغي من أمور ، ولكن .. في نفس الدقيقة التي ماتت بها .. شعرتُ .. كأن سَرْجا قد انزاح عني، وكأن العنَانَ أُطْلِق لي!.. ولم أستطع أن أصدق أن كل شيء قد انتهى، وأنني مسوق إلى أن أعْتادَ المضي بغير عنان!.. لسوف يَبْرز بطني ويتَكَرَّش ، وسأدعه يَبْرُز .. إنني الآن في الخمسين من عمريَ!" .

ولم يرتح "**أيد**" إلى هذا الحديث .. فقد بدا له غير لائق في تلك الظروف ، ومن ثم قال في استخذاء :" لو أنك تناولتَ واحدا من هذه الأقراص لنَعِمتَ بقسط من النوم!" .. ولم يكن "**بيتر**" قد ارتدى سترته ، بل جلس على الأريكة وصدر قميصه مفتوح .. فقال :" لستُ أريد أن أنام ، وإنما أنا أهْفُو إلى الكلام .. أحسبني سأضع ذلك الحزام والعَنَانَ (اللجام) ليشدا كتفي وبطني أثناء الجنازة ، ولكنني سأحرقُهُمَا بعد ذلك!.. اسْمَع .. إن لدي زجاجة مليئة بالشراب في مخزن الغلال، وسأذهبْ لإحضارها" .. فبادر "**أيد**" إلى الاعتذار قائلا:" آه لا .. لستُ مستطيعا أن أشربَ الآن.. في وقْتٍ كهذا!" .. ولكن "**بيتر**" انتصبَ واقفا وقال :" لا بأس.. إنني أستطيع الشرب ، وفي وسعك أن تجلس وتشاهدني إن شئت .. لقد انتهى كل شيء كما أكدْتُ لك!" .

*****

وغادر "**بيتر**" الغرفة ، تاركا "**أيد شابيل**" فَرِيسَة للشقاء والشعور بالاستنكار . ولم تنْقَضِ لحظةً حتى عاد ، وشرع يتكلم وهو ينفذ خلال الباب حاملا الشراب .. " لم يكن لي من فُرَص في حياتي سوى تلك الرِّحلات .. لقد كانتْ "**إيما**" امرأةً لامعةَ الذكاء ، وقد أدركتُ أنني مسوقٌ إلى الجنون إذا لم أبتعد عنها مرة في العام.. يا إلهي ! لشدَّ ما كانت تُثِير ضميري إذا ما عدت !" .. وخفض من صوته كمن يوشك أن يدلي بسر ما ، ثم قال :" أو تَدْري ماذا كنتُ أفعل في تلك الرحلات؟" ..

واتسعتْ عينا "**أيد**" هولا، إذ تبين أن الذي أمامه لم يكن "**بيتر**"المعهود ، وإنما كان شخصا جديدا!.. وتناول قدح الشراب من "**بيتر**" وهو يجيبُ عن سؤاله :" لا .. ماذا كنتَ تفعل ؟" .. فعب "**بيتر**" من الشراب ، وسعل ، ثم مسح فمه بيده وقال :" كنتُ أسكر ، وأذهب إلى بيوت الهوى في "**سان فرانسيسكو**"!.. كنت أثمُلُ طيلة أسبوع في العام، وأذهبُ إلى بيوت الهوى كل ليلة!" . وأترع قدحَه الشرابُ وهو يمضي قائلا :" وأحسبُ أن "**إيما**" كانت تعرف ، ولكنها لم تقل شيئا على الإطلاق .. كنت خليقا بأن أنفجر إذا لم تُتَحْ لي الفرصَة للرحيل!؛.

وقال "**أيد شابيل**" وهو يرشفُ شرابَه في تردد :"لقد كانت تقول دائما: إنك تسافر لبعض الأعمال " . فنظر "**بيتر**" إلى قدحه ، ثم أفرغه في جوفه ، وملأه من جديد.. وبدأت عيناه تلمعان ، ثم قال: "اشرب قدحك يا "**أيد**" .. إنني أعرف أنك لاترى في تعاطي الشراب في مثل هذه الظروف عملا لائقا..

ولكن أحداً سوانا لن يعرفَ بما يجري الآن بيننا ، حرِّكْ النار في المدفأة ، فلست حزيننا!.. ونهض "**شابيل**" فحرك النارَ ، حتى تَطَايَر الشَّرَر في المدخنة كطيور لامعة براقة، بينما ملأ "**بيتر**" القدحين ، واضْطَجَع في الأريكة ، وعندما عاد "**أيد**" إلى مقعده، رشف من قدحه وهو يتظاهر بأنه لم يفطن إلى أنه ملئ من جديد!.. وبدأ خداه يتوردان ، وخُيِّل إليه أن تعاطي الشراب في مثل تلك الظروف ليس بالأمر المنكر.. بل إن فترة الأصيل ، وحادث الوفاة ، غابا عن ذهنه في جوف الماضي !

وقال "**بيتر**" :

– تصورْ .. أعتقد أنني لن أقرب الفطيرَ والكعكَ مرة أخرى .. لقد ظلَّ الناس عشر سنوات يُوَاتوني بالكعك كلما مرضت "**إيما**" .. ولقد كان هذا كرماً منهم ، ولكن الكعكَ أصبح يقْتَرنُ في نظري بالمرض .. اشرب!" .. وطرأ إذ ذاكَ تغير على الغرفة ، فتطلعَ كل من الرجلين إلى الآخر محاولا أن يعرف ما جرى .. كان ثمةَ تغيُّر جعل الغرفة تختلف عما كانت عليه قبل لحظة.. وما لبث "**بيتر**" أن ابتسم في استخذاء وقال :" لقد وقفتْ الساعة التي على رف المدفأة.

ما أظنني سأَمْلؤُها من جديد .. سأحضر ساعة صغيرة ذات جرس، وذات بندول سريع ، فإن حركة بنْدُول الساعة الكبيرة بطيئة ، توحي بالحزن !" .. وتجرع الشراب الذي كان في القدح ، ثم قال :" أحسبك ستقول للملأ إنني مجنون !" .. فرفع "**أيد**" رأسه عن قدحه ، وأومأ مبتسما ، ثم قال:" لا .. إنني أقدر مدى شُعورِكِ إزاء الأمور .. ما كنت أعلم أنك ترتدي عنانا وحزاما !" .

فقال "**بيتر**" :" لقد كانت ترى أن الرجل يجب أن يكون مستوي القامة . ولكنني أميل إلى الأحديدابِ بطبيعتي!" ..

ثم انفجر في حنق : بل إنني أحمقُ بالسليقة ! لقد ظللت عشرين عاما أتظاهر بأنني حكيم ، طيب .. اللهم إلا أسبوعا من كل عام!.. كان كل شيء يُملَى عليَّ إملاء ، بل كانت حياتي تُرسَم لي .. ألا دعني أملأ قدحك !.. إن لدي زجاجة أخرى في مخزن الغلال مخبأة تحت الأكياس !" .. فقدم "**أيد**" قدحه ليُملأ ، بينما استطرد "**بيتر**" قائلا:" لقد خطر لي أن من البديع أن أزرعَ كل أرضي المستوية، الممتدة على ضفة النهر، بالبسلة .. تصور منظرها إذا جلس المرء في الشرفة الأمامية ، وشاهد كل هذه المساحة وقد اكتست بزهور زرقاء و وردية .. فإذا هبت عليها الريح ، فاح منها عبير يسكرك!.

– كثيرون من الناس أغرتهْمُ البسلة فأفلسوا !.. صحيح أنك تحصل على ثمن عال للمحصول ، ولكن هناك أخطار كثيرة تهدد هذا المحصول!

فصاح "**بيتر**" :" لستُ أحفلُ البتة.. إنني أتوق إلى أشياء كثيرة.. إلى أربعين فدانا

من الألوان الجميلة والعبير الشذي!.. وإلى امرأة سمينة ، ذات صَدْرٍ كأنه وسادة .. إنني جائع !.. أؤكد لك أنني جائع إلى كل شيء!!"..

وتجهَّمَ وجهُ "**أيد**" إزاء الصِّياح، وقال :" لو أنكَ أخذْتَ واحدا من الأقراص ، لنعِمْتَ بالنوم!".. وتبدَّى الخجل على "**بيتر**" ، وقال :" إنني بخير ، وما قصدتُ أن أصْرخَ هكذا .. إنني لا أفكر في هذه الأشياء للمرة الأولى ، بل لقد ظَلَلْتُ أفكر فيها عشرين عاما ، كما يفكر الأطفال في العطلة الدراسية!.. لقد كنتُ دائما في خوف من أن أكتَهِلَ ، أو أن أموت قبل زوجتي ، فتفوتنُي كل المتع!.. على أنني لم أتجاوز الخمسين ، مايزال لديَّ كثير من القوة.. لقد حدثت "**إيما**" عن زراعة البسلة ولكنها لم تدعْنِي أحقق رغبتي .. لست أدري كيف كانت تحملني على أن أرضخ لها !.. لست أتذكر ، فقد كان لها أسلوب عجيب .. ولكنها رحلتْ، وإني لأشعر بأن عهدها انقضى كما انقضى عهد ذلك العَنَان!.. لسوف أترهَّلُ يا "**أيد**" ، حتى أملأ البيت بجسمي .. وسأحمل الأوساخ في نعلي إلى داخل البيت.. وسآتي بمدبِّرة ضخمة سمينة للبيت.. ضخمة سمينة .. من "**سان فرانسيسكو**"!.. وسأحرص على أن تكون علي الرف زجاجة شراب دائما!".

ونهض "**أيد شابيل**" فتمطَّى قائلا:" أرى أن أعود إلى داري الآن إذا كنت تشعر بأنك بخير ، وسأنامُ قليلا .. يحسن بك أن تملأ الساعة يا"**بيتر**" ، فليس من الخير للساعة أن تقف معَطَّلة !".

*****

وشرع "**بيتر**" يعمل في مزرعته منذ اليوم التالي للجنازة ، فَلمَحَ آل" **شابيل**" -الذين يقيمون في المزرعة المجاورة- نورَ المصباح في مطبخه قبل طلوع النهار بوقت طويل، ولمحوا مصباح اليد (الفانوس) يتحرك في ساحته إلى مخزن الغلال قبل أن يغادروا مضاجعهم بأكثر من نصف ساعة!.. وقَضىَ "**بيتر**" ثلاثة أيام في تشذيب أشجار بستانه وتقليمها، فكان يعمل منذ انْبِثَاق ضوءِ النهار ، حتى تَدْلَهِمَّ الظلمة . ثم شرع يُفْلح

الأرض الواسعة الممتدة إلى جوار النهر ، فحرث وعزَقَ . وما لبث أن أقبل غريبان على المزرعة ، وهما في ملابس ركوب الخيل ، فتفقَّدا الأرض، وتحسَّسَا التُّربة بين أصابعهما ، ودقا "خابورا" في جوفها ، حتى إذا رحلا ، حملا معهما أكياسا بها عينات من التربة.

وكان من عادة المزارعين أن يُكْثِروا من التزاور قبل موسم الزراعة ، فيجلسون القرفصاء، ويغترفون تراب الأرض ، ويفركون القطع المتماسكة منه بين أصابعهم ، وهم يتحدثون عن الأسواق ، ويتذاكرون السنوات التي ارتفعتْ فيها أسعار "الفاصوليا" ، والسنوات التي لم يكد محصول البسلة يُدِر فيها ثمن التقاوي . وكان من المعتاد بعد مداولات عديدة من هذا النوع ، أن يزرع الفلاحون جميعا صنفا واحدا .. وكان لبعض الرجال آراء راجحة بينهم .. فلو أن "**بيتر راندال**" – أو "**كلارك**" **دي ويت**" – رأى أن يزرع "لوبيا حمراء" و"شوفان" ، . لانقلبت معظم الزراعات إلى "لوبيا" و"شوفان" في ذلك العام.، إذ كان من المسلم به أنه ما دام مثل هذين الرجلين محترمين وموفقين ، فلابد أن خُطَطَهُما تُبنَى على شيء أكثر من مجرد المصادفة والحظ!.. وكان مما يؤمن به القوم – وإن لم يجهروا به – أن "**بيتر راندال**" و"**كلارك دي ويت**" قد أوُتيا مقدرة عقلية أكثر مما أوتي غيرهما من الناس ، وموهبة خاصة تمكنهما من معرفة الغيب!

وعندما بدأ التَّزاورُ المعهود في ذلك العام ، لوحظ أن هناك تَغَيُّرا طرأ على "**بيتر راندال**" .. إذ كان يَعْتَلي محراثه ، ويتحدث في مرح . ولقد قال: إنه لم يستقر بعد على ما يزرعه ، ولكنه قالها في شيء من الارتباك ، أوحى بأنه لم يكن راغبا في أن يُصَرِّحَ بالمحصول الذي اختاره ! حتى إذا صدَّ بعض المتسائلين في جفاء ، انقطعتْ الزيارات لمزرعته ، واتجه المزارعون بجَمْعِهم إلى "**كلارك دي ويت**" ، وكان "**كلارك**" قد قرر أن يزْرعَ أرضه شوفان ، فأملى قراره الرأي على أغلبية المزارعين في المنطقة!

ولكن الاهتمام بما قرره "**بيتر**" لم يقفْ بِتوقفِ الناس عن سؤاله .

بل كان المارون بجوار أرضه يتأملون الحقل ، محاولين أن يتبيَّنوا من طريقة حرثه نوع المحصول المقبل . وعندما شرع "**بيتر**" يسوق آلة البَذْر في أرضه ، لم يعدْ أحد يَنْفذْ إليها، إذ جَهَر "**بيتر**" بأن نوع محصوله سر يجب أن يتكتمه !.. ولم يفش "**أيد**

شـابيل" ما كان يعرفه .،. فقد كان يـشعر باستحياء كلما تذكر تلك الليلة .. كان يسْتَنْكِر انهيار "**بيتـر**" ، ثم تحرره ، كـما كـان يستنكر من نفسـه أن استمع له ! وكان يرقـبُ "**بيتـر**" خلسة ، ليرى ما إذا كان قد نفذ نواياه المرذولة، أو أن كل ما سمعه كان نتيجة اخْتِبال وانهيار عصبي أصاباه عندما ماتت زوجته !.. ولاحظ أن كتفي "**بيتر**" لم تعودا مستقيمتين، وأن بطنهْ قد بَرَزَ قليلا . وذهب إلى دار" **بيـتر**" ،، فارتاحت نفسه حين لم ير أثرا للأوساخ على الأرض، وحين سمع السـاعـة التي تعلو المدفـأة تدق !.. وكثيرا ما كانت السيدة "**شـابيل**" تتحدث عن ذلك الأصيل الذي ماتت فيه "**إيمـا**" ، فتقول:" كنتَ خليقا بأن تظنه قد فقد عقله .. إذ راح يُعْول .. ومكث "**أيـد**" معه شطرا من الليل ، حتى سكتَتْ نفسه ، وقد اضطر "**أيـد**" إلى أن يسقيه بعض الشراب ليحمله على النوم.. ولكن العمل الدائب هو خير ما يقتل الحزن.. إن "**بيـتر راندال** " يسـتـيـقظُ في السـاعـة الثالثـة من كل صبـاح ، فـأنا ألمح من مـخـدعي النور في نافـذة مطبخه!" .

وأصبحتْ مياه نهر "**ساليناس**" قاتمة ، وظل الفيضان شهرا ، ثم هبط مستوى المياه، فخلف بحيرات خضراء صغيرة.

وكـــان "**بيـتـر**" قد أحسن تخطيط أرضه وحرثها ، فلم تعد بها كتل من الترابِ المتماسِك تَزِيدُ في الحجم على البُنْدقة .. وكانت – عندما تهبط الأمطار – تبدو قرمزية غنيـة بالخـصب . ثم نبتَتْ السيقـان الخضراء الواهنـة ، في صفـوفِ عَبْر أرض الحـقل السمـراء . وتسلل أحد الجيران في جُنْح الظلام، ومد يده خلال السيـاج ، فقطع سـاقا صغيرة، ثم قال لأصدقائه:" أحْسِبُها بسلة .. وفيم تكتُّمُه أمرها ؟" .. وسرى النبأ خلال المزارع :" أنها بسلة .. لقد زرع الأفدنة الخمسة والأربعين كلها بسلة.. وسعى الرجال إلى "**كلارك دي ويت**" يسألونه رأيه ، فكان هذا الرأي :" إن الناس يخالون أن بوسعهم أن يُثْروا من وراء زراعة البِسلة ، لأنك تستطيع أن تبيع الرطل بثمن يتراوح بين عشرين وستين سنتا . ولكنها أكثر المحصولات في العالم تعرُّضا للأخطار .. إن البسلة قد تكون

مُرْبحة إذا لم تُصِبْها الحشرات .. ولكن قد يشتد الحر يوما، فيتلف المحصول كله!.. إن من الصواب أن تزرع بضعة أفدنة ، ولو أن في هذا مجازفة ، ولكن من غير الحكمة أن تزرع أرضك كلها .. لقد أُصِيبَ "**بيتر**" بمَسٍّ من الخبل منذ موت "**إيما**!".

وانتشر هذا الرأي ، وأصبح كل رجل يُفْضِي به وكأنه رأيه الخاص !.. وكثيرا ما كان أي جارين يقولانه ، فيُفْضِي كل منهما بنصفه !.. وعندما ردده الكثيرون لـ"**بيتر راندال**" ، استَشَاطَ غاضبا في أحد الأيام وصاح: " ألا نبئوني .. أرض من هذه ؟.. إذا كنت أريد الإفلاس فهذا من حقي .. أليس كذلك؟" .. وبَدَّل قوله هذا من الشعور العام! فلقد تذكر الناس أن "**بيتر**" كان دائما مزارعا موفقا ، فلعله أُوتِي دراية خاصة .. ولابد أن الغريبين اللذين زاراه قبيل الموسم كانا من الخبراء بالتربة !.. وتمنَّى كثيرون من المزارعين لو أنهم زرعوا بضعة أفدنه بسلة !..واشتدَّ هذا الشعور لديهم عندما امتدت فروع البسلة ، وتشابكت ، وغطت الأرض السمراء .. وعندما بدأت البراعم تتكون وتوحي بأن المحصول وفير . ثم تفتحت الزهور ، فإذا الألوان تنتشرُ في الأفدنة الخمسة والأربعين ، وإذا الشَّذَى يفوُح من الأفدنة الخمسة والأربعين حتى لقد قِيلَ : إنك كنتَ تستطيع أن تشم العبير في "**ساليناس**" التي تبعدُ عن المزرعة بأربعة أميال!

وأخذ "**بيتر راندال**" يجلس في مقعد هزَّاز في الشرفَةِ الأمامية لداره بعد ظهر كل يوم ، فيُسَرحُ البصر في الأحواض الواسعة التي انتشر فيها اللونان الوردي والأزرق ، وفي الأرض كلها التي اختلط فيها اللونان .. وعندما كان نسيم الأصيل يهب، كان "**بيتر**" في نهم، وقد فتح صدر قميصه ، وكأنه كان يتوق إلى أن ينفذ العبير خلال جلده!

وسَعَى الرجال إلى "**كلارك دي ويت**" يسألونه ، رأيه، فقال: " هناكَ عشرةُ افتراضات بشأن ما قد يَحْدُث فيُفْسِد المحصول . ولكن ، هنيئا له ببسلته!" . وأدرك القومُ من انفعال "**كلارك**" أن الحسدَ دب إلى نفسه . وأصبحوا كلما تأملوا الحقول الملونة ، ومدوا أبصارهم إلى "**بيتر**" وهو يجلس في شرفة داره .. أصبحوا يشعرون بإعجابٍ جديد ضاعف من احترامهم إياه! .. وزاره "**أيد شابيل**" ذات أصيل ، وقال له: ــلقد أُوتِيتَ

مْحصولا طيبا يا سيد! " . فأجابه "**بيتر**" .

"الظاهر أنه كذلك!" .. ثم تنهد قائلا : " ولكن موسم الأزهار أوشك على نهايته ، وكم أكره أن أشهد تساقط الزهور ! " .

– بل يسرُّني أن أراها تسقط ، فلسوف يعود عليك المحصول بمال وفير ، إذا لم يحدث ما ليس في الحسبان .

وأخرج "**بيتر**" منديلا كبيرا ، فمسح أنفه ، وحك جانبيه، ثم قال :

–" سأشعرُ بالأسف حين يغيب الشذى " .. وأشار "**أيد**" إلى ليلة وفاة "**إيما**" ، ثم غَضَّ إحدى عينيه ، وتساءل هامسا :" هل عثرتَ على من تُدبِّر لك شؤون دارك؟" .

فأجاب "**بيتر**" :" لم أَبْحَث .. لم أجد وقتا لذلك" .. وكانت تحيط بعينيه تجعُّدات تَنِمُّ عن قلق ، فقال "**أيد**" لنفسه :" من ذا الذي لايقلق ، إذا كانت أتفَهُ سحابة ممطرة كفيلة بأن تفسد عليه محصول عام بأسره؟

ولكن، لو أن الموسم والجو كانا قد أُعدا خصيصا للبسلة ، لما جاء المحصول خيرا من ذاك الذي جناه "**بيتر**" ! .. كان الضبابُ يهبط قريبا من الأرض في الصباح الباكر أيام الحصاد .. وعندما استَلْقَتْ الفروع المثقلة على "المشمع" الذي نُشِر من أجلها على الأرض ، أخذت الشمس تشرق حامية ، فتجفَّفُ قرونَ البسلة . وأخذ الجيران يرقبون الأكياس الطويلة وهي تمتلئ بالحباتِ السَّوداء السمينة، ثم يعودون إلى دورهم ويحاولون أن يَحْسِبوُا مقدار المال الذي سيجنيه "**بيتر**" من محصوله الهائل !

*****

عندما يسافر أحد من أبناء وادي "**ساليناس**" الأعلى إلى "**سان فرانسيسكو**" لعَمَلٍ أو لنزهة ، فإنه ينزل في فندق "**رامونا**" ، لأن بوسعه دائما أن يجد في بهو الفندق فردا من موطنه فيجلس معه في مقاعد البهو الوثيرة ، ويروح الاثنان يتكلمانِ عن وادي "**ساليناس**" .. ولقد قُدِّر لـ"**أيد شابيل**" أن يذهبَ إلى "**سان فرانسيسكو**" ليقَابِلَ ابنَ عَمّ زوجته الذي كان مقبلا من "**أوهايو**" في رحلة للنزهة . ولما لم يكنْ القطار مُرْتَقَبا

قبل صباح اليوم التالي ، فقد أخذ "**أيد**" يبحث في بهو فندق "**رامونا**" عن أحد من وادي "**ساليناس**" ، ولكنه لم ير في المقاعد الوثيرة سوى أغراب !.. ومن ثَمَّ ذهب إلى إحدَى دور السينما ، حتى إذا عاد ، أخذ يبحث من جديد عن شخص من موطنه ، ولكنه لم ير في هذه المرة أيضا سوى أغراب!..وفكر في أن يُلْقِي نظرة على سَجِلٍّ نزلاء الفندق ، ولكن الوقت كان متأخرا ، فجلس في البهو ريثما يفرغ من تدخين سيجارة قبل أن يأوي إلى مخدعه!

وفجأة ، سمِعَ جَلْبَة ، ثم رأى كاتب الفندق يشير بيده،فيهرع أحد الخدم إلى الخارج.. واستدار "**أيد**" في مقعده ليرى ما هناك، فإذا سائق إحدى سيارات الأجرة يُساعِدُ رجلا على مغادرة السيارة . ثم تقدم خادم الفندق فأخذ الرجل من السائق ، وراح يقُودُهُ إلى الباب .. وكان ذلك الرجل "**بيتر راندال**" ، وقد زاغتْ عيناه ، وفَغَرَ فاه، وسال لُعابُهُ . ولم تكن تعلو شعره المشوش قبعة!.. وقفز "**أيد**" من مقعده، وسار إليه ،وهتف :" **بيتر**" !".. وكان "**بيتر**" يناضل الخادم في ضعف ، وهو يقول :" دَعْني.. إنني بخير .. دعني وسأمنحك دولارين!".. وعاد "**أيد**" يهتف :" **بيتر**"!".. وتحولتْ العينان الزائغتان إلى "**أيد**" في تؤدة ، ثم ألقى "**بيتر**" بنفسه بين ذراعيه ، وهو يصيح" :" ياصديقي الحميم!.. "**أيد شابيل**" ، ياصديقي الحميم الطيب!.. ماذا تفعل هنا ؟.. اصعَدْ معي إلى غرفتي ، وتَنَاول كأسا ! " . وساعده "**أيد**" على أن يستوي على قدميه ، وهو يقول:" سأصعدُ بالتأكيد، فإني أميل إلى تناول كأس قبل النوم!" .

– كأس !.. لسوفَ نَخْرجُ فنذهب إلى إحدى دور السينما ، أو إلى شيء من هذا القبيل!

وأعانه "**أيد**" على الوصول إلى المصعد ، وعلى بلوغ غرفته . وهناك، ارتمى "**بيتر**" على السرير. ثم جاهد حتى استطاع أن يجلس ، وقال :

-هناك زجاجة شراب في الحمام ، فأحضرْ لي معك كأسا !".. وأحضر "**أيد**" الزجاجة وكأسين ، وهو يقول:" ما الذي تفعله يا "**بيتر**" .. أتحتفل بمَحْصُولكَ؟..

لابد أنك كسبْتَ مالا وفيرا " . فبسط "**بيتر**" راحته ، وأخذ يَطْرُقُها بسبابة اليد الأخرى ، وقال: " بالتأكيد .. ولكن الأمرَ لم يكن أكثر من مقامرة. أجل ، كان أشبه بمقامرة صريحة ! " .

– ولكنك كسبْتَ ثروة.

فزمجر "**بيتر**" مفكرا ، وقال : " كان من المحتمل أن أَخْسَرَ ثيابي نفسها .. لقد ظللتُ في قلق طيلة الوقت.. العام بأسره!.. كانت مقامرة!" .

– لكنك كسبْتَ ثَروة ، على أية حال!

وحول "**بيتر**" مجرى الحديث قائلا في اعتذار : " لقد أُصبْت بقيئ ودُوار .. لقد تقيَّأْتُ في "التاكسي" .. إنني عائد لتوي من بيت للهوى في طريق "**فان نيس**" ! لقد وصلتُ الليلة إلى المدينة .. كنت أوشك أن أنفجر لو أنني لم آت وأنعم بشيء من التحول عن نظام حياتي ! " .

وتطلع إليه "**أيد**" في عجب ، فإذا رأسه يتأرجح بين كتفيه، وإذا لحيته مشعثه، مهوشة.. وشرع "**أيد**" يقول: " "**بيتر**" .. ليلة وفاة "**إيما**" .. لقد قلت إذ ذاك إنك تعتزمُ.. أن تُغيِّر مجرى حياتك ! " .

فارتفع رأس " **بيتر**" المتأرجح في بطء ، وتطلع إلى "**أيد شابيل**" وجَفْنَاه يكادان ينطبقان على عينيه ، ثم قال في تثاقل : " ولكن "**إيما**" لم تَمتْ .. إنها تَأْبى أن تدعَنِي أتصرفُ وفق هواي..

لقد أَقضَّتْ راحتي طوال العام بشأن تلك البسلة!" ..

وبدت الحيرة في عينيه وهو يمضي قائلا: " لستُ أدري كيف تتسلطُ علي ! " .. ثم عبس ، وعاد يطرق إحدى راحتيه بأصبع اليد الأخرى ، وهو يقول: " ولكن ، ثِقْ يا "**أيد شابيل**" أنني أبيْتُ أن ألبسَ ذلك العنان (اللجام) ثانية.. بل إنني لن أرتديه ما حييت. فاذكر هذا العَهْد ! " .

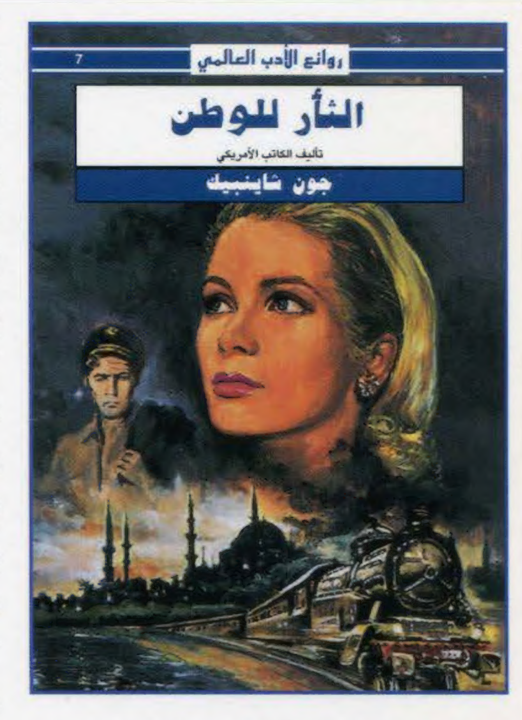
وعاد رأسه يميل إلى الأَمَام ، ولكنه ما لبث أن عاد يتطلع إلى "**أيد**" بعد لحظة ،

وقال : " لقد سكرتُ ، ولقد ارتَدْتُ بيوتَ الهوى " .. ثم مال على "**أيد**" وقال هامسا وكأنه يفضي إليه بسر : " ولكن ، لابأس .. سأكفرُ عن ذلك عندما أعود إلى المزرعة .. أفتدري ما الذي سأفعله ؟ .. سأدخل الضوء الكهربائي في البيت .. لقد كانت "**إيما**" ترغب في المصابيحِ الكهربائية !؟ .

واستلقى على السرير ، فسوى "**أيد شابيل**:" من اضطجاعه وخلع عنه ثيابه ، قبل أن يغادر الغرفة ، وهو يعجب في نفسه ، لقد ماتت "**إيما**" ، ولكن العنَانَ مازال يشُدُّ "**بيتر**" ويسيطر على حركاته !

تمت





"جون شتينبك" أحد الرومانسيين المعروفين في القرن العشرين. تناول بطريقة حادة البعد المأساوي للحركات الاقتصادية العظيمة للعصر، واهتم بوصف مصير الضحايا والمنفيين والعمال البسطاء التي تهدمت حياتهم بسبب أزمات السوق. إن كتاب "شتينبك" يطرح دائماً حرية الفرد كقيمة أساسية. ولقد تمكن هذا الكاتب من اتخاذ نبرة متحفظة في وصف آلام حياة هؤلاء البسطاء مثلما فعل في رواية "ابتسامات وبشر وعناقيد الغضب". حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٢.

ولد "جون شتينبك" في عام ١٩٠٢ م في مدينة "ساليناس" بـ"كاليفورنيا". عاشت أسرته- من أصل ألماني- حياة متواضعة. بدأ دراسته للبيولوجيا البحرية بجامعة "استانفورد"، ولم ينته منها مطلقاً. وحينذاك بدأ كتابة نصوص صحفية، وغادر "كاليفورنيا" إلى "نيويورك" حيث عمل صحفيا.

عاد إلى "كاليفورنيا" في ١٩٢٦ ليتخصص في مهنة الكتابة، وكانت أول رواية له هي "كأس من الذهب" في ١٩٢٩م". ومع الرواية الرابعة له بدأ صيته ينتشر، وكان النجاح على موعد معه مع رواية "الوادي الطويل" في عام ١٩٣٨م، وتوالت أعماله بعد ذلك، وكتب عدة سيناريوهات لبعض الأفلام ما بين ١٩٤٣ و١٩٥٥م.

وكان مضمون رواية "الثأر للوطن" لـ"جون شتينبك" يدور حول مدينة اسكندنافية صغيرة تقاوم الغازي الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية لأن الحلفاء لم يتمكنوا من الوصول إلى هذه القرية النائية. لكن عندما غادر الجيش الألماني تحول الموقف فجأة، وانقسمت إلى ثلاثة معسكرات: المتعاونون مع العدو النازي الجديد، والجنود الألمان الذين استولوا على المدينة، والأهالي الذين يقاومون بطريقة شبه سلبية. من خلال هذه المعركة الطويلة التي سيطر عليها الضرر والخوف تميزت ثلاث شخصيات: عمدة المدينة الذي يسعى لإنقاذها، والمتعاونون مع الاحتلال، والكولونيل النازي. تتم متابعة هذه المدينة وسكانها من خلال عيون هؤلاء الثلاثة. لن تنته الرواية مع السلام، ولكن يُعرف منها ما يكفي لاستخلاص الدروس المفيدة.

لقد كتبت هذه الرواية في عام ١٩٤٢م، وكان لدى المؤلف رؤية موضوعية جداً عن أحداث هذه الفترة. لقد ارتأى أنه لا يوجد مذنبون أو ضحايا. إن الجميع سواء أكان الكولونيل أم المتعاون مع الاحتلال أم المقاوم ضحايا الحكم الشمولي لـ"هتلر". فالجنود يبكون للكراهية التي يضمرها الشعب لهم، والمتعاون مع الاحتلال ملفوظ من قبل مدينته والمقاوم؛ لأن الجميع يعاني ويلات الحرب. إن الشخصيات محاصرة جيداً والأحداث مفهومة تماما من قبل المؤلف.


ISBN 9953-443-20-3
9 789953 443201